تركي الحمد

شرق الوادي

أسفار من أيّام الانتظار



دار الساقي

تركي الحمد

شرق الوادي

أسفار من أيّام الانتظار

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي

- الثقافة العربية أمام تحديات التغيير
- العدامة
- الشميسي
- الكراديب
- الثقافة العربية في عصر العولمة

لوحة الغلاف للفنان: حسين ماضي

الطبعة الثانية ٢٠٠٠

ISBN 1 85516 381 0

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb
DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

المحتويات

إهداء

إلى ذكرى الأوَّلين...

ومن أجل مستقبل الآخرين...

إلى ذكرى أجدادي...

ومن أجل مستقبل أولادي...

وفي البدء

حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى حدثنا سفيان هو الثوري حدثنا سليمان هو الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم قال اكتب، قال وماذا أكتب؟ قال اكتب القدر فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى قيام الساعة، ثم خلق النون ورفع بخار الماء ففتقت منه السماء وبسطت الأرض على ظهر النون فاضطرب النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال فإنها لتفخر على الأرض...

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب حدثنا أخي عيسى بن عبد الله حدثنا ثابت الثمالي عن ابن عباس قال: إن الله خلق النون وهي الدواة وخلق القلم فقال اكتب قال وما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول به بر أو فجور أو رزق مقسوم حلال أو حرام ثم الزم كل شيء من ذلك شأنه: دخوله في الدنيا ومقامه فيها كم وخروجه منها كيف ثم جعل على العباد حافظة وللكتاب خزاناً...

❀ ❀ ❀

لا أدري ما الذي يدفعني إلى كتابة حكايتي، إن كان لها أن تُسمى حكاية، بعد كل هذه السنوات من التجوال والتطواف في بقاع معمورة الرحمن، برفقة زهرتي الصابرة. زهرتي التي ضحت بالاستقرار والأطفال، وكل ما يطيب للأنثى في بلادي، ومن أجل قرار بالضياع اتخذه شاب نزق متحمس ذات يوم، بعد قراءته لمخطوط عجيب، بيد عجوز غريب، فقد

الوعي بالدنيا، فتركته الدنيا. تجاوزني الشباب والكهولة، وهاأنذا اليوم وقد اشتعل الرأس مني شيباً، وأخذ ظهري ينحني، وبدأ مدخل نفق البعد الآخر يلوح في الأفق. ذلك النفق الذي نسميه موتاً، والبعد الذي نسميه ما بعد الموت، وهو ما يرعبني حقاً. لا تسيؤوا الظن بي، فلست جباناً ولا خائفاً من الموت، ولا مما بعد الموت، فمن أخذ بيدنا في الأُولى لا بد أنه آخذ بيدنا في الآخرة، ولكني أشعر بالوحشة من المجهول. أريد أن أعلم شيئاً لا تعطنيه معلومات الإنسان القاصرة. أريد أن أعرف لماذا وكيف وإلى أين... فهل أطلب الكثير، أم أنه المستحيل؟

ليس في حكايتي شيء مثير على أية حال، بل يمكنني القول إن أربعين عاماً من حياتي وحياة زهرة ضاعت سدى، إلا أن يدركني ذو الرحمة برحمته، ويتبدد الضياع، وتنقشع الحيرة. لم أكتب حرفاً واحداً في حياتي، منذ أن تركت مقاعد الدراسة، وأعني بذلك حرفاً يستحق أن يقال له حرفاً، فما أكثر الحروف وما أكثر الكلمات، ولكن أين المعنى؟ فشتّان بين كلمة تخلق الوجود مثل «كن»، وكل الكلمات الأُخرى التي قيلت في هذا الوجود من دون أن تفعل له شيئاً. ولكن دافعاً قوياً يقول لي أن أكتب كل تلك الأسرار التي عرفتها من مخطوط جدي رحمه الله، وحياتي التي لا تعدو أن تكون لحظة عابرة رغم السنين، وذرة من غبار حقيرة في غبار هذا الكون، فما الزمن إلا ما تحسه النفس مهما حاولنا القياس، وليس حركة الشمس ودورة القمر ولهاث الخنس والجواري الكنس.

حياتي التي يمكن إيجازها بعبارة واحدة: البحث عن حقيقة، وربما وهم البحث عن حقيقة، وأنا بين الوهم والحقيقة حائر لا أدري أين أكون، بل لم أعد أدري من أكون. فإذا كان كل الوجود محصور بين حرفي الكاف والنون، فعدمي ملقى بين الوهم والحقيقة. كل ما أمنّي النفس به اليوم، لحظة من لحظات إشراق المتصوفة تعتريني فجأة، فتنقلب الحيرة إلى يقين، ولو كان يقيناً زائفاً، المهم أن يكون يقيناً. ففي اليقين لا فرق بين الزائف والأصيل، فكله ثبات في النفس، وراحة في عموم الذات. رحم الله

جدي، فقد كان في أيامه الأخيرة يكثر من دعاء: «يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»، ثم يقول، وقد غارت عيناه بالدمع الغزير: «اللهم يقين كيقين أم جابر، وإيمان كإيمان عجائز نجد». ولكن لو كان اليقين باليد، لما ضاقت النفس، ولما كان البحث والأمل. ولعل في قولهم «ضاقت، فلما استحكمت حلقاتها، فرجت وكنت أظنها لا تفرج»، شيئاً من الأمل يراود النفس. ولكن إلى أن تأتي اللحظة، وإلى أن تفرج، فأنا في برزخ الضياع والحيرة أدور، كما يدور كوكب حقير حول كوكب خطير، أو كما يدور ثور الساقية حول الساقية، أو حتى كما تدور ذبابة حقيرة حول مزبلة مهجورة، أعزكم الله، أو نحلة حول زهرة طرية، لا فرق، فنحن من صنع الفروق، وربما لا فرق بين الزهرة والبراز في ذاتهما، بالإذن من أمانويل كانت. لقد غير ذلك المخطوط حياتي رأساً على عقب، وكم كان بودي اليوم لو لم أقرأه حين أعطاني إياه العم عثمان السايح، رحمه الله وسامحه، وعشت حياتي كما يعيشها أي إنسان عادي، ولكن ما بالأماني تسير الأمور. مات أبي وأمي، ولم يبق على قيد الحياة من أقاربي إلا عمي فيصل، وملأ أخوتي الدنيا بالمزيد من البشر، وبقيت وحدي أعاني من ذلك المخطوط اللعين. واليوم أنظر حولي وخلفي وحوالي، فلا أرى إلا الفراغ وقلة الحيلة، وأسأل نفسي في الليالي الطويلة، ماذا حققت من وجودي؟ فيأتيني صوت من الأعماق مردداً: لا شيء... لا شيء... ويزداد ألمي وحسرتي حين تطوف زهرة بخيالي، أو أراها أمامي، فأدرك كم جنيت على هذه المسكينة، التي لم يكن لها ذنب إلا أنها أحبتني.

قد يقول أحدكم مستسهلاً: «ولِمَ كل هذا العذاب؟ لماذا لا تعيش بقية حياتك كما يعيشها بقية خلق الله، فالخيار ما زال بيدك!؟..» كلا، ليس صحيحاً أن الخيار ما زال بيدي، إذ هل يملك المتعلم خياراً في أن يكون جاهلاً، وهل يملك الله الخيار في أن لا يكون إلا خالقاً، وهل يملك

الشيطان الخيار في أن لا يكون إلا وسواساً خناساً، بل هل تملك البعوضة إلا أن تمتص الدم، والنحلة إلا أن تصنع العسل، والذبابة إلا أن تقع على البراز؟.. طبيعة الأشياء قدرها، وقدرها طبيعتها. كل شيء ميسر لما خُلق له، ولكن إذا علم الخالق ما نحن ميسرون له، فكيف نعلم نحن؟ قد نكتشف القضية في آخر العهد وانتهاء الزمان، ولكن «ما نفع الصوت إذا فات الفوت»، كما نقول في أمثالنا الشعبية. حقاً، للناس حكمة لا نكتشفها إلا بعد أن نكتشف أن النهاية قريبة، وأنّا أضعنا العمر في البحث عما كان ملك اليمين دائماً.

أشياء كثيرة نعتقد أننا أصحاب القرار والخيار فيها، فنكتشف في النهاية أننا لم نكن إلا بيادق على رقعة شطرنج، تُحرك ولا تتحرك من عندياتها. وأنا واثق لو أن بيدقاً من بيادق الشطرنج مُنح الحياة واللسان وتكلم، لقال أنه حر الحركة والتدبير، مثل ذلك الحجر الذي تحدث عنه باروخ سبينوزا. ولو تكلم أسد، لقال إنه كذلك بخياره، وكذلك الحمار. ولو تكلمت شاة، لقالت أنها تأكل العشب لأنه أطيب من اللحم، ولذلك اختارته، ولو تكلم ذئب لقال العكس، وكان ذلك بخياره لا بطبيعته. ألا يقولون أنه عندما قسم الله الأرزاق لم يرض أحد بنصيبه، ولكن عندما قسم العقول، رضي كل بعقله؟ يقول أهل الدين إن الله وراء كل شيء. ويقول أهل النفس إن هي إلا غرائز ودوافع وبواعث. ويقول أهل الاجتماع إن هي إلا أنظمة وأنساق وبنى. ولكن كل ذلك يصل إلى نفس النتيجة: ما نحن في النهاية إلا بيادق على رقعة من الشطرنج، وحجر محذوف يعتقد أنه يسير بخياره وإرادته.

أربعون عاماً وأنا أبحث عن سميح، هذا الوهم الحقيقي، والحقيقة الوهمية، وكلما أحسست أني واجده، ابتعد عني فأصل إلى حافة اليأس، ولكنه لا يلبث أن يتراءى لي من جديد، فأسعى إليه، وأرجع حتى من دون خفي حنين، وأقف على حافة اليأس من جديد. لم أدع ثقباً في الأرض ولا مرتفعاً ولا يابساً ولا ماءً إلا بحثت فيه. أصبحت لعبة للكثيرين الذين

أصبحوا يتقاذفونني كالكرة، فيقول لي أحدهم أنه لمح سميحاً هنا، وآخر هناك، فأجري في كل الاتجاهات فلا أجد غير السراب. فسميح يلعب معي لعبة السراب الأزلية السرمدية، وتلك الرمال المتحركة التي تبلعك وأنت لا تدري. تلك الرمال التي أضاعت الكثيرين في صحرائنا التي منها أتينا، وإليها نعود. كم كنت أود أن يأتيني سميح في أحلامي وأوقات حيرتي، كما كان يفعل مع جدي رحمه الله، ولكنه لا يأتي، حتى وأنا أردد اسمه في تلك اللحظات التي كنت أعتقد أني نائم فيها.

ليس بإمكاني اليوم العودة من حيث بدأت، ولو كنت أعلم خاتمتي ما كنت بدأت، على رأي نزار وعبد الحليم. ولكن ما أدراني أن العم عثمان عندما أعطاني المخطوط، لم يكن هو الآخر إلا بيدقاً على رقعة الشطرنج، حركه اللاعب كي أتحرك أنا، ويتحقق الغرض. ألا يقولون إن الله إذا أراد شيئاً سبب له الأسباب، وتحققت الإرادة؟ ألا يصف الله نفسه في كتابه بأنه «خير الماكرين»؟ ودهاء التاريخ الذي يتحدث عنه هيغل، أليس شيئاً من ذلك المكر؟.. المهم... فقدت القدرة على مواصلة البحث، ولم يبق أمامي إلا الانتظار في هذه المدينة المعزولة في ديار مجهولة، إذ لعل وعسى.

قد يكون اليأس هو دافعي للكتابة، وقد يكون التعب والإحباط وقد يكون تزجية كل هذا الوقت الطويل في هذه المدينة المملة، وقد يكون حباً في أن يشاركني الآخرون أسراري، وقد لا يكون لا هذا ولا ذاك، بل إن لاعب الشطرنج الأزلي قد قرر أن يفعل ذلك، بعد أن انتهى دوري، كي تكون حروفي سبباً لحركة لاعب آخر، كما كانت حروف جدي سبباً لحركتي. على أية حال، ليس مهماً دافعي إلى الكتابة، كما أنه ليس مهماً معرفة دافع جدي لكتابة سفره الضخم الذي غيَّر مجرى حياتي، كل ما أشعر به الآن هو شبق محرق للكتابة يتأجج في داخلي، وسوف يحرقني إن لم أحوله أنا إلى نار تحرق القلم والأوراق. حقيقة لا أدري من أين أبدأ، وهل كنت أعرف من أين أبدأ أيام البحث والانتظار، ولكني يجب أن أبدأ.. وهاأنذا أبدأ... وفي البدء كان القلم.. وفي البدء كانت الكلمة... ومن الكلمة

انبثق الوجود... ولعل في الكلمة سر الخلود... بل لعل سميحاً نفسه مجرد كلمة... وربما كنا جميعاً مجرد كلمة خرجت من دون قصد، أو بقصد... لا يهم... وها هو الحرف الأول يظهر للوجود، وكل شيء يبدو كأنه صورة وهمية لشيء أسطوري لم يحدث، ولكنه حدث. ومع صرير القلم، الذي ما زلت مصراً على استخدامه، رغم أنك لا تجده هذه الأيام إلا في حوانيت الأنتيكات والأثريات، يأتي صوت مطربنا القديم محمد عبده يرن في أعماقي بأنين، كما حادي العيس الحزين القديم في غياهب صحراء فقدت أبعادها، وتاهت عن ذاتها، وهو يتأوه بكلمات الشاعر القديم خالد الفيصل:

من بادي الوقت هذا طبع الأيام عذبات الأيام ما تمدي لياليها
حلو الليالي توارى مثل الأحلام مخطور عني عجاج الوقت يخفيها
أسري مع الهاجس اللي ما بعد نام وأصور الماضي لنفسي وأسليها
أخالف العمر أراجع سالف أعوامي وأنوخ ركاب فكري عند داعيها
تدفا على جال ضوه بارد عظامي والما يسوق بمعاليقي ويرويها
إلى صفا لك زمانك عل يا ظامي اشرب قبل لا يحوس الطين صافيها
الوقت لو زان لك يا صاح ما دام يا سرع ما تعترض دربك بلاويها
حتى وليفك ولو هيم بك هيام سيور الأيام تجنح به عواديها

❀ ❀ ❀

كنت أسمع باسم سميح الذاهل منذ أن وعيت على هذه الدنيا، وذلك حين كنا نذهب أنا وإخوتي وأبناء عمومتي مع والدي، عبد العزيز السدرة، وعمومتي، عثمان وصالح وفيصل، لزيارة جدي جابر السدرة في خب السماوي، أو ما كان يُعرف بخب السماوي، منذ أن عاد للاستقرار فيه في نفس السنة التي قام فيها أنور السادات برحلته الشهيرة إلى تل أبيب والقدس. وكثيراً ما كان يرافقنا في رحلاتنا هذه عمتي مزنة، وزوجها عثمان السايح، الذي كان جدي يعتبره واحداً من أبنائه، بل وأعز من أبنائه، فهو الباقي من «ريحة» أبي عثمان، رحمه الله. كان جدي، رحمه الله،

يذكر سميحاً بكل قداسة واحترام، ولكن أبي لم يكن يذكره، هذا إن ذكره، إلا هازئاً في جلسات الأنس مع أصحابه، وخاصة حين يجتمع معهم في استراحة الشمامة، أو مزرعة المزاحمية، أو فيلا السليمانية، المخصصة للسهرات الحميمة جداً، أم هل أقول الحمراء. أما عمومتي، فلا يأتون على ذكره بخير أو شر، بل لم تكن القضية تعني لهم شيئاً على الإطلاق، هذا إن كان هناك قضية من الأصل. فسميح بالنسبة لهم شيء من أشياء هذا العالم، خرجوا فسمعوا به، وانتهى الأمر. لم يكن بالنسبة لهم شيئاً ضاجاً بالأسئلة، محرقاً في وجوده وألغازه، كما كان الأمر بالنسبة لجدي، ولي بعد أن هبطت تلك السلالم اللعينة.

لا أذكر أن والدي تحدث في أي شأن غير المال والأسهم والعقارات، إلا حين يذهب إلى الاستراحة أو المزرعة، وأكثر الأحيان في الفيلا، مع أصحابه في ليالي الخميس خاصة. كنا نذهب إلى هناك كثيراً، وكانت والدتي مشغولة دوماً بالزيارات والتسوق، ووالدي بأسعار كل شيء يمكن أن يباع أو يشترى. وعندما لا يجد ما يقوله أو يفعله، ينتقل إلى صفحة الرياضة في هذه الصحيفة أو تلك، وينقلب فجأة إلى أعظم محلل رياضي في زمانه، وخاصة عندما يتعلق الأمر بالمنتخب أو نادي التماهي، فقد كان تماهياً متعصباً، فيما كان أخوتي من مشجعي نادي التجافي، وبقي عمي فيصل وحده مشجعاً لنادي التصافي. أما أنا، فقد كنت أميل إلى نادي التلاقي أحياناً، وإلى نادي التسامي أحياناً أُخرى. كل ما كان يهم أبي هو المال والرياضة، ولتحترق الدنيا بعد ذلك. حدثته ذات مرة، أو حاولت الحديث معه، حول الحرب العراقية الإيرانية الدائرة، ولكنه عبس في وجهي وقال وهو ينخر بسأم: «فخار يكسر بعضه، ونار تحرق الجميع.. وش كارنا منهم... المهم عساهم ما يوقفون»، فلم يكن يهم والدي من الحرب سوى كيفية الاستفادة منها مالياً. ولذلك أسس هو وبعض أصحابه شركة نقل ازدهرت أعمالها مع استمرار الحرب، فقد كانت تنقل العتاد والمؤن من الخليج إلى العراق.

والحقيقة أنني أنا نفسي لم أكن آبه لما يجري، ولكن كوني طالباً في قسم العلوم السياسية يدفعني إلى الاهتمام بالأحداث بالرغم مني. قد تقولون وما الذي دفعك إلى الدخول في قسم لا تحبه؟ الحقيقة أني وجدت نفسي خريج ثانوية عامة وأنا لا أدري ماذا أريد، فكل دراستي كانت بحكم العادة، لا بحكم الرغبة. وقد كان والدي واسع العلاقة مع الجميع، حتى لو أردت كلية الطب لدخلتها، ولكني أنا نفسي لا أعرف ما أريد. اخترت العلوم السياسية لأنهم قالوا لي أنها أسهل الأقسام، كما أن أصحابي هناك. كان المهم بالنسبة لوالدي أن أصبح جامعياً، وأتبوأ منصباً مناسباً، ولم يكن لدي أي اعتراض.

لقد كان سميح سبحانية من سباحين «شيبان» الخب التي يتناقلها الأبناء عن الآباء. ورغم أن كل واحد كان يذكر شيئاً مختلفاً عن سميح الذاهل، إلا أنه كان حاضر الاسم لدى كل من ينتمون إلى خب السماوي. لم يكن شباب الخب يأبهون لتلك الرعدة التي تعتري «الشيبان» وهم يذكرون اسم سميح الذاهل، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على تسفيه أحلام الشيبان، الذين بقي توقيرهم ظاهرياً بالرغم من سخرية الشباب منهم ورغم أنهم يعتبرون سميح الذاهل خرافة من الخرافات، بل وسبحانية مضحكة تُروى لمجرد التسلية، حين لم يكن إلا السباحين لقتل وقت لم يكن يحتاج إلى قتل، فهو مقتول أصلاً، مثل سباحين «جحه بن علي»، و«الشاة المتجنسة»، و«مطوع البدو»، أو سباحين الشجاعة مثل سباحين عنتر وعبلة، وسيف و«غدير الموت» برجس بن مجلاد. ورغم أن الجميع قد غادر الخب تقريباً، وانتشرت الفيلات الجديثة حوله، إذ حتى الخب لم يعد خباً، فقد تحول إلى جزء من حي «السراب»، وأصبح حياً من أحياء مدينة بريدة، خلال سنوات التوسع والطّفرة، إلا أن الناس ما زالوا يطلقون على الحي اسم «نفود الذاهل»، والبعض من كبار السن يسمونه «حوشدهام»، ولم أكن أدري ما هو معنى هذا الاسم ولا أصله أو مصدره، ولم أكن أكترث حقيقة، حتى قرأت مخطوط جدي رحمه الله.

كان جدي يعيش أيامه الأخيرة، ولذلك لم تتح لي الفرصة أن أرافقه وأتحدث إليه إلا بضع مرات، ولم أكن أكترث لذلك كثيراً، فقد كانت أسأم الأيام هي تلك التي كنا نقضيها بعيداً عن الرياض في القصيم. لم أكن أحب قضاء الإجازات في القصيم، حيث الرمال الجرداء والرتابة والملل، وكل جلافة أهل نجد لمن لا يعرفهم ولا يعرفونه. فبالرغم من مظاهر الحداثة والتمدن التي كانت تنتشر بسرعة تلك الأيام، إلا أن جلافة أهل نجد تبقى غير قابلة للتغير، وجلافة أهل القصيم الأشد في كل نجد. ولعل ذلك راجع إلى قسوة البيئة، وقرب العهد بالفاقة وقيم البداوة. ولكن الغريب في الأمر هو أنك ما أن تقيم علاقة حميمة مع النجدي، فإنه يتحول إلى إنسان أرق من الحرير في علاقته، ومستعد للتضحية بحياته من أجلك. ولم يكن أبي يحب القصيم أيضاً، ولكنه الواجب. ولكني بدأت أحب القصيم ورماله ونفوده وطعوسه، بل أحب الخب، عندما أخذ وعيي يتفتح على سواليف جدي وسبحانية سميح.

كان كل حديث جدي في تلك الإجازات عن سميح الذاهل، وفي أحيان كثيرة، كان جدي يومىء إلى الأفق ويقول باسماً: «هناك... انظر... سميح يحتل الأفق»، فأنظر إلى الأفق فلا أرى إلا شمساً حمراء غاربة وراء جبل قاف في عين حامية، في طريقها إلى عرش الرحمن حيث تنام، متحدية ذا القرنين وجلجامش والخضر أبو العباس. أنظر إلى جدي مستغرباً وأقول: «ليس هناك إلا الشمس والشفق يا أبي!..»، فينظر إليّ جدي وقد غارت عيناه، وافتر ثغره عن بسمة واسعة، ثم يطبطب على ظهري بحنان وهو يقول: «كان سميح يقول، إذا أردنا أن نرى، فسنرى.. العين ما هي بكل شي يا وليدي... عندما تريد أن ترى سميحاً، فستراه... حتى لو أنت أعمى... عمى البصر ولا عمى البصيرة»، ثم يغفو والشمس قد قاربت الغطس في عينها التليدة، وهو يقول بصوت كالهمس: «سميح كالشمس، أو هو الشمس... كلاهما يضيء، وكلاهما يغرب ويموت... ولكن لا بد من البعث والنشور، فالموت نهاية الحياة،

والحياة نهاية الموت، ونحن معلقون في الدوامة... هكذا كان سميح يردد...»، تاركاً إياي في بحر الظلمات، ومتاهات السعير، ودهاليز سقر...

لطالما حاول أبي وعمومتي الثلاثة في الرياض، اللهم لا حسد، وخاصة عمي عثمان الأكبر سناً، أن يقنعوا جدي بالانتقال إلى الرياض، حيث يمكنهم العناية والاهتمام به بشكل لائق. بل أن عمومتي الثلاثة حاولوا إقناع جدي بالإقامة في دمشق، حيث يقطن عمي سليمان وعمتي علياء (عيال الشامية، كما يدعوهما أبي ساخراً، رغم علمه بالطبع بأن جدتي هند نجدية الأب)، الذي حاول بدوره إقناعه بذلك في بعض زياراته المتكررة للبلد في الآونة الأخيرة، إلا أنه كان رافضاً أشد الرفض، وكان يقول بعصبية، وقد تهدجت أنفاسه: «وإن عاد سميح؟.. هل تريدون ألا يجد أحداً في انتظاره فيغيب مرة أُخرى؟... لقد أضعناه كثيراً، فيجب ألا نضيعه كل مرة... قران الكواكب تم، ولا بد من عودة سميح...»، ثم لا يلبث أن يهدأ، ويبتسم وهو يقول بتؤدة: «لم أعد قادراً على مغادرة الخب، فكل شيء قد تغير، ولم تعد الدنيا هي الدنيا، وأنا أخاف المتقلبين... وتقلبكم ليس كتقلب الأولين»، ثم يعود جدي إلى إغفائه وهو يبتسم، وكل من حوله يبتسم ويقول من دون صوت: «رحم الله الأولين، وكان في عون الآخرين...».

والحقيقة أن من يرى جدي لا بد أن يحبه. فقد كان سمح المحيا، كما سميح حسب الوصف. ذو عينين تشعان براءة وسكينة لكل من ينظر إليهما، أو ينظر إليه من خلالهما. كان يقضي يومه بين الصلاة في «مسجد رفيع»، وهو المسجد الذي أُقيم على أرض حايط رفيع، بعد أن أصبح وقفاً، والجلوس في المشراق صيفاً وشتاءً، ولا يكاد يغادر الحي إلا لحاجة ملحة، كأن يعزي في أحدهم، أو يسير في جنازة صاحب عرفه أيام الطفولة والشباب أو أيام عقيل، أو أيام الشركة. ومنذ أن عرفت جدي، لم يغير في طريقة عيشه أو طعامه أو شرابه، رغم عمله الطويل مع مختلف الجنسيات

في الماضي، فبقي المرقوق ألذ أكلاته، واللبن والتمر، وأحياناً خبز البر، فطوره الذي لا يتحول عنه إلا في أيام الشتاء القارصة البرد، حين يكون الحنيني ألذ ما يمكن تناوله. وكان يعد الحنيني بنفسه، فلم يكن يستسيغ ما كان يباع في الأسواق منه، وكان يقول عنه أنه بلا طعم مثل أيامنا. وعندما كان يتناول اللقمة منه، كان يبتسم بلذة وهو يقول: عز الله إنا محظوظون... من كان يحلم بتناول الحنيني كل يوم... نعمة تريد الشكر، ولكنكم قوم لا تشكرون... رحم الله سميحاً وفك أسره...» وعندما كنت أسأل جدي عن ماهية أسر سميح، كان ينظر إليّ بعينيه الصغيرتين، وإشعاع غريب ينبثق منهما، ثم لا يلبث أن يلقي بلقمة الحنيني في فمه الأدرد وهو يقول: «غداً ستعلم... غداً ستعلم... ليس كل ما يعرف يقال... هكذا كان يقول ابن السماوات...» وقد كنا نطلب من جدي أن ينوع في طعامه أو شرابه، وكنا نشتري له الفيتامينات، ولكنه كان يرفض «خرابيط الأمريكان»، كما كان يسميها، التي يعرفها جيداً، ويردد حديثاً لأبي هريرة عن النبي أنه قال: «إن العجوة من غراس الجنة، وفيها شفاء وأنها ترياق أول البكرة وعليكم بالتمر البرني فكلوه فإنه يسبح في شجره ويستغفر لآكله»، ورغم أني لا أعرف ما هو التمر البرني، ولا جدي ولا أبي وعمومتي، فقد كنا نهز الرأس موافقين، ونحن في الحقيقة غير مكترثين، إذ أنه لن يكون أفضل من السكري والبرحي في زمانهما. وفي أيام الصيف الطويلة، كان جدي حريصاً على أكل التين، فهو من نبات الجنة كما يقول، وكان من الثمار التي جلبها آدم معه من الجنة عندما هبط إلى الأرض. ولم أكن أدري من أين يأتي جدي بمعلوماته، حتى قال لي هو ذات مرة أن **بدائع الزهور**، و**قصص الأنبياء**، أفضل كتابين يمكن قراءتهما بعد الكتاب والسنّة، وكان يحضني على قراءتها. لقد قرأ جدي كتباً كثيرة، وضللته كتب كثيرة، كما كان يقول، إلا أن البدائع والقصص تبقى هي الأفضل، بعد كلام الله ورسوله. فرغم أننا قد نندهش أول الأمر من بعض الكتب، ولكن كل يعود إلى رشده في النهاية، ويبقى النبع بعد أن تجف الجداول. لم أفهم ماذا كان يقصد، ولم أحاول الفهم، إذ لم أكن مكترثاً على أية حال.

وعندما كنا نصر على أن يأكل جدي أشياء أُخرى مع التمر، كان يقول بعصبية: «عشت وأبو عثمان سنوات لم نأكل فيها إلا التمر والبر، ولم نشرب إلا الماء واللبن المخضوض، وألذ أيامنا تلك التي كنا نغمس فيها التمر بالزبد... كنا فقراء ولكن النفوس كانت صافية... وكان سميح يقول: التمر والعجوة مما جلبه آدم من الجنة... المن والسلوى طعام اليهود، والعنب والزيتون طعام النصارى، والتمر واللبن وثريد اللحم طعام المسلمين في الدنيا وفي جنة الخلد، ونحن إن شاء الله من المسلمين... وخلكم من خرابيط الأمريكان... ما ضرنا غير أكلهم وعيشتهم». أما ألذ أيام جدي، فقد كانت تلك التي كان يستحم فيها ويتبخر، وخاصة أيام الجمع وهو يستعد للصلاة وكأنه عريس مزفوف. تشعر بسعادة الأطفال في عينيه وهو ينقل المبخرة بين شماغه وثوبه القصير وهو يقول: «كان أبو عثمان رحمه الله يقول أن البخور من بقايا تاج آدم الذي نزل به في أرض الهند.. أما عطور اليوم، فهي دعوة للخطيئة، وصوت للرذيلة، ورائحتها لا تدوم، ككل شيء في مثل هذه الأيام... البخور يذكرنا بما فقدنا، ورائحته تذكرني دائماً بسميح وكيف أضعناه» فلم يكن يسير إلا ورائحة البخور تتضوع من ملابسه...

ورغم وفاة جدتي هيلة منذ أمد بعيد، وجدتي هند منذ فترة ليست بعيدة نسبياً، إلا أنه رفض كل محاولات والدي وعمومتي، وخاصة عمتي مزنة، في جلب خادم له يقوم بأعمال المنزل، وسائق يذهب به إلى حيث يشاء، وكان يقول بغضب غريب عليه: «ما بقي إلا ندخل الأجانب أسات أمهاتنا». وعلى أية حال، فجدتي هند لم تقم معه كثيراً، إذ استقرت، هي وعمتي علياء، عند عمي سليمان في الشام، ثم في بيروت، منذ أن تركت الرياض نهائياً في أعقاب وفاة والدتها أواخر عام سبعين، وكانت قبل ذلك توزع وقتها بين الرياض والشام. وكان موقف جدي من الأجانب غريباً، وهو الذي جاب الدنيا طولاً وعرضاً. وبقي جدي يمشي لقضاء حوائجه حتى أيامه الأخيرة. وكان أحياناً يذهب إلى «الجردة» ماشياً رغم طول

المسافة. لم يعد في الجردة ما يغري، مع كل هذا التغير الذي أصاب البلد، ولكن جدي كان حريصاً على الذهاب إلى هناك كثيراً. كان أبي متضايقاً من ذلك، لا حباً في راحة جدي، فأنا أعرف والدي جيداً، ولكن كي لا يقول الناس أنه أهمل رعاية جدي ولم يأت له بسائق لا يتجاوز راتبه السبعمائة أو الألف ريال، وهو المليونير المعروف، ولكن عمي عثمان كان يهدئه ويطلب منه ترك «الشايب» على راحته. وكنت أبتسم عندما يصف عمي عثمان جدي بالشايب، فقد كان هو نفسه شايباً. واقتنع جدي أخيراً، وبعد إلحاح من عمتي مزنة، بالزواج من أرملة خمسينية من أهل الخب، كانت تطهو له طعامه القليل وتقوم بأعباء المنزل. وكان شرط جدي الوحيد في الزواج هو عدم قدرة من سيزوجونها إياه على الإنجاب. وأذكر أن والدي ضحك وهو يسمع شرط جدي، الذي غضب وعنَّف والدي كثيراً، فقد اعتبر ضحكة والدي تعريضاً به وبرجولته. ولكن عمتي مزنة، بروحها المرحة، و«ميانتها» على جدي، شتَّتت التوتر وقالت لجدي وهي تقبِّل رأسه وتضحك: «ابد، ما يصير بخاطرك إلا الطيب. لك علينا أن نجد لك امرأة خلقها الله بلا رحم من الأساس»، فضحك جدي وهو ينظر إلى مزنة بحب وقد اغرورقت عيناه، فقد كانت تذكره دائماً بأمها، خلقاً وخُلقاً...

حتى بيت جدي بقي كما هو منذ أن أُعيد بناؤه وترميمه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، حين كان جدي يعمل في شركة أرامكو، على أنقاض بيت أبيه: كان بيتاً طينياً فسيحاً في غابة من بيوت الأسمنت الحديثة التي ملأت الحي وتطاولت. حاول الكثيرون، ومنهم أبي وأخوته، أن يقنعوه ببيع البيت، الذي وصلت قيمته إلى ملايين الريالات نتيجة موقعه الممتاز بعد مشاريع التوسعة الأخيرة، إلا أن جدي رفض بإصرار وهو يردد: «قضب الأصول، ولا المحصول... ومن خلى عادته، خلته سعادته... ما عرفنا قيمة هذا الكلام إلا بعد أن ضيعناه»، فانصاع الأبناء وهم يضربون كفاً بكف لضياع ثروة مثل هذه نتيجة أوهام «شايب مخرف»، كما كانوا يقولون، وكانوا في غاية الاستغراب من عاداته البالية هذه، رغم أنه عاشر الأمريكان

وعاش معهم زمناً، بل قضى ردحاً من حياته في أمريكا نفسها.

لم أكن ألقي بالاً لما كان يقول جدي تلك الأيام، فقد كنت صغيراً، وكنت أسمع والدي وكلاً من عمي صالح وعمي فيصل، يصفون جدي بالخرف، فقد ناهز التسعين من العمر، ولا يزال متعلقاً بسبحانية من سبحانيات الخب لا يعرف أحد صدقها من كذبها، وكنت أصدق كل ذلك، ومن أنا كي لا أفعل؟ وعندما كنا مجتمعين حول فراش جدي في لحظات الوداع الأخير، وكان الكل خائفاً مما يمكن أن يحدث بعد أن مرت شهور على دخول العراق للكويت، وكنا قد تركنا الرياض واستقرينا مع الجد في بيته الطيني الفسيح هرباً من الصواريخ المنهمرة على الرياض، قال جدي وهو يبتسم: «ما لكم خائفون؟.. أجل شلون لو شفتوا اللي شفناه؟.. أنتم من صنع صدام، مثل تلك الفأس التي أُلقيت بين الشجر، فقالت بعض الشجر لبعض: ما أُلقيت هذه هنا لخير! فقالت شجرة منهن: إن لم يدخل في هذه عود منكن فلا تخفنها... أنتم الشجر، وصدام الفأس»، ثم يصمت قليلاً ولا يلبث أن يقول وهو يزفر: «ما يداويكم إلا صدام، وما يداوي صدام إلا أنتم وصدق الذي قال إن دوا الشجرة غصن منها، وخلكم من خرابيط أمريكا... ما نفعونا بالأول حتى ينفعونا بالتالي... بس هقوتي أنكم يا عيال ها الوقت ما غير خشب مسندة، الله يخلف»، ثم يغفو جدي قليلاً، ولا يلبث أن يستيقظ فجأة، وتبرق عيناه ببريق عجيب وهو يرفع شاهده ويردد: «لا إله إلا الله... لا إله إلا الله، محمد رسول الله... ها هو سميح، إنه يناديني... أخيراً وجدته، ولن أتركه هذه المرة... أوصيكم بتقوى الله، والبحث عن أخيكم سميح... لا إله إلا الله، محمد رسول الله...»، وتهجد أنفاس جدي، وتستقر عيناه، ويسلم الروح إلى بارئها، وبقيت ابتسامة غريبة تحتل كامل وجهه الذي كان يشع بنور غريب، أو أنه خيل إليّ ذلك، وتذكرت كلمات سميح التي قالها لي جدي منذ زمن: «نحن نرى عندما نريد أن نرى...»، وهيىء إليّ أنني رأيت شخصين متشابهين، لكل منهما خصلة شعر فضية لامعة، ويحمل أحدهما في يده عصاً خضراء

براقة، يقفان على قبر جدي بعد أن دفناه وقفلنا عائدين.

❁ ❁ ❁

حزنت كثيراً لوفاة جدي، فلم نعد نذهب إلى القصيم منذ أن انتهت الحرب، ولم نعد نلهو فوق تلك الطعوس من الرمال الحمراء النقية. انشغل والدي بتنمية أعماله المتسعة، خاصة بعد أن كسب الملايين من بيع أقنعة الغاز إلى وزارة الدفاع أيام الحرب، وهي أقنعة لم تستخدم، ولم يجلبها أبي من الأساس، فقد انتهت الحرب من دون الحاجة إليها، ولكنه قبض ملايينها كاملة. وأيام الحرب ذاتها، أسس شركة مع بعض كبار الموظفين والضباط في وزارة الدفاع، وتولى تموين القوات الأمريكية وقوات الحلفاء بالماء والغذاء. كانت الوجبة الواحدة لا تكلفه أكثر من عشرين ريالاً، ولكنه كان يبيعها بأكثر من مائة وعشرين ريالاً، ويقاسم شركاءه الربح. وأثناء رحلاته المتقطعة إلى القصيم أيام الحرب، لم يجعلها بلا فائدة، إذ كان أبي يشم رائحة القرش أينما كان. فقد تعرف في القصيم على عائلة كويتية لجأت إلى القصيم، كان كبيرها، واسمه على ما أذكر «خلف غريب مهاجر الخبي»، قد قصد جدي لإيضاح نسبهم الذي كانوا يقولون أنه ينتمي إلى عائلة السماوي في خب السماوي. وما أن سمع جدي باسم «الخبي»، حتى شهق وهو يقول «لا إله إلا الله.. رحم الله أبا عثمان.. نعم... عيال عايش، عيال عايش.. نسل علي، وأخوة رفيع، وعمومة سميح.. عز الله أنكم سماوات... عز الله أنكم سماوات...». لم نفهم شيئاً بالطبع، ولكن جدي أكد لكبير العائلة الكويتية نسبهم بالسماوات، وقامت أواصر وثيقة بيننا وبينهم حتى بعد انتهاء الحرب. والحقيقة أنه خلال الحرب، لجأت عائلات كويتية كثيرة إلى القصيم والزلفي وسدير والوشم وكل بلاد نجد، وكانت في معظمها ذات جذور نجدية، كانت لا تأبه لها كثيراً قبل الحرب، ولكنها أصبحت متعصبة لها أكثر من أهل نجد أنفسهم بعد الحرب.

كانت عائلة الخبي من العائلات التجارية في الكويت، ولم يترك أبي الفرصة، وقامت شراكة بينه وبينهم، استطاع أن يجني منها الملايين، وخاصة

بعد انتهاء الحرب مباشرة، حيث عمل أبي وشركاؤه في توريد المؤن والمواد الغذائية إلى الكويت. عجيب كان أمر أبي فيما يتعلق بالمال، فرغم أنه لم يحصل حتى على الشهادة الابتدائية، إلا أنه كان قادراً على جني المال بذكاء خارق، وطرق لا تخطر في بال أحد، حتى لو كان حاصلاً على الدكتوراه في إدارة الأعمال من هارفرد نفسها. فذات مرة، وبعد انتهاء حرب الكويت بفترة ليست طويلة، أخذ يشتري الحمير من كل مكان في البلد، ويشحنها إلى الكويت. لم يكن أحد يدري ما المسألة، حتى انكشف كل شيء لاحقاً. فقد كانت الألغام الأرضية تملأ صحراء الكويت، وما كان من الممكن اكتشافها وإزالتها بسهولة. وفكرت الحكومة الكويتية بفكرة عجيبة: أن تشتري حميراً كثيرة، وتطلقها في الصحراء، وبذلك تنفجر الألغام فيها، فتزال من دون أن يكلفها ذلك الكثير من المال أو الضحايا. فكرة رائعة، ولو أن ذلك سيغضب جمعيات الرفق بالحيوان، وفرت لوالدي ملايين عديدة من الريالات، فقد كان يشتري الحمار بألف ريال، أو دون ذلك، وأحياناً يجمعها من الصحراء من دون مقابل، ويبيع الحمار الواحد بعشرة آلاف ريال أو أكثر.

وكما في الحرب العراقية الإيرانية، لم يكن أبي يتمنى أن تنتهي الحرب أبداً. وباع هو وأخوته بيت الجد بملايين الريالات، ولم يعطوا أرملته إلا النزر اليسير منها، استثمروها في أسهم كثيرة، وهم يترحمون على الشايب. والحقيقة أن أبي لم يكن حزيناً جداً على وفاة جدي، ولا عمومتي، ما عدا عمي عثمان وعمتي مزنة، فلقد جاءتهم وفاته بالملايين، وخاصة عمومتي، فلم يكن الوالد بحاجة إلى ملايين الشايب، كما كان يقول. أما بيت الرياض، فلم يستطع أعمامي أن يفعلوا به شيئاً، بعد أن «سبله» جدي، رغم اعتراضات والدي، واستمر عمي عثمان يعيش فيه لعدة سنوات بعد وفاة جدي، ولا أدري اليوم ماذا حل به، بعد الحريق الكبير الذي اشتعل في حلة القصمان قبل عدة سنوات. كان أبي وأخواه صالح وفيصل يبدون بعض الحزن فعلاً، ولكن كل الحزن استقر في قلبي أنا، وكان عمي عثمان

في غاية التأثر، فهو الذي عاش مع جدي أكثر من غيره، وبدا كأنه طفل يتيم قبل الأوان. فرغم أن عمي عثمان كان في أواخر العقد السابع من عمره، إلا أنه كان في داخله طفلاً لم يكبر قط.

لم أدرك قيمة جدي إلا بعد وفاته، ولم أدرك متعة اللعب بالرمال إلا بعد أن بدأنا نترك الرمال حين أصبحنا نذهب إلى الخارج في العطلات، فقد تحول أبي إلى مدمن سفر إلى سويسرا وأمريكا وبريطانيا وشواطئ الريفييرا الفرنسية والإيطالية، ولم يكن يستمتع هناك فعلاً، ولكن كان يجب أن يذهب وعائلته إلى هناك كنوع من «البريستيج» بصفته رجلاً ثرياً. كنت أرى معالم السعادة على وجه أبي عندما نكشت إلى البر أو نذهب إلى أي بلد عربي، ولكنه كان يبدي التأفف رغم سعادته. أما في سويسرا وبريطانيا، فقد كان يحاول أن يظهر السعادة، وينفق ببذخ، ولكن كان واضحاً أنه غير سعيد. فكل ما كان يفعله هو السهر في أندية القمار والملاهي، قتلاً للوقت وبحثاً عن الإثارة، أو السهر مع بعض أصحابه في شققهم التي كانوا يستأجرونها أو يمتلكونها، بعيداً عن رقابة العائلة، حيث يلتقون ببنات الهوى من كل شكل ولون، فيما كانت أمي تجوب الأسواق مع صاحباتها من نساء البلد، وعدد من الخادمات، وتتبضع ما تحتاج إليه وما لا تحتاج، رغم أن لديها كل ما تحتاج. أما أنا وإخوتي، فقد كان السائق ينتقل بنا من مطعم إلى مطعم، ومن مدينة ألعاب إلى أخرى. ولكن ما استقر في ذهني بعد كل هذه السنين، هو حديث جدي عن سميح الذاهل.

سألت والدي ذات يوم في جلسة أنس وانبساط مع أصحابه، وقد أصبح يطلعني على أسراره منذ أن تخرجت من الجامعة وأصبحت جامعياً، عن سبحانية سميح، فضحك وقال: «سبحانية تجد مثلها في كل الخبوب.. مثلها مثل سبحانية سعدون التايه في خب الحلال، وسبحانية حميدان الطاير في خب الحرام...»، ثم وهو يضحك: «وأهل الخبوب ما هم شاطرين إلا في السباحين وأبطالها... وإلا من يصدق أن رجلاً مثل حميدان يطير فجأة من بين القوم، وتبتلعه الغيوم والكل ينظر، ثم يعود وتبتلعه الأرض،

ويعود، ثم يتحول إلى غرنوق أبيض يطير بعيداً وهو يقول: رمي الجواهر على المزابل حرام، وتوقع الوعي من المجنون هو الجنون، ثم لا يعود... خرابيط فلاحين عاث دود الطين في رؤوسهم، وخزعبلات بدو سم عقولهم أكل الجراد والضبان، وأحرقتهم حرارة الشمس... أوهام قوم من المتخلفين»، ثم يضحك ويقول: «نجد لا ترحم... من لا يموت فيها ينهبل... وكلنا مهابيل»، ثم يضحك بمجون، ويضحك معه أصحابه. ولكن جواب أبي لم يكن شافياً، فقد ألقي إبراهيم في النار ولم تحرقه، وكان سليمان يتحدث بلغة الطير، وشق موسى البحر بعصاه، ومشى عيسى على الماء، وشق محمد القمر ذات ليلة، والخضر أبو العباس يتنقل طائراً على سجادة خضراء. «قد لا تكون العلة في الأشياء، ولكنها في إرادة صاحب الأشياء»، مقولة لسميح الذاهل كان يرددها جدي، ولم أكن أفهمها... وما زلت لا أفهمها رغم الخجل. ولكن يبقى هؤلاء من الأنبياء والأولياء الذين يدعمهم سر الوجود، وقوة الكون الخفية. ولكن فقراء الهنود يصعدون حبالاً تتسلق الهواء، وينامون على مسامير من الفولاذ، ويسيرون على النار، وهم لا يجدون لقمة العيش.. أكل ذلك وهم وخرافة؟.. ربما... فنحن لا نصدق لأننا لا نريد أن نصدق، ولو أردنا أن نصدق لصدقنا... إنها إرادة التصديق التي متى توفرت كانت الحقيقة... وتذكرت كلمة أُخرى لسميح سمعتها من جدي: «ما هي الحقيقة؟.. إنها ما نريده أن يكون حقيقة... فلماذا لا نريد الحقيقة... لأننا لا نريد الحقيقة... ولكن ما هي الحقيقة؟.. إنها ما نريده...» لم أفهم ما يعني سميح، ولا أزال لا أفهم أيضاً، فسميح كله وكلامه لغز يستعصي على الحل، ولكن لكلماته اليوم رنيناً غريباً، لم أدركه إلا اليوم. فقلت وقد نسي والدي الموضوع: «ولكن جدي رآه... لقد رأى سميحاً وعاش معه؟..»، وفي ضحكة هستيرية قال أبي بلسان معوج، وقد غارت عيناه الحمراوان، وامتلأتا بالدموع، وفاحت رائحة الويسكي من فمه: «جدك كان يرى أي شيء في كل شيء... غفر الله له، وجعله من أهل فردوسه...» ثم انطلق أبي في ضحكة صاخبة وهو ينظر إلى أصحابه ويقول: «سميح الذاهل... لا...

إلا سميح الخبل...»، وضحك الجميع بصخب وأخذ أحدهم يغني: «مقادير يا دنيا العناء مقادير وش ذنبي أنا...»، فيما كان آخر يرفع كأسه وهو يقول: «ألا اسقني خمراً وقل هي الخمر، ولا تسقني سراً إن أمكن الجهر»، وانتفض ثالث يقول بصوت أجش: «رق الزجاج وراقت الخمر، فتشاكلا وتشابه الأمر، فكأنما لا خمر ولا قدح، وكأنما لا قدح ولا خمر»، ثم يقول: «من قائل هذا الشعر الرائع؟»، فيرد عليه أحدهم بلسان معوج: «أبو نواس... الله يخسك، تقول شعر ولا تعرف قائله!»، فيضحك صاحب الشعر وهو يقول: «ظننته أنا...»، فيرد عليه الآخر: «أنت ووجهك... أنت كفو لمثل هذه الرقة؟.. جلف من الجلوف، لا تفرق بين الويسكي والبيبسي... بارك الله بالحرب اللي جعلتك تعرف كوعك من بوعك، والدولار من الكراث... كله عندك خضر...»، ويضحك الجميع، ثم يعرضون وهم جالسون: «نحمد الله جت على ما نتمنى»، ثم يهيجنون بصوت واحد، وبلسان معوج وهم يضحكون بصخب، وهم يحاولون تقليد اللهجة الحايلية:

يا زين فرع وقض الراس ... خلي الأزارير دلاعه
ودي بشوفك يزول الباس ... واملا النظر منك لو ساعه
شربت حبك بغير قياس ... وصارت لك النفس خضاعه
كل شرب بالهوى له كاس ... وانا معك حيلتي ضاعت
لولا الهوى وش حياة الناس ... كل الهوى القلب مرباعه

وغادرت وأنا أشعر بكره شديد تجاه والدي وأصحابه، وأشعر أنني أكاد أتقيأ، فأخذت أبحث عن هواء نقي أتنشقه...

❁ ❁ ❁

وكان لا بد لي من أن أتزوج، في مجتمع لا بد من الزواج فيه كي تكتمل رجولة الذكر وأنوثة الأنثى، كما أن لا شيء ينقصني: مال وشباب وشهادة، مستقبل مضمون. لم أحاول الحصول على وظيفة حكومية عندما تخرجت، بل أخذت أعمل في مؤسسة والدي التي كانت تعمل في أي شيء

يمكن أن يجلب أرباحاً. لم أكن أحب هذا النمط من العمل، ولكن راتبها لا يمكن أن تجده في أي وظيفة حكومية، كما أن والدي جعل لي نسبة من الأرباح إذا تجاوزت نسبة معينة. كان والدي يريد مني أن أتزوج هيلة، ابنة عمي صالح، شريكه في المؤسسة، أو هنداً، ابنة عمي سليمان، شريكهما في بيروت، التي انتقل إليها بعد انتهاء الحرب الأهلية هناك، كي يبقى «سمننا في طحيننا»، كما كان يقول. أو على الأقل، إن لم أرد واحدة من هاتين، فلمياء ابنة عمتي علياء في طرابلس، من زوجها رجل الأعمال اللبناني، فهي جميلة وابنة رجل ثري يمكن التعامل معه. ولكنني لم أكن أرغب في ذلك، رغم إلحاح الوالد، ورغبة عمي صالح، وأماني عمي سليمان. كانت زهرة السايح، أصغر بنات العم عثمان السايح، وابنة عمتي مزنة، هي التي لفتت نظري منذ الصغر، رغم أن والدي يمقت العم عثمان السايح بشكل غريب لا أدري له سبباً. لقد كان العم عثمان السايح في غاية اللطافة ودماثة الخلق، ورغم أنه نسيبنا، وابن عبد العزيز السايح، حبيب جدي جابر، ورغم أن أبي سُمي على اسم أبيه، إلا أنه لا يطيق سماع اسمه، أو اسم عائلته. ربما كان السبب في معرفة الجميع أن جدتي هيلة، رحمها الله، لم تكن موافقة على زواج مزنة من عثمان السايح، لأسباب اجتماعية يطول الحديث عنها، ولم يتمكن جدي، رحمه الله، من تزويجهما إلا بعد وفاة جدتي بمدة ليست بالقصيرة، ورغم معارضة عمومتي، ولكن الشايب كان «ناشف» الرأس، ما أن يقرر شيئاً حتى يفعله.

لقد كانت زهرة تجمع كل المتناقضات الجميلة في هيئتها: عينان خضراوان، وشعر أسود فاحم ومسترسل، ولون أبيض جذاب، وجسم ممتلئ ولكنه في غاية الرشاقة. بالإضافة إلى كونها واسعة الثقافة، مهتمة بما يدور حولها، وليست مثل هيلة، ابنة عمي صالح، التي تفوقها جمالاً ودلالاً، ولكنها لا تهتم إلا بالأزياء وآخر الصرعات والسفر، بالرغم من أنها تحمل بكالوريوس في الأدب الإنجليزي من الجامعة الأمريكية في بيروت. أما هند، ابنة عمي سليمان، فلم أرها إلا مرات معدودة، ولم أحس بأي انجذاب نحوها، رغم جمالها الباهر الذي ورثته عن جدتي هند، وخاصة

ذلك الخال الأسود الذي يلتصق بفتنة في منتصف وجنتها اليمنى، ويختفي مع غمازتها عندما تضحك. أما لمياء، ابنة عمتي علياء، فلم أرها إلا مرة واحدة، وليس هناك ما يجمعني بها على أية حال.

خطبت ابنة عمتي، زهرة السابح، وعقدت عليها، وأصبحت أزور بيت السابح، غير البعيد كثيراً عن بيت والدي في «العليا». كنت أجد نفسي هناك أكثر مما أجدها في منزل الوالد الأكثر فخامة. فقد كانت هناك زهرة وحديثها الذي لا ينتهي ولا يُمل، وهناك عمتي التي أرى فيها وجه جدي جابر، وهناك العم عثمان الذي كان نسخة طبق الأصل من أبيه كما الوصف، ولم يأخذ من أمه، جدتي زهرة رحمها الله، إلا بعض بياض البشرة والأسنان الدقيقة، كما كان يقول جدي رحمه الله. كما أن العم عثمان قارئ جيد، وقد وجدت عنده الكثير من الكتب التي جذبت اهتمامي مؤخراً، وخاصة تلك التي تتحدث عن «أيام الأولين». كان لدى العم عثمان مكتبة كبيرة مليئة بالمخطوطات التي ورثها عن أبيه، عبد العزيز السابح رحمه الله.

وفي صباح أحد الأيام، ونحن نشرب الشاي ونقضم معمول زهرة الذي لا مثيل له، ومصابيب عمتي مزنة، ونتحدث عن الأولين، موضوعنا المفضل كلما اجتمعنا، نظر إليّ العم عثمان وهو يبتسم ويقول: «لدي مفاجأة لك»، ودون انتظار للإجابة، قادني من يدي إلى قبو المنزل، حيث تقبع أشياء لا أدري لماذا يحتفظ بها العم عثمان. نزلنا درجات السلم اللولبي المغبرة، وكان موحشاً وخالياً، إلا من طاولة بيلياردو قديمة علاها الغبار. وفي أحد الأركان، أشار العم عثمان إلى صندوق خشبي قديم وهو يقول: «في هذا الصندوق أشياء قد لا تخطر لك على بال». فتح العم عثمان الصندوق، فإذا هو مليء بكتب وأوراق صفراء ومهترئة، أخذت أقلبها واحدة بعد الأُخرى وهي تكاد تتفتت بين يدي. كانت في معظمها أوراق مبايعات ومراسلات بين أبي عثمان رحمه الله، وبين آخرين، أو مبايعات وأوراق تخليص ديون قديمة. ثم أخرج العم عثمان من بين تلك الأوراق صندوقاً مزخرفاً من خشب الصندل، وقدمه إليّ وهو يقول: «في آخر زيارة لي للعم جابر، رحمه

الله، أعطاني هذا الصندوق وأوصاني أن أعطيك إياه بعد وفاته». تناولت الصندوق بكل رهبة، وصورة جدي تلوح في ذهني كالبرق الخاطف، فيما عاد العم عثمان أدراجه وهو ينظر إليّ، وظل ابتسامة يلوح على محياه. فتحت الصندوق، فانبعثت منه رائحة عطر دهن العود، عطر جدي المفضل، وكان هناك مخطوط ضخم قديم، ذو غلاف أسود متين، بزخارف ذهبية تزين جوانبه، وكأنه مصحف أثري قديم، وقد توسط الغلاف بخط كوفي كبير، وبأحرف ذهبية لامعة:

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب
إذا نلت منك الود، فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

تناولت المخطوط وفتحت الصفحة الأُولى، وأخذت دقات قلبي تتسارع، فقد ميزت خط جدي من الحروف الأُولى في المخطوط. وعلى الصفحة الأُولى كان مكتوباً بخط كوفي كبير أيضاً:

إلهي غيبت عني أجلي واحصيت علي عملي ولا أدري إلى أي الدارين منقلبي لقد أوقفتني وقفة المحزونين أبداً ما أبقيتني.

وعلى الصفحة الثانية كان مكتوباً:

رحمك الله يا أبا عثمان وتغمد روحك الجنة يا أم عثمان. عز الله ذهب الخير مع ذهاب الأولين.. وفك الله أسرك يا سميح، وأعاد أم سميح، فقد طال العهد، وشانت النفوس، وخارت العزائم، والتهى الناس ببعضهم...

ثم: «هذا ما قاله عبد الله الفقير إلى ربه، والطامع في رحمته، جابر بن صالح بن فالح بن سمحان السدرة، الذي رأى سميحاً، وعاش أيامه.. ندبنا البخت، والبخت ندبنا... جانا سميح وتركناه، واليوم نبحث عن سميح، لكن أين أنت يا سميح... طال العهد، وحانت اللحظة، جعلنا الله من شهودها». الحقيقة لا أدري من هو صاحب هذا الخط الكوفي الجميل، فهو ليس خط جدي على الإطلاق. فرغم جمال خط جدي، إلا أنه

لم يكن قادراً على رسم مثل هذه الحروف الجميلة.

على أية حال، ليس مهماً من كتب، ولكن المهم ما هو مكتوب. ذهبت إلى إحدى الزوايا مقابل طاولة البليياردو الخضراء المهملة، التي علاها الغبار الأصفر الدقيق، بحيث كنت أرى كرات البلياردو الملونة أمامي تتوسطها الكرة السوداء الثامنة، وقد اتشحت كلها بصفرة غبار الرياض الذي لا يعترف بالموانع.

وبدأت في قراءة المخطوط وأنا أشعر برهبة عجيبة، وكانت يداي ترتجفان بشكل غريب، وكأني أفتح كتاب أصف بن برخيا الذي يحتوي اسم الله الأعظم، الذي لا يدعوه أحد به إلا استجاب له، أو توراة موسى ومزامير داود أو كتاب الفيدا الهندي، وكتاب ون وانج، الإى ـ جنح الصيني... بل فتحت الصفحة الأولى وكأني على وشك مقابلة هاروت وماروت في بئر بابل، أو إبليس وهو مختف بين أنياب الحية في طريقه إلى جنة الخلد حيث آدم وحواء اللاهيان... وعلى فكرة... لقد سمعت نصيحة جدي وقرأت البدائع والقصص وكتباً كثيرة أُخرى، وانفتح أمامي عالم الحرف بعد ذلك... وهنا هاك الواحد، والواحد الله سبحانه، المعتلي بمكانه، في سماه العالية، وإلى هنا هاك الخب...

سفر الآفلين

«فانفتحت أعينهما فعلما أنهما عريانان فخلطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر. فسمعا صوت الرب وهو متمش في الجنة عند نسيم النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله بين شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت. قال إني سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت. قال فمن أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي نهيتك عن أن تأكل منها. فقال آدم المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة ماذا فعلت. فقالت المرأة الحية أغوتني فأكلت. فقال الرب الإله للحية إذ صنعت هذا فأنت ملعونة من بين جميع البهائم وجميع وحش البرية على صدرك تسلكين وتراباً تأكلين طول أيام حياتك. وأجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه. وقال للمرأة لأكثرن مشقات حملك بالألم تلدين البنين وإلى بعلك تنقاد أشواقك وهو يسود عليك. وقال لآدم إذ سمعت لصوت امرأتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً لا تأكل منها فملعونة الأرض بسببك بمشقة تأكل منها طول أيام حياتك. وشوكاً وحسكاً تُنبت لك وتأكل عشب الصحراء. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها لأنك تراب وإلى التراب تعود».

(سفر التكوين، الفصل الثالث، الفقرات: ٧ ـ ١٩).

أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان نظيف

أرض دلمون مكان نظيف، أرض دلمون مكان مضيء
في أرض دلمون لا تنعق الغربان
ولا تصرخ الشوحة صراخها المعروف
حيث الأسد لا يفترس أحداً
ولا الذئب ينقض على الحمل
ولا الكلب المتوحش على الجدي
ولا الخنزير البري يلتهم الزرع
والطير في الأعالي لا.. صغارها
والحمامة لا... رأسها
حيث لا أحد يعرف رمد العين
ولا أحد يعرف آلام الرأس
حيث لا يشتكي الرجل من الشيخوخة
ولا تشتكي المرأة من العجز
حيث لا وجود لمنشد ينوح
ولا لجوال يعول

(أسطورة دلمون)

١

خب السماوي... قرية صغيرة غافية بين كثبان رمال النفود، على الضفة اليسرى لوادي الرمة العظيم، في مجراه الأبدي من الغرب إلى الشرق،

إلى الغرب من مدينة بريدة، وشمال جفر الجن الشهيرة، وإلى الجنوب الغربي من روضة عدنان اليانعة طوال العام، لا تعترف بصيف أو شتاء، غير بعيد عن عقلة المهابيل وخب السعالوة، ويحيط به شرقاً خب الحرام، المحاذي لخب الحلال، والمواجهان لخب الظلام وخبي البدايات والنهايات المتلاصقين، بمحاذاة نقرة العميان.

لا أحد يدري عن خبنا هذا، وهو لا يدري عن أحد، ولا يريد أن يدري عن أحد، لولا أنياب الجوع التي لا ترحم، وما أكثر ما كان يعض الجوع خبنا. حتى وصْفه بالقرية فيه شيء من المبالغة، فهو لا يتجاوز بضعة بيوت طينية صغيرة تنتشر حول الحيطان والقلبان وبينها، يتوسطها مسجد الخب، وحوله يدور كل نشاط. فالناس هنا لا يفعلون شيئاً سوى الصلاة في المسجد الصغير، أو العمل في الحايط، ويستقون من القليب الذي يتوسط الحايط. لا يتعدى إنتاجهم بعض البقول والخضار وشيء من الحبوب، وثروة الخب كله لا تتجاوز بضع نوق وبقرات تأكل من بقايا الحايط. غير أن أهم زرعة لديهم تبقى النخلة، سيدة الزرع، كما البقرة سيدة الضرع. لا يأكلون في الخب إلا التمر إن تيسر، حتى تحولوا هم ذاتهم إلى تمر في ألوانهم وسحناتهم. فالنخلة رمز الرب المعبود في تلك البقعة المنسية من الصحراء، وخليفته في منح نعمها لمن يمتلكها، فهي العمة دائماً، أليست أخت آدم ذاته حين نبتت من بقايا أظفاره بعد الخروج؟

والناس في الخب لا يفعلون شيئاً غير الصلاة والعمل في الحايط. يصلّون كي يعودوا إلى جنة النعيم ويتمتعوا بلحم طيرها وما يشتهون، وليس كثيراً ما يشتهون، وأنهار خمرها ومائها ولبنها، ونسائها من الحور العين، وولدانها المخلدين كأنهم اللؤلؤ المنثور، وكأس الزنجبيل وأرائك الحرير، وكل ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ورغم أنهم لا يعرفون ما هي الخمر، إلا أنهم يعلمون أنها من الخبائث في الدنيا، بل أم الخبائث، ومن المسرات في الآخرة. يعملون كي يعيشوا لطاعة الرب

ودخول جنته، في حياة ليست بالنسبة لهم إلا دار ممر وليست المقر بأي حال. فإذا وجدت الناس في الخب لا يعملون، فاعلم أنهم يصلّون، وإن لم يكونوا يصلّون، فاعلم أنهم يعملون. وإن لم يكونوا يعملون أو يصلّون، فاعلم أنهم نائمون. يبدأ يومهم قبيل شروق الشمس بالصلاة، وينتهي بعيد غروبها بالصلاة، وينامون بُعيد الصلاة... الشمس هي ربهم المنظور الذي يحدد حركاتهم في النهار، وعلامة للرب الذي لا يرون، ويمنّون النفس برؤيته في اليوم الموعود، والقمر هو سيدهم عندما يحل الظلام. هكذا كان يومهم، وهكذا كان يوم أجدادهم لمئات ومئات من السنين. بل هكذا هو اليوم كما أراد له رب محمد والأنبياء أن يكون منذ الأزل وإلى الأبد، في لوح محفوظ لا تتبدل كلماته.

ليس للزمان والمكان معنى في خبنا. فالصحراء ممتدة بلا حدود ولا أبعاد، ولا يتصورون مكاناً بعد مكة والمدينة، وما القدس بالنسبة لهم إلا مسرى النبي الأمي ومعراجه. ولا يتجاوز خيالهم حيزاً أبعد مما وصله العقيلات في مصر والشام والعراق وبلاد الهند والسند، ولا يعرفون عن اليمن إلا أنها بلاد بلقيس التي يرد ذكرها في القرآن. يسمعون عن كل ذلك، كما يسمعون عن جزر سرنديب وبلاد الواق واق في سبحانياتهم، ولا يعرفون إلا النزر القليل من العجائب التي يأتي بها من شرق أو غرب. وما الزمان بالنسبة لهم إلا شمس تغرب وشمس تشرق، تحدد لهم مواقيت الصلاة ومواسم الزرع، والتقاط ما تنبته الصحراء من خيراتها حين تجود السماء بالغيث، وقمر يحددون به متى يصومون ومتى يفطرون. هكذا كانت الدنيا دائماً، وهكذا ستبقى. لا تعني لهم أوروبا وثوراتها، ولا أمريكا وحروبها شيئاً، ولم يسمعوا بنابليون وبسمارك وغاريبالدي. لا يدرون من هو ماركس أو فرويد أو داروين، ولا فيكتوريا أو مترنيخ، ولا يهمهم أن يدروا. فماركس جعل من الجوع نظرية، وفي خبنا فإن الجوع من طبائع الأشياء. وفرويد جعل من الجنس والمكبوت نظرية، وخبنا بسيط بساطة الفطرة نفسها، ليس لديه ما يمكن أن يكبت حتى يشغل نفسه بالمكبوت.

وفيكتوريا جعلت من العفة الجنسية فضيلة مفروضة، وفي خبنا ليست العفة من الفضائل، لأنها من طبيعة الحياة. ومترنيخ جعل السياسة مناورة وفناً من فنون اللعب، وخبنا لا يعرف من السياسة إلا فن البقاء على وجه بسيطة الله. في خبنا يبحثون عن اللقمة، ولا يحاولون فلسفتها. ويريدون الأنثى إن تيسرت، من دون أن تشغلهم عقد الصغر والكبر، وفترات الفم والشرج وما قبل ذلك. كل أسئلة الوجود الكبرى تجد إجابة مباشرة لها في خبنا، فلا ضرورة لمثاليات أفلاطون ومنطقيات أرسطو ورومانسيات روسو وأنطولوجيات هيغل ونشوئيات داروين ووجوديات كيركغارد وسارتر. الله هو سر كل شيء وسبب كل شيء، خلق كل الوجود بكلمة في ستة أيام ثم استوى على العرش، وسيرث الأرض ومن عليها في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم. الله هو بداية الوجود ونهايته، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ودار امتحان واختبار. آدم هو أبو البشر، وحواء خُلقت من ضلعه لتكون له زوجاً يسكن إليها، وجعل بينهما مودة ورحمة. خلقنا الله لعبادته، فمن أطاع دخل جنته، ومن عصى اكتوى بناره، وليس في القضية ما يستوجب السؤال وإعادة السؤال، فما الضرورة لمعرفة ما يقوله من يبحثون عن إجابات لأسئلة مجابة أصلاً.

وحين يتوفر لأهل الخب بعضٌ من وقت بُعيد غروب الشمس وقبل المنام، أو بُعيد صلاة العصر وقبل الغروب، فإنهم يجدون وقتاً للحديث على الرمال وتحت السماء في أيام القيظ وحرارة الصحراء، أو في البيوت الدافئة أيام البرد وشدة القر. أحاديث لا تتجاوز أساطير الخب وحكاياته، ومن خلا من أهله وناسه. ويحدث أحياناً أن يحدثهم مطوع الخب بحديث أمم سالفة درست، لا يعلمون عنها شيئاً، إلا ما يقوله الشيخ، فينبهرون ويتعجبون من كل هذه الأمم على أرض الله، فالخب يكاد يضيق بسكانه، فكيف تأتى للأرض أن تستوعب كل هؤلاء؟ ويعودون إلى منازلهم وهم يذكرون العزيز القدير، فيهللون ويسبّحون تقرباً لمن أغرق الناس بالطوفان، ودمر القرى بريح صرصر عاتية، وأطبق البحر على فرعون وآله، وقلب قرية

لوط عاليها سافلها، وصنع آدم من طين ميت، ونفخ في مريم من روحه، وخشية من رب يقضي ولا يُقضى عليه. وكان البعض منهم يتعجب كيف تغرق الأرض ومن عليها، ونفودهم قادر على شرب كل قطرة ماء تهبط من لدن الرحمن الرحيم، ولكنهم لا يلبثون أن يستغفروا ويقولوا: «قادر على كل شيء... قادر على كل شيء... إنما إرادته بين الكاف والنون... إنما إرادته بين الكاف والنون...».

وليس حول الخب إلا ما يجعل الخب ذاته أسطورة مجهولة الجذور من أساطير الأولين والآخرين، أو مسرح سبحانية عندما كان كل شيء يتكلم، أو جزيرة ألقتها عنقاء مستحيلة وراء جبل قاف وبحر الظلمات، لا يعرف أحد أين هي، ولا يهتم أحد أين هي. ليس وراء بيوت الخب المتلاصقة إلا صحراء بلا أبعاد، ومكان بلا زمان، وتلال من رمال حمراء وصفراء نقية لا أول لها ولا آخر، تذكِّرك دوماً بالأبدية والسرمدية، وعظمة الذي يقف وراء كل ذلك. ويغطي كل ذلك سماء في غاية الصفاء والزرقة غالب الأحيان، وشمس لاهبة لا تعرف الرحمة في أيام الصيف الطويلة، وقليلة الحيلة في أيام الشتاء القارصة البرد والزمهرير. حمرة الرمال وزرقة السماء وصفرة الشمس، هذا كل ما تراه من ألوان في الخب، وامتداد لامتناه يجعلك تشعر بالخوف والضياع والرهبة، ولكنك في الخب لا تشعر بشيء من ذلك. فالله يقف وراء كل شيء، وما دام الجميع يصلّون ويعملون، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

حتى بريدة، المدينة التي تحيط بها كل هذه الخبوب من جهات ثلاث، إحاطة هلال بنجمة، ليست إلا شيئاً خارجاً عن عالم الخب وسكانه. فرغم أنها لا تبعد للراجل إلا مسيرة ساعتين أو أقل من الخب، إلا أنها تعتبر بالنسبة إلى أهل الخب شيئاً خارج الزمان وخارج المكان. فهم لا يقصدون بريدة إلا لحاجة قصوى، كأن يبيعون رطبهم أو تمرهم لأهلها، أو حين يبحثون عن قافلة يسافرون معها إلى مكة والحجاز، أو إلى مدن الشام وريف

مصر وموانئ العراق والهند، بحثاً عن اللقمة حين تجور الطبيعة في الخب. فالشام شامك إلى من الدهر ضامك، والريف ريفك إلى قلت محاريفك، والهند هندك إلى قل ما عندك: هكذا كانوا يقولون. ودائماً ما يضيمهم الدهر، وتقل المحاريف، ويقل ما في الأيدي. «ولكن ما تضيق إلا على ولد المره»، كما تؤكد أمثالهم الدارجة... ودائماً هنا هاك الواحد، والواحد الله سبحانه، المعتلي بمكانه...

٢

ـ.... تسألني عن سميح الذاهل... قصلة طويلة، وحكاية عجيبة، وعائلة غريبة، لو كانت في مصر أو الشام، لحكاها الحكواتية في المقاهي، ولفاقت سيرة الزيناتي خليفة، والزير سالم، أبي ليلى المهلهل، وعنترة وذات الهمة. حكاية غابت عن ذهن شهرزاد، فلم يسمعها شهريار، ولم يدونها الرشيد بماء الذهب، ولا كتبها النعمان بالإبر على آماق البصر، لتكون عبرة لمن اعتبر...

قال أبو عثمان، عبد العزيز بن عثمان السايح، وهو ينظر إلى الأفق وقد جلس هو وجابر السدرة على النفود الذي اعتاد أن يجلس عليه سميح قبل أن يغيب، يحتسيان قهوة كثيرة الهيل، لا تُصنع في بيت السدرة إلا لأبي عثمان ووجهاء الخب، ويأكلان بعض التمر وشيئاً من الزبدة الطازجة جلبها جابر خصيصاً لأبي عثمان الذي يحبها كثيراً، فهم لا يأكلون الزبدة في مثل هذا الوقت، بعد أن انتهيا لتوهما من صلاة الظهر، في ذلك اليوم من أواخر خريف صفت سماؤه. وشرب أبو عثمان آخر قطرات من قهوة المر في فنجانه، ثم ألقى بالحثالة على جمرات نار أثل ملتهبة بجانبه وهو يمصمص بفمه بلذة واضحة. لم يكن الجو بذلك البرود الذي يستوجب إيقاد نار، ولكن الجلسة: «ما تجوز بليا نار، حتى وانت بعز القايلة»، كما كان أبو عثمان يقول وهو يقلب يديه على اللهب. ودفع بالفنجان إلى جابر طالباً المزيد، وهو يلتقط تمرة سكري من طبق صغير وضِع أمامه، ثم يغمسها

بالزبدة، ويلوكها متلذذاً بين تلك الأسنان المتبقية في فمه، وقد أخذت شفتاه الجافتان تبرقان بالزبدة السائحة عليهما، وهو يقول:

- أتى جد سميح، عايش السماوي، من بلدة بعيدة في أقصى الوادي وهو في السادسة عشرة من العمر، وقال أنه ابن مطلق السماوي، شقيق الشيخ عبد الرحمن السماوي والشيخ إبراهيم السماوي العالمين المشهورين، أبناء علي السماوي، أشهر أمير للخب. وقد جاء أبو السماوات الكبير، إبراهيم السماوي، من بلدة بعيدة في الوشم في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود، وإمارة حجيلان بن حمد البوعليان في بريدة، مباشرة بعد جلاء جيوش سعدون بن عريعر عن بريدة. وخروج إبراهيم والسماوات من تلك البلدة له قصة...

قال أبو عثمان وهو يحاول إخراج بعض بقايا التمر العالقة من بين أسنانه، بينما كان جابر يملأ فنجانه بالقهوة، وعيناه تطالبان أبا عثمان في الانتهاء من مهمته ومواصلة الحديث:

- فقد كانت هناك عائلتان تتنازعان النفوذ في ديرتهم الأصلية: عائلة المتوكل، وعائلة الواثق. وكانت العائلتان على خوف دائم فيما بينهما. وكانت إمارة البلد مقسمة بين العائلتين، مثل البلدة تماماً، فمن لم يكن واثقياً فهو لا بد متوكلي. ونكاية بعائلة الواثق، اتّبعت عائلة المتوكل دعوة ابن عبد الوهاب، رغم أنها كانت على خصومة مع «الدرعية»، ولا تثق بأهل «العارض» عموماً. وأصبح أفراد عائلة المتوكل يصمون أفراد العائلة الأُخرى بالكفر والضلال، بينما كان أفراد عائلة الواثق يرددون كلما رأوا متوكلياً، ما قاله حميدان الشويعر:

الـديـن الـديـن الـلي بـين   بـين كـالـشـمـس الـقـيـضـيـة
الـديـن بـعـيـر خـرج اربـع   والخـامـس ديـن الـبـاضـيـة
مـا هـي ذيـب فـي الـبـاطـن   هـي ذيـب فـي الـدرعـيـة

قوله حق وفعله باطل وسيوفه كتب مطويه
خلى هذا يذبح هذا وهو نايم بالزوليه
إن جاك السبع أبو ريشه يلعب لك لعب الحوجية
فاقدح واعلق وشمر وحط القاطع بين لحيه

فيرد المتوكليون بأبيات لحميدان الشويعر نفسه:

النفس إن جت لحاسبها فالدين خيار مكاسبها
إنكانك للجنّة مشتاق تبي النعيم بجانبها
فاتبع ما قال الوهابي وغيره بالك تقربها

ويضحك أبو عثمان بعد أن ينتهي من شعر العائلتين، ثم يأخذ تمرة ويمصها بتمهل ولذة وهو يقول:

ـ وكان هناك اتفاق بين العائلتين على أن تخرج إحداهما في يوم لرعي مواشيها، بينما تبقى الثانية تتعهد زراعتها. وفي يوم آخر، ترعى التي بقيت، وتبقى التي رعت، وهكذا. وذات يوم، عندما عادت عائلة المتوكل من مراعيها في آخر اليوم كالمعتاد، وجدت أبواب البلدة مغلقة في وجهها، وكل أموالها ونسائها وأطفالها خارج سور البلدة. وقال لها الواثقيون: «هذه أموالكم وأهلكم، لا نريد منها شيئاً، فقط اذهبوا ولا تعودوا، وخل ابن عبد الوهاب ينفعكم»، فلم يجد المتوكليون بداً من الرحيل، حيث استقروا في مجمعة سدير. ولكن إبراهيم بن عبد الرحمن لم يعجبه المقام في المجمعة، فغادر حتى ألقت به المقادير في القصيم...

والتقط أبو عثمان أنفاسه، ريثما يشرب فنجان قهوة آخر، ثم قال:

ـ وكان إبراهيم هذا من أشد المتحمسين لدعوة ابن عبد الوهاب مثل عائلته، فاستقر في المنطقة، وكان هو مؤسس خبنا هذا، خب ابن سماوي، على قطعة الأرض التي منحه إياها حجيلان بن حمد، الذي كان هو نفسه من أشد المتحمسين لدعوة ابن عبد الوهاب، في الوقت الذي كان معظم بلاد القصيم ضد الدعوة، بعد أن أبدى إبراهيم الرغبة في الاستقرار والانضمام

إلى «الجماعة»، وليس مجرد عابر سبيل، أو طالب رزق مؤقت. فقد كان حجيلان الحمد يفرق بين عابر السبيل، أو الباحث عن باب رزق، فيعطيه ما تيسر ويصرفه، وبين الذي يريد الإقامة الدائمة، فيمنحه قطعة أرض ليصلحها ويستقر عليها. وتوسع إبراهيم في أرضه، وحولها إلى جنة يانعة، بعد أن انفجرت الأرض تحت قدميه ماءً عذباً غزيراً سهل المنال، وأحاطها بسور حماية لها من غزاة البادية، حتى أن البعض أخذ يشبهه بحجيلان نفسه. وقد وشى به بعضهم عند الأمير حجيلان، متهمينه بمحاولة تكوين إمارة جديدة تنافس إمارة حجيلان نفسه، ولكن تبين للأمير أن الأمر لا سند له من الصحة، فثبته على إمارة خبه الذي أنشأه، خب السماوي، وأصبح إبراهيم من جلساء حجيلان وخاصته، كما أصبحت زوجته وابنة عمه، حصة السماوي، واحدة من جليسات «العرفجية»، لولوة بنت عبد الرحمن العرفج، زوجة حجيلان الحمد، وأم وارثه وولده الوحيد عبد الله الحجيلان الحمد، الذي قُتل بعد فترة وجيزة من توليه الإمارة، بعد رحيل والده مكرهاً إلى المدينة مع إبراهيم باشا، على يد أبناء عمومته بتدبير من رشيد بن سليمان الحجيلاني. ثم بدأ آخرون يستقرون بجانبه، طلباً للماء والأمن، ومنهم آل ثنايا، أكبر أُسر الخب وأمرائه، الذين أتوا من خب الظلمات المجاور، بعد أن أصبح ماؤه أُجاجاً لا يصلح لزرع أو ضرع، وضاق الخب بساكنيه، فلم يعد باستطاعته توفير الحد الأدنى من الغذاء. ومنهم أُسرتكم، آل سدرة، الذين أتى جدهم الكبير بأولاده وحريمه من خب البدايات والنهايات، أكثر الخبوب ازدهاراً، بعد أن تغلب عليه ابن عفارت في إمارة الخب، ولم يعد جدكم قادراً على البقاء في الخب بعد ذلك، وهو يرى ابن عفارت «يعيزل وييبزل» في الخب. ويقال أن جدكم الكبير عندما غادر خب البدايات والنهايات، ضاع في الصحراء، وهو لا يدري إلى أين يتجه. وبينما هو يحاول البحث عن مكان يلجأ إليه، شاهد «سدرة» كبيرة تنتصب وحيدة في نقرة جافة بين خب الجن وخب السعالوة. جلس هو ومن خرج معه في ظل تلك السدرة، وأخذ يدعو الله أن يجد له مخرجاً. وما هي إلا دقائق بعد الدعاء، حتى شاهد غيمة بيضاء على شكل قبضة يد يشير شاهدها

إلى الشرق، فلم يتردد سمحان البادي، وهذا هو اسم جدكم الأصلي، من التوجه إلى حيث تشير الإصبع، الذي قاده إلى خب السماوي في النهاية، وأصبح لا يسمى إلا سمحان السدرة بعد أن عرف الجميع قصته، وبذلك نشأ الخب. وبإمكانك الآن أن ترى بقايا من سور السماوي حول مزرعته الأصلية. ويقولون إن سبب تسميتهم بالسماوي، هو أن أبا إبراهيم، عبد الرحمن المتوكل، كان لا يستقر في مكان، رغم أنه من عائلة تنتمي إلى قبيلة تركت البداوة منذ زمن واستقرت. كان لديه ذلول يسميه «الأبيرق»، وناقة يسميها «المأمورة» عليهما كل حاجياته البسيطة. يغادر البلدة فجأة، ثم لا يلبث أن يعود فجأة كما غاب. وعندما كانوا يسألونه لماذا لا يستقر مثل أهله وقومه، كان يقول: «أنا ابن السماء... وين ما صبت السما ماها، وطلعت الأرض خيرها، حطيت راسي ومديت رجلي... وش لي بالفلاحة والتجارة والتعب، والسما مريحتني». منذ ذلك الوقت، أصبح لقب السماوي ملازماً لأبي إبراهيم، وانفصل بهذا اللقب عن اسم عائلته الأصلي، حتى بعد أن استقر وأنجب في سنواته الأخيرة.

أنجب إبراهيم ولده عبد الرحمن بعد عدة أشهر من رحيل جيوش ثويني الشبيب عن القصيم، وقبل أربع سنوات تقريباً من وفاة الشيخ ابن عبد الوهاب. ثم أنجب عبد الرحمن ولده الأكبر، إبراهيم الثاني، الذي اختفى وهو في السادسة عشرة من العمر، عندما كان في طريق العودة من خب البدايات والنهايات بعد زيارة أخواله هناك، ولم يسمع به أحد بعد ذلك. يقولون في الخب إن جنية أحبته واختطفته إلى منازل الجن تحت الأرض، الله يكفينا الشر، فقد كان إبراهيم في غاية الحسن، حتى أنهم شبهوه آنذاك بالنبي يوسف نفسه، والعياذ بالله، فهذا لا يجوز. فقد قسم الله الحسن والجمال إلى عشرة أجزاء، منح تسعاً منها ليوسف، وفرق الجزء الباقي على خلقه أجمعين. المهم، ما أطوّل عليك السالفة، منذ أن بلغ إبراهيم الحلم، كانت تأتيه حالات يغيب فيها عن الوعي، ويتكلم فيها بلسان امرأة. وعندما حاولوا رقيته، كان الصوت يأمرهم بالابتعاد ويقول:

«دعوا خليلي. . . لا شأن لكم بحبيبي. . .». فتركوا الولد وشأنه حتى اختفى من دون عودة. بحثوا عنه في كل مكان، فيما بين خب السماوي وخب البدايات والنهايات، ولم يعثروا له على أثر. كل ما وجدوه طاقية مزركشة كانت لا تفارق رأسه، ملقاة تحت أثلة قديمة حلف البعض أنه رأى الجن يوقدون ناراً تحتها في ليال عدة، وهم يرقصون ويغنون، بينما ذكر أحدهم أن غولة كادت أن تخطفه في ذلك المكان، حين كان يقيّل في ظل تلك الأثلة في أحد مشاويره إلى روضة عدنان، فإذا به يرى امرأة لم ير مثيلاً لها في جمالها من قبل. تعجب من وجود المرأة في ذلك المكان، وفي تلك الساعة من النهار، ولكنه كان مأخوذاً بجمالها، فلم يعبأ بزحام الأسئلة. ولكن ما أن اقتربت المرأة منه، حتى تبين له أن لها رجلي حمار، فأدرك أنها غولة، وأطلق ساقيه للريح وهو يتلو القرآن بصوت عال، ولم يتوقف إلا في الخب، وهو على شفا الموت من الرعب والتعب. وتحولت سالفة إبراهيم إلى سبحانية من سباحين الخب. هكذا يقولون في الخب، وما أكثر ما يقولون، لكن هقوتي أن حنشل من البدو خطفوه أو ذبحوه، فرغم وسامة الولد وعنفوانه البدني، إلا أنه كان فيه شيء من البله. ثم أنجب عبد الرحمن ولده الثاني وأشهر السماوات، علي السماوي، وذلك في السنة التي توفي فيها الإمام سعود بن عبد العزيز. وكان علي هذا فارساً مقداماً يُضرب به المثل في الشجاعة والكرم، يجوب البادية على فرسه البيضاء لوحده ولا يخشى أحداً، حتى أن «الحنشل» لم يكونوا يجرؤون على الاقتراب من الخب في أيامه، بعد حادثة مشهورة قتل فيها سبعة منهم لوحده، وأصبح اسم علي مثيراً للرعب في كل مكان من حاضرة وبادية القصيم. كما كانت سفرته لا ترفع إلا للتنظيف وتعاد ثانية، وناره لا تنطفئ لا صيفاً ولا شتاءً، وكان «صبيانه» في عناء من أمرهم، فهم لا يكادون ينزلون من على النخيل، فهم دائماً «يخرفون» الرطب لضيوفه الذين لا يتوقفون عن المجيء. وأصبح ثراء خب ابن سماوي في عهد علي مضرب المثل في الثراء والرغد.

وأنجب علي ثلاثة أولاد: مطلق، وقد ولد سنة ذبحة الإمام تركي بن

عبد الله وبيعة الإمام فيصل، وعبد الرحمن الذي ولد سنة بقعا، وإبراهيم الثالث، الذي ولد سنة قدوم الإمام فيصل بن تركي إلى القصيم. وكان عيال علي على طرفي نقيض. فقد كان إبراهيم وعبد الرحمن منصرفين إلى طلب العلم، وكان مطلق منصرفاً إلى طلب الدنيا واللهو. فاستولى عيال ابن ثنايا، أخوال مطلق، على الإمارة بعد وفاة علي، وانصراف إبراهيم وعبد الرحمن إلى العلم وطلبه، وختنهم مطلق إلى الشقاوة والعدوان، ولكن هذه قصة تطول. وقد مات علي غيلة، إذ ذبحه واحد من «آل منايا»، أمراء خب السعالوة انتقاماً لأبيه الذي قتله علي قبل أكثر من عشرين عاماً، عندما كان علي يحاول فرض نفوذه على من جاوره. قتله غيلة، فقد كان علي خارجاً لصلاة الفجر، فكمن له ابن منايا قريباً من المسجد، وأطلق عليه النار من بندقية «أم فتيلة»، كان قد وضع فيها مسمار «دراجة السانية»، وحشاها بالبارود، فاخترق المسمار صدر علي، وخرج منه ليثبت في جدار المسجد، وقد كان موجوداً إلى وقت قريب، وقد رأيته بنفسي مدقوقاً هناك، حتى أزاله عيال ثنايا، في محاولة منهم لمحو اسم «علي السماوي» من القلوب. هرب الجاني، وزبن إحدى القبائل في البادية، وتبرأ منه أهله، ولم يرضَ السماوات بأخذ دية علي دم فقيدهم الذي لا يقدر دمه بثمن. المهم ما علينا... كان مطلق هذا مارداً من المردة... طول وعرض، وشقي يلتقط قوته من النهب والتعدي على حقوق الآخرين، رغم ورع السماوات عموماً. ويقال إنه كان السبب في وفاة أبيه علي، فقد كان كثيراً ما يعير الآخرين ويحط من قدرهم، ويهددهم بالذبح كما ذبح أبوه آباءهم. لم يحتمل علي سوء سمعة ولده مطلق، وهو الزعيم المهاب، وخيبة أمله في ولديه الآخرين، وهو الذي صنع لهما إمارة لا يحلمان بها، ولكنهما كانا عازفين عنها، وحاول أن يصلح الأمور، ولكنه فشل، ولم يبق له إلا أن يردد في أخريات أيامه: «حسبنا الله ونعم الوكيل... عز الله إن النار ما تخلف إلا الرماد... حسبنا الله ونعم الوكيل...». ومما زاد الطين بلة، أن مطلق كان مطلاقاً لا تلبث معه زوجة. وقد فر مطلق من الخب وهو في حدود العشرين من عمره، بعد أن قتل شخصاً من خب السعالوة في خصام على

«شمراخ» برحي، بعد مقتل أبيه بفترة وجيزة. ويقال إن السبب لم يكن الشمراخ، بقدر ما كان الثأر لأبيه، فكثيراً ما كان يردد بعد موت أبيه أنه سيمحو خب السعالوة من على وجه الأرض. ولكن أخويه تبرآ من فعلة أخيهما، ودفعت عائلته دية القتيل أضعافاً مضاعفة لحقن الدماء بين الخبين، رغم أن آل منايا اقترحوا التنازل عن دم قتيلهم، في مقابل دم علي، ولكن السماوات لم يرضوا. لم يتخلف أحد من الخب، وبعض الخبوب المجاورة، عن المساهمة في الدية، فقد كانت عائلة السماوي تحظى بالتبجيل والتقدير في جميع أرجاء الخبوب، فمنها انحدر أعظم مشائخنا ومطاوعتنا، ووصل صيتها إلى الخبوب المجاورة والبعيدة، وحتى إلى بريدة وعنيزة وسائر بلاد القصيم ونجد. ومنهم الشيخان سلمان وفوزان السماوي، ابنا الشيخ إبراهيم العلي من مزنة السمهرية من خب الجن، الشاعرة المشهورة التي ينسب إليها الفضل في السمهريات التي ترددها نجد كلها، ولعل أشهرها مرثيتها في أخيها غيث، الذي قُتل وهو عائد من الشام في قافلة للعقيلات هاجمها بعض قطّاع الطرق من الأعراب، التي تقول في مطلعها: «جمد الدمع في المحاجر، والعين عيت تهل بمطرها»، والتاجر المشهور صالح بن عبد الرحمن، الذي نافس أهل بريدة في السفر مع عقيل، وأصبح صاحب قافلة تعرف باسم عائلته «قافلة السماوات». المهم... لقد كان المطلوب أكثر من عشرة ريالات فرنسي، بالإضافة إلى الحلال والعيش والتمر. لقد أفقر الخب الله يخسه... استغفر الله العظيم، الله يرحمه، فلا تجوز إلا الرحمة على موتى المسلمين...

وتناول أبو عثمان تمرة أُخرى، وهو يطلب المزيد من القهوة ويقول:

- لم يصدق أهل الخب أن عايشاً هذا هو ابن مطلق الهارب، فلم يكن يشبهه في شيء. فعائلة السماوي مشهورة بطول أفرادها وبياض بشرتهم. أما هذا، وإن كان طويلاً ووسيماً، إلا أنه كان دقيق البنية، شديد سمرة البشرة، أجعد الشعر، صغير العينين في عائلة اشتهر أفرادها بسعة العيون، حتى أن البعض شبهها بعيون البقر...

قال أبو عثمان ذلك وهو يضحك باقتضاب، كاشفاً عن ثلاث أسنان أمامية طويلة لم يبق غيرها في الفك الأعلى، ثم ألقى بنواة التمر بعيداً وهو ينظر إليها وأين تستقر وهو يسمي بالرحمن الرحيم، ويستعيذ به من أن تستقر في صدر صبي من أولاد الجن والعفاريت الذين يملأون المنطقة حسب تأكيده، وقال:

- وقد تشاءم أهل الخب من مجيئه. فولادته حسب ما أذكره مما يذكرون، كانت سنة ذبحة ابن عدوان، وبعد وقعة «المطر» بين بريدة وعنيزة. وجاء إلى الخب سنة ذبحة مهنا الصالح أبا الخيل، والمذابح بين السعود، وكانت سنة مجيئه سنة جوع ومحل، لا فقع ولا ربلة ولا عذاليق، وحتى المحاصيل أتت عليها أسراب جراد ودبا كثيف لم يعهدوه في السابق، ولذلك يطلقون على تلك السنة اسم «سنة الدبا». وفي تلك السنة، تفرق الكثيرون من أهل القصيم إلى كل مكان بحثاً عن مجرد لقمة تقيم الأود، وأكلوا كل شيء كان يمكن أن يؤكل. وقد رأيت عايشاً هذا عندما كنت صغيراً في بداية الوعي بالأشياء من حولي، ولكن صورته لا زالت عالقة بذهني. المهم، ما أطوّل عليك... اعترف الشيخ إبراهيم السماوي، تغمد الله روحه الجنة، بعايش، وأنه ابن أخيه الهارب، ونسبه السماوي، بالرغم من اعتراض أخيه عبد الرحمن وأولاده، وولديه سلمان وفوزان، الذين كانوا يريدون التحري والتأكد قبل الاعتراف، ولكن الجميع رضخوا في النهاية على مضض لإرادة الشيخ إبراهيم، بعد أن وافق الشيخ عبد الرحمن أخاه في نسب عايش فجأة، وهو الذي كان رافعاً راية المعارضة، وسط دهشة الجميع. ولكن الشك بقي قابعاً في صدور الجميع، وإن حاولوا تشتيته بالقول أنه ربما كانت سحنة عايش الغريبة موروثة من أمه وأخواله، الذين لا يعلمون عنهم شيئاً. ومن قائل أن الشيخ إبراهيم يمالئ آل ثنايا أمراء الخب، وأخوال مطلق، حين يعترف بوجود ذرية لختنهم الهارب، حتى لا تبقى ذرية علي قاصرة علي إبراهيم وعبد الرحمن. وذهب الكثيرون من أهل الخب إلى تلك البلدة البعيدة في الوادي، التي قال عايش أنه جاء منها، وأن

أباه مطلقاً كان يعيش فيها، ولكنهم لم يجدوا أثراً يدل على صحة ما كان يقول عايش. لا زوجة ولا أصهار ولا أملاك، ولا قبر، ولا أحد سمع باسم مطلق أو عايش. ولكن الشيخ إبراهيم قال أن مطلقاً أخاه كان يعيش هناك باسم آخر، وأنجب عايشاً من زوجة تنتمي إلى أسرة معروفة هناك. ولكن الشيخ لم يذكر ذلك الاسم، ولم يذكر أنسباءهم هناك، ولا عايش قال شيئاً، أو ذكر شيئاً عن أخواله. فأدرك الجميع أن في الأمر سراً لا يعرفه إلا الشيخ إبراهيم وعايش وربما الشيخ عبد الرحمن. وذهب البعض إلى أنه ربما كان هناك جريمة أخرى، أو شيء يمس السمعة، فمثل مطلق لا يمكن أن يعيش من دون فضائح، فتركوا الأمر وهم على أحر من الجمر، ولكن ما باليد حيلة. وبقي مطلق وابنه عايش سراً استعصى على الحل حتى نسيه الجميع مع الزمن، أو تناسوه، وإن كان بعض كبار السن ما زالوا يتساءلون عندما تأتي سيرة السماوي، في خب لا يجد ما يفعله إلا الحديث بعد أن تغرب الشمس. وتحول مطلق إلى أسطورة من أساطير الخب. ورضخ أهل الخب في النهاية للأمر وأصبح عايش جزءاً من عائلة السماوي، رغم كل تلك الأسرار التي تحوم حول رأسه ورأس أبيه.

ورغم أن عايشاً هذا كان من الفسقة الذين لا يخجلون من إظهار فسقهم، إلا أن أهل الخب زوجوه واحدة من أجمل بناتهم، وأعرقهم نسباً، وأكثرهم مالاً... علياء الشودرية، بنت زكريا الشودري، من رجال عقيل المشهورين... بنت ولا كل البنات... مال وجمال ودين، وحسب ونسب. وهي، تغمد الله روحها بالجنة، حورية من حور الله في جناته، ما تقوى تمشي من العافية:

الوسط هافي والقفا رجاح كن الراديف صف محال

ردف تحط عليه الدلة ما تطيح، وخصر تقبضه بايدك، وخشم كنه سلة سيف، ونهد زامي، وعرف ووجه وشعر، وكل ما فيها يرتج عندما تسير... امرأة لا مثيل لها في أرض الله كلها، كاملة، والكامل الله سبحانه، وأظن أن الشاعر لم يقصد إلا هي حين قال:

أثيابها يشكن ظيم ردوفها والوسط كراخ الجديل معزل
والى مشت كن النعاس بعينها من ثقل ردف مثل طعس معتلي
أنا اشهد أن اللي خلقها قادر حيثه بخلق ردوفها متجزَل

وإلا قول الشاعر:

يمشي برِفق خايف مدمج الساق فصم حجول هزها الثقل من فوق

خطبها كثيرون من الخب والخبوب المجاورة، ومن بريدة وعنيزة والرس والبكيرية ورياض الخبرا، وحتى من المذنب وسائر بلاد القصيم، فقد كان يُضرب بجمالها المثل. ولكنها لم توافق إلا على الداشر ابن الداشر... قدر، وهل يُرد القدر؟ فهي التي أنجبت في النهاية رفيع السماوي، أباك يا سميح الذاهل، سبحانية خب السماوي... ليس إلا القدر الذي لا يصد تفسيراً لذلك الزواج. ولعله جذبها بلسانه، فقد كان شاعراً مفوهاً، رغم أن أكثر قصائده ماجنة وفاسقة، من السرة وتحت، مثل أهزوجته التي يقول مطلعها:

قال: ثغر تلالا قلت: خلي وافانا
مشية قطاة دلالا وريق ماء زلالا
نهود على الصدر رمانا وبطن تحتهن تشانا
ردف للزين حمالا حول الاحمر تشانا
وفخذ سمين للردف سنادا حايط بشي سمن الحماما
زهبت رحي للطعانا وذبحت خلي ذبح النعاما

إلى آخر الأهزوجة التي يصف فيها كل جزء من أجزاء خليلته، الله يخسه. ولم يكن عايش هذا يترك عذراء أو متزوجة، إلا ويتعرض لها، ويشبب بها... وضحك أبو عثمان وهو يقول:

- ويقال أن عايشاً هذا لم يكن يجيد الشعر عندما أتى إلى الخب، ولكنه رأى ذات ليلة وكأنه نائم على «دمالة» الخب، فأتى كلب أسود وبال في فمه. ثم رأى وكأنه هو كلب أسود يبول في تنور منزل الشيخ إبراهيم السماوي، ثم يرى نفسه وقد غادرت نفسه ثم اختفت في السماء. وعندما

أصبح الصباح، وجد الشعر يجري على لسانه...

وضحك أبو عثمان مرة أُخرى وهو يقول:

ـ قال الشيخ إبراهيم أن الكلب الأسود هو الشيطان بعينه، وأن عايشاً سيقول الشعر، وأن نفسه التي غادرت نفسه هي الإيمان الضائع، ولذلك سيعيش عايش فاسقاً ويموت فاسقاً... ورغم ذلك، لم يتخل عنه الشيخ!.. أليس ذلك غريباً؟..

ويتجشأ أبو عثمان بصوت مسموع، ثم يقول:

ـ المهم... لا يقارب علياء في جمالها إلا حفيدتها، هيلة الجعفرية، بنتك يا عمران الجعفري، أخوك يا رفيع السماوي من زوج علياء الثاني. من يَرَ علياء الشودرية لا يمكنه أن يتزوج من غيرها، وتلومونني على عدم الزواج وقد رأيتها وهي في أوج جمالها ودلالها...

قال أبو عثمان ذلك، وهو يرسل تنهيدة حارة أحس جابر أنها قادمة من أعماق النفس. ثم قال وهو يهز الفنجان مكتفياً من القهوة، ثم يفرك يديه بما تبقى من زبد فيهما، ويملس بعد ذلك على لحيته الطويلة المخضبة بالحناء:

ـ لقد كان عايش هذا فاسقاً وشريراً بكل ما في الكلمة من معنى، يدخل على الحيايا بجحورها. وكان نهماً لا يشبع، حتى سماه الناس «السعر». ورغم أنه لم يكن محتاجاً، فقد كان يسكن في بيت الشيخ إبراهيم بكل ما فيه من خير، إلا أنه كان قاطع طريق لا يلذ له إلا اللقمة المنهوبة. كما كان دائم الاجتماع برفاق السوء في بريدة والخبوب المجاورة، يدخنون الشاور، ويغنون قصائد ماجنة، ويهجنون بصخب، ويجتمعون بحريم الله أعلم من أين يأتون بهن. ولم يكن عايش يبالي بمشاعر أحد، فقد كان يدخن الشاور في قلب الوسعة في بريدة بجانب الجامع الكبير أحياناً، وفي حظار حايطهم أحياناً، أو على النفود القريب أحياناً دون احترام لدين أو عادة أو ناس. وكثيراً ما كان يقضي لياليه في «عكيرشة» يلهو مع الناس ويغني، ولا

ينهض معهم للصلاة إذا قاموا. ولم يكن من الممكن نهيه أو طرده، فهو من السماوات أصحاب الصيت. وكان عمه الشيخ إبراهيم يحميه على الرغم من علمه بفسقه، بالإضافة إلى جبروت عايش وقوته، رغم دقة جسمه؛ حتى شبهه البعض بإبليس ذاته. وكانوا يرددون عندما يرونه: «سبحان مخرج الميت من الحي، والحي من الميت... هل يعقل أن يكون هذا ابن أخ الشيخين إبراهيم وعبد الرحمن، وابن عم سلمان وفوزان، أتقى عباد الله، وابن عم صالح السماوي، الذي نافس ابن شكر في قوافل العقيلات، وحفيد علي، أعظم من عرفه الخب... صحيح... ولله في خلقه شؤون... ولكن... أليس مطلق أباه؟»

قال أبو عثمان ذلك، وهو يضحك مرة أُخرى، ويتناول آخر تمرة في الطبق، أخذ يتأملها قبل أن يغمسها في الزبدة، ثم يلقيها في فمه، ويلوكها ببطء وتلذذ وهو يقول:

ـ ولكن سبحان ربك الحكيم... يمهل ولا يهمل.. ففسقه خلص العباد منه في النهاية. فقد تشاجر مع بعض رفاق السوء على عاهرة معروفة في خب البدايات والنهايات، فقتل عايش أحدهم، وفر مع العاهرة إلى حيث لا أحد يدري. ولم يعد يُرى في الخب بعد ذلك... البعض يقولون إنه مختف في أحد بلاد الوادي، والبعض يقول إنه في الجزيرة بالشام، وآخرون أكدوا أنهم رأوه في «حوش عقيل» في بغداد، والبعض الآخر يقولون إنه شوهد في سوق الشيوخ وليس في حوش عقيل، وهو يعمل في البريد الإنجليزي بين بغداد ودمشق. ويؤكد بعض عقيلات الخب، ومنهم صالح السماوي، أنهم رأوه في مطرية مصر وقد تزوج من العاهرة هناك، والبعض يؤكد أنه اجتمع به في أحد مجالس النَوَر في البصرة، وكانت العاهرة ترقص وسط الجميع، وقد تعتعها السُكر والعياذ بالله. ويردد البعض قصيدة يقولون أنه مدح فيها شيخ الزبير الذي أعجب بالقصيدة، وزوجه واحدة من بناته، وأنجب منها، بعد أن غير اسمه ونسبه بناءً على نصيحة من الشيخ، الذي ألحقه بنَسبه ذاته بينما يؤكد البعض أن الممدوح كان ابن

صباح في الكويت، ويصر البعض الآخر على أنها قيلت في ابن رشيد في الجبل، بينما يصر البعض على أنها قيلت في ابن خزعل، أمير المحمرة والأهواز. ولكن الحقيقة أن لا أحد يدري أين اختفى عايش السماوي، ولا ماذا حل به، فمثله لا يستقر في مكان، ولا يقيده المكان. لقد كان الجميع فرحين بغيابه وهم يرددون: «راحة من جحه راحة»، ولكن الفضول يقتلهم لمعرفة أين أصبح وكيف أمسى... وتحول عايش إلى سالفة من سواليف الخب مثل أبيه...

ـ وماذا بشأن العاهرة يا أبا عثمان؟

قال جابر وهو يبتسم بخجل، بينما ابتسم أبو عثمان بدوره وهو يقول:

ـ العاهرة؟.. يقولون إنها عادت بعد سنين، طامعة في أن يكون الناس قد نسوها، وقد حملت وليداً على صدرها، ولكنها راحت روحة جِدي، فقد وجِدت مذبوحة من الوريد إلى الوريد في اليوم التالي لرجوعها، ووجِدت جثتها ملقاة في نقرة، غير بعيد عن البوابة الغربية لسور حجيلان. واختصم القوم أين يدفنونها. فمن قائل إنه لا يجوز دفنها في مقابر المسلمين، ومن قائل إنها ماتت مسلمة وإن كانت عاصية، ولذلك لا حرج في دفنها في مقابر المسلمين. وكادت أن تتحول إلى فتنة في مماتها، وأخذت الجثة تتعفن، فلم يجد البعض إلا نقل الجثة بعيداً، وحفروا لها حفرة في نقرة متوسطة بين خب الحرام وخب الحلال وروضة عدنان، وأهالوا عليها الرمال، وساووها بالأرض بحيث لا يدري أحد عن قبرها، وهدأت الفتنة. ولم يحاول أحد أن يعرف قاتلها، وإن كان الجميع يعرفونه، حتى الأمير ذاته... عز الله أنها مسكينة، تبي الناس ينسونها في بلاد تؤرخ بطقعة الشريف، وهي طقعة...

قال أبو عثمان وهو يضحك، فيما قال جابر وهو يضحك أيضاً على السالفة التي يعرفها جيداً:

ـ معلوم، هذي طقعة شريف مهيب أي طقعة... ولكن ماذا بشأن الطفل يا عم؟...

ـ الله أعلم... الله يخسها ويخس ولدها... أستغفر الله، الله يغفر لها... بس يا ليتهم أمهلوها حتى يعرفوا منها أين ألقت المقادير بعايش... المهم، ما أطول عليك السالفة، لقد تحولت حكاية عايش السماوي إلى سبحانية من سباحين خب السماوات، وتحولت سيرته إلى عظة تقال في المساجد وجلسات السمر، مع سيرة فرعون، والنمرود، وعيال آدم وقوم نوح وصالح وهود، وبني إسرائيل، وزهرة هاروت وماروت، وحية إبليس والطاووس..

والتقط أبو عثمان عوداً من الأرض أخذ ينكث به ما بقي من أسنانه وهو يقول:

ـ ولكن الغريب أن قبر العاهرة قد تحول إلى مزار للنساء العاقرات. ورغم أن لا أحد يعلم بالضبط أين قبرها، إلا أن النساء يذهبن إلى حيث المكان حسب الوصف، ثم يأخذن حفنة من رمال القبر ويصررنها، ثم يضعنها تحت رؤوسهن أثناء النوم. وقد حلف البعض منهن أنهن حملن بعد ذلك... أعوذ بالله من غضب الله. ويحلف البعض أنهم لا يجدون الفقع بكثرة إلا حيث القبر وما يحيط به... كفر في كفر، ولا حول ولا قوة إلا بالله...

ثم يعتدل أبو عثمان في جلسته، ويرفع شاهده عالياً وهو يقول:

ـ ولكن، سبحان ربك المعبود... المكتوب لازم يتم... وسميح يجب أن يأتي، مثل ما أتى من هم قبله.. فعايش الداشر لم يختف قبل أن يزرع بذرته في أحشاء علياء الشودرية، التي ولدت بعد اختفائه بفترة وجيزة رفيع السماوي...

وأخذ أبو عثمان يعبث بالرمال الناعمة إلى جانبه تارة، ثم يصطلي بنار حطب الأثل تارة أُخرى، رغم جمال الطقس واعتداله في ذلك اليوم الخريفي

من أيام تشرين، وهو ينظر إلى الأفق المترامي حيث كانت الشمس قد أخذت تنحدر نحو الغرب ناشرة أشعتها الذهبية اللذيذة في أرجاء سماء زرقاء صافية، إلا من بعض غيوم ناصعة البياض، تلقي بظلالها على أرض في صفرة الذهب وصهابة خمر الأولين. وأخرج أبو عثمان ساعة فضية من جيبه لا تغادره أبداً منذ جاء بها في إحدى سفراته إلى مصر قبل سنين، ثم تحرك من مجلسه بعجلة، وهو يخرج مسواكه الضخم من جيبه ويستاك بقوة وهو يقول:

ـ الشمس على وشك الزوال، بالكاد يمكننا اللحاق بالصلاة... فالوقت لا يمهل، والرب لا يهمل... هيا بنا...

وقبل أن ينهض، تناول طبق الزبدة الفارغ، واستخرج ما علق بجنباته من بقايا، ومسح بها عقبي قدميه المتشققين، ثم نهض وهو يردد بصوت عال: «لا إله إلا الله، كثر ما خلق الله».

٣

لم تكن المسافة بين مسجد الخب والنفود الذي كانا يجلسان عليه طويلة، ولكن أبا عثمان كان حريصاً على تلاوة بعض آيات من آخر سورة البقرة، وبعض آيات من هود والكهف وتبارك، قبل أن تبدأ الصلاة. أهال جابر بعض الرمل على النار، وحمل الدلة والفنجانين وطبقي التمر والزبدة الفارغين، وهبط الاثنان في اتجاه حايط صالح السدرة، حيث وضع جابر المعاميل في الحظار على طرف الحايط من جهة النفود، وانطلق في إثر أبي عثمان إلى المسجد.

كان كل الرجال من أهل الخب قد التأم جمعهم في المسجد، بينما صوت شويش الأجش، عبد الأمير ابن ثنايا، ينطلق داعياً إلى الصلاة. افترش أبو عثمان الرمال الناعمة في المسجد، وأسند ظهره إلى الحائط الطيني، وأخذ يتلو القرآن بصوت مسموع، ودموع هلت قبل التلاوة: «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير...»، من مصحف مهترئ

قديم كان لا يفارقه، بينما جلس جابر إلى جانبه منصتاً لصوته الرخيم، وهو يراقب دموعه التي أخذت تنحدر مدراراً على وجنتيه العظميتين، ومسواكه يجوس خلال أسنانه القليلة. لعل أبا عثمان قد قرأ هذه السورة مئات المرات، وربما سمعها جابر عشرات المرات، ولكنه كمن يسمعها أول مرة. فرقّة أبي عثمان هذا عجيبة، يسحرك وأنت تعلم، ولكنك لا تبالي، بل وأنت مغتبط بذلك، كحية اصطادت عصفوراً، رغم أنك لست عصفوراً، ولا أبو عثمان حية... فمن يرى أبا عثمان، يعتقد أنه درويش من الدراويش، أو جلف من الجلوف الذين تنتجهم بيئة نجد كل يوم، ولكن المظهر ليس هو المخبر دائماً. وقد وعى جابر الدنيا وهو يرى أبا عثمان أمامه دائماً، بحيث كان الخب بالنسبة له هو أبو عثمان، وأبو عثمان هو الخب. ومن إعجابه به، كان جابر يقلد أبا عثمان في كل شيء، حتى في لباسه للعقال الذي اعتاد عليه أبو عثمان من سفرياته مع العقيلات، وأصبح لا يخلعه في خب لا يرتدي أكثر ذكوره العقال.

فأبو عثمان السايح من الأفراد القلائل الذين «يفكون الخط» في الخب، فيقرأون القرآن، ويكتبون الوصايا، ويعقدون العقود، ويرسلون «المكاتيب» ويقرأونها، ويقرأون كتباً لا يدري أحد من أين يأتي بها، فلقد أجبرته رحلاته مع العقيلات على فك الخط، وتعلم بعض مفردات من اللغة التركية وبعض الإنجليزية، وهو الذي لا ينتمي إلى أسرة عريقة، فقد جاء مع أبويه إلى الخب منذ زمن طويل من حيث لا يدري أحد، وكان وقتها في السابعة من عمره. لم يمكث والداه طويلاً بعد الاستقرار في الخب حتى ماتا، ونشأ يتيماً يلتقط رزقه من العمل في حقول الخب ووسعة بريدة، والبادية المحيطة، وهو ما أكسبه خبرة وأنضجه قبل الأوان. لم يكن أبو عثمان من زعماء العقيلات أو مشاهيرهم؛ فقد بدأ حياته راعياً لحلالهم، ثم قهوجياً في قوافلهم، ثم أصبح يملك ذلولاً أو ذلولين في قوافلهم، حتى أصبح يكتب لهم العقود والمبايعات بعد ذلك. ولذلك كان محل تبجيل الجميع، فللحرف سحر لا يضاهيه أي سحر: أوَ ليس الله إذا أراد شيئاً قال

له كن فيكون؟ أَوَ ليس القلم هو أول ما خلق الله؟ أو ليست إقرأ هي أول ما أُنزل من الوحي؟ أَوَ ليس القرآن معجزة أهل الإسلام؟ وبالإضافة إلى ورع أبي عثمان وتقواه الذي تجسد بقعة دهماء داكنة في مقدمة الجبين، اتسعت مع الأيام والسنين، فقد سافر مع العقيلات كثيراً، وجاب بادية نجد والحجاز والأحساء طولاً وعرضاً عندما كان مقاتلاً في جيش الإمام عبد العزيز السعود، وقبل ذلك شارك في معركة المليدا ضد ابن رشيد وعساكر الدولة من الترك، كما شارك في معارك الصريف والبكيرية والشنانة، وفي موقعة ذبحة ابن رشيد في روضة مهنا. وقبل أن يشارك أبو عثمان في وقعة البكيرية، كان يتاجر مع عقيل في سوق العصر في ميدان دمشق. وعندما بدأت المناوشات بين ابن رشيد وابن سعود للفوز بالقصيم، سرت بين العقيلات في الميدان كلمات ابن عوني، وقصيدته «الخلوج» تستحثهم على المشاركة في أحداث بلادهم:

خلوج تجذ القلب باتلا اعوالها ... تكسر بعبرات تحطم اسهالها
تهيض مفجوع الطماير بحسها ... الى طوحت صوت تزايد اهجالها

وكان أكثر ما استثار نخوة عقيل تلك الأيام، كما يقول أبو عثمان، قول الشاعر في أبيات من قصيدته:

قلت آه واويلاه واخيبة الرجا ... كيف أمنا تهضم وحنا قبالها
يا طارشي من فوق سراقة الوطا ... هميمة إلي سارت ذعرها اظلالها
أوصيك يا مرسال بالسير والسري ... حاذور نوم الليل عينك ينالها
إلي سرتها عشر وخمس مغرب ... مرواحلك الميدان منها منالها
فوق بسوق العصر ياتيك غلمه ... تخشع بزينات البريسم افعالها
يقولون يا صاح عطنا أعلومك ... وبلدان نجد عقبنا وش جرى لها
أولاد علي اليوم ذا وقت نفعكم ... لا رحم أبو نفس أتاجر بمالها
أولاد علي اليوم ما هوب باكر ... تقدموا بعزم الليث خلوا رزالها
لا تتبعون الهون والعجز والعسا ... أو ربما أوليت يتعب سوالها
قوموا براي الله واقضوا دينكم ... أنتم هل القالات ما انتم أرذالها

سنة مهلهل عن كليب خليصه فرضها أبو ثامر وجدد اسمالها
وإن عاش أبو ثامر وسانع له الهوى كم خفرة ترمي الغطا عن جمالها

فبعد معركة المليدا، كان أهل القصيم يتحرقون شوقاً للانتقام من عبد العزيز ابن رشيد، الذي كان أخرقاً وعاملهم بقسوة، وأثقل كواهلهم بالخوات، وكأنهم من العبيد، ولم يكن حكيماً مثل سلفه محمد ابن رشيد، الذي مات ولم يترك له وارثاً إلا ابن أخيه، عبد العزيز بن متعب. كان عبد العزيز بن متعب شجاعاً ومقداماً، ولكنه لم يكن بعيد النظر، فهدم كل ما بناه سلفه الراحل بحكمته. ولذلك تدفق أهل القصيم وعقيلاتهم في الشام ومصر للانضمام إلى جيش ابن سعود، الذي كان معتمداً على حضر نجد في سياسته ومعاركه، بينما كان ابن رشيد معتمداً على قبيلته ومن والاها من قبائل البادية، بالإضافة إلى جنود الدولة. ولكنه لم يحاول كسب ولاء حاضرة نجد، ولم يكن لديه من بُعد النظر ما يجعله يعرف توازنات القوى في عصره، وهي ميزات كان يتمتع بها ابن سعود. ولذلك عندما تقابل جيش عبد العزيز بن متعب الرشيد، وجيش عبد العزيز بن عبد الرحمن السعود في روضة مهنا، تحدى ابن رشيد ابن سعود في النزال وحل الخلاف بينهما. ولكن ابن سعود رفض وهو يقول: «الميت لا ينازل الحي...». فقد كان ابن رشيد معتمداً على الشجاعة والقوة المادية وحدها، بينما كان عبد العزيز ابن سعود ينظر إلى أبعد من ذلك، ولذلك شبّه نفسه بالحي على الرغم من ضعفه، وشبّه ابن رشيد بالميت على الرغم من قوته.

وسرت شائعة في الخب، عقب وقعة روضة مهنا، أن أبا عثمان هو من ذبح عبد العزيز الرشيد، صنديد نجد، عندما سمع صرخته في ظلام الليل، منادياً حامل رايته «الفريخ»: «من هان يا الفريخ»، فصاحت الجموع: «ابن رشيد... ابن رشيد..»، وكانت الرصاصة الأولى التي اخترقت جسد ابن رشيد هي رصاصة أبي عثمان، ثم تتابع الرصاص. ولكن لا أحد يؤكد الحادثة، ولا أحد ينفي، وبقي أبو عثمان صامتاً مبتسماً طوال الوقت، لا يؤكد الحادثة، ولا ينفي، ولكن السرور كان واضحاً على محياه، وهو يسمع

هذه الأقاويل. وكانت آخر مشاركات أبي عثمان القتالية في وقعة جراب بين ابن رشيد وابن سعود، التي قُتل فيها البريطاني شكسبير، وذلك قبل سنتين من رحيل سميح الذاهل. ثم استقر به المقام في الخب ما تبقى له من عمر، مفضلاً إياه على العيش خوياً في قصور الشيوخ التي لا يطيقها، ولا يطيق النفاق والتذلل اللذين يسيطران على الجميع هناك. فالشيوخ، كما يقول أبو عثمان، «نَفَسهم قصير... يحبونك اليوم ويوصلونك السماء السابعة، ويكرهونك من باكر ويدفنونك بالأرض السابعة، ولا تدري وش مزعلهم ولا وش مرضيهم.. فما صاحب السلطان يا وليدي، إلا كصاحب الحية التي في صدره، لا يدري متى تهيج عليه، ولكن كن منهم كما تكون من النار... استدفئ بها، ولكن لا تقرب منها كثيراً فتحرقك... وقد قيل أنه لا يواظب على باب السلطان إلا من يطرح الأنفة، ويحمل الأذى، ويكظم الغيظ، ويرفق بالناس، ويكتم السر... وأنا يا وليدي لست ممن تنطبق عليه هذه الأوصاف».

ورغم نفوره من الشيوخ وعيشهم، رغم ولائه الشديد لهم، إلا أنه لا يزال يحتفظ باعتزاز بسيف فارسي نادر من نوع «خريسان»، أحب أنواع السيوف عند عبد العزيز، أهداه إياه بعد وقعة الأشعلي، تقديراً لموقفه في وقت كانت فيه بريدة وأميرها محمد أبا الخيل، متحالفة مع حايل وأميرها سلطان الحمود الرشيد، والتي هزم فيها ابن رشيد وقُتل بعدها على يد أخويه سعود وفيصل، وفتحت بريدة بعدها أبوابها لعبد العزيز، ورحل أميرها أبا الخيل إلى العراق. والغريب أن أبا عثمان لم يتزوج، رغم تقواه وورعه، وكان ذلك مثار تعجب أهل الخب. فمن قائل أنه أعرس في غزواته مع ابن سعود، أو في رحلاته إلى الشام والعراق ومصر، وأن له أولاداً من زوجة مصرية وأُخرى شامية يعرفهم عقيلات الخب تمام المعرفة، ومن قائل أنه «مهوب رجال» عاجز عن معاشرة النساء، ومن غامز يقول إن له وسائل أُخرى. ولكن كل هذه الأقاويل سكتت، وبقي احترام الرجل وتقديره، فالحرف وفكه يبقيان قداسة ما بعدها قداسة، في مجتمع يردد كل يوم إقرأ، ولكن القارئين قليل.

تفرق الرجال بعد الخروج من المسجد في أرجاء الخب، وكانت رائحة عقود المرقوق والمطازيز اللذيذة تملأ الأزقة الضيقة، قادمة من بيوت السماوي والثنايا والشودري، مطاوعة وأمراء وأثرياء الخب. سار ابن ثنايا، أمير الخب، وعلى جانبه الأيمن سار الشيخ سلمان السماوي، مطوع الخب وإمام المسجد، وصالح السدرة أبوجابر، وأبو عثمان السايح إلى جانبه الأيسر، بعد انقضاء الصلاة، بينما كان جابر السدرة يسير خلفهم احتراماً وتبجيلاً لأربعة من أهم شخصيات الخب، كما أن صغر سنه التي لم تناهز العشرين، لا يمنحه الحق في التدخل في سواليف كبار السن وشؤونهم. كان الأربعة يتحدثون عن موسم الأمطار المقبل، وتمنياتهم بنزول الغيث مدراراً، فقد انتهى «سهيل» ودخل «الوسم» من مدة، ولم يبق على «المربعانية» إلا شهر وبضع الشهر ولم ينزل الغيث. وإن تأخر أكثر من ذلك، فلا نفع له. كان الجميع متفائلين خيراً، وهم يدعون: «يا الله سنة ذبان، ولا سنة غربان»، وليس كالسنة الماضية التي كانت سنة محل وجفاف هلك فيها الزرع والضرع، كتلك السنة التي يذكرونها حين قدوم عايش، ولم يعرفوا فيها طعم البسباس والحوى والذعاليق، ولم تعرف فيها مواشيهم طعم الربلة والقراص. ورغم خوفهم من أسراب الجراد على مزروعاتهم القليلة، فهُم لم يخفوا شوقهم إلى لحمه، وخاصة عندما يكون مسلوقاً بالماء والملح فقط، أو عندما «يكنز» مثل التمر، و«يرق» أو «يطز» به. وتذكر الجميع بأسى أيام علي السماوي حين كانت الأرض تمنح خيراتها من دون مطر أحياناً، وأيام رفيع القليلة التي فاضت فيها الشعبان، وسنة مولد سميح حين فاض الوادي، وظهر الفقع قبل الموسم، وفي كل نفود قريب، فقد كانت سنة خير وأمطار لم يعرف الخب لها مثيلاً، حتى أن الواحد منهم كان يجد الفقعة أمام بيته. فكانوا يؤرخون بتلك السنة التي سمّوها «سنة الغيث». وكان الجميع يتمنون هطول الأمطار قبل دخول «المربعانية»، حتى يكون له أثره في اخضرار الأرض وظهور الفقع، الذي اشتاق لطعمه الجميع، بعد أن أنفت نفوسهم من المحزر ورائحته، رغم أن المحزر عند فقراء الخب عصيدة، والعصيدة عند الفقراء طريفة كما يقولون، وما أكثر مايقولون.

وعندما وصل الجميع إلى بيت الأمير محمد ابن ثنايا، ودّعهم وهو يدعوهم إلى الدخول وتناول العشاء معه، ولكنهم رفضوا بأدب وهم يشكرون ويدعون. ولم يكرر ابن ثنايا الدعوة، فعلم الجميع أنها كانت من باب المجاملة، فيكفيه ثلاث زوجات وتسعة من الأولاد والبنات يشاركونه عشاءه، أو ما تبقى منه. واتجه الشيخ سلمان إلى منزله القريب داعياً أبا عثمان، الذي رفض، فتواعد الاثنان على اللقاء في المسجد عندما تحين الصلاة. وتلمس أبو عثمان طريقه إلى منزله القصي في أطراف الخب، إلا أن جابراً لحقه وهو يلح عليه بالذهاب معه إلى منزله ويعده بعشاء مرقوق بالقرع والقفر وسديف لم يذق له مثيلاً. وابتسم أبو عثمان لذكر المرقوق، وتحلب ريقه وهو الذي يقتات بالتمر واللبن معظم أيامه، وقهوة قرنفل ليس فيها من القهوة إلا رائحتها، توفيراً للهيل أو لعدم توفره، إن لم يأته اللبن من هذا الجار أو ذاك. فاللبن يحتاج إلى بقرة، والبقرة تحتاج إلى امرأة. كان جابر السدرة في أشد الشوق لمعرفة بقية قصة سميح، فهو وإن كان يعرفه أيام الصبا، إلا أن معرفة عن معرفة تختلف، فالإنسان لا يولد يوم مولده. ورغم أن سميحاً غادر الخب منذ سنين، باحثاً عن أبيه رفيع، إلا أن ذكراه ما زالت عالقة في ذهن جابر، وبقية الذين عرفوه منذ الصغر، بل في الخب كله. فقد ولد بعد مغادرة أبيه رفيع الخب بعدة أشهر، في أواخر سنة الجدري، وهي السنة نفسها التي استولى فيها عبد العزيز السعود على الرياض، وذبحة ابن عجلان. فقد كانت الأحوال مضطربة، ومعارك السعود والرشيد توشك أن تبدأ من جديد، والكل في البادية والحضر مستنفر. ولكن رفيعاً لم يأبه لكل ما يحيط به، وشد الرحال إلى حيث لا يعلم هو، ولا يعلم أحد، ولم يكن يعلم أن زوجته حاملاً بسميح. ورغم توسلات أمه، وزوجته حصة الثنايا، أخت الأمير السابق محمد الثنايا، الذي قتله ابن عمه الأمير الحالي، له بالبقاء، فقد كان مصمماً على البحث عن أبيه عايش والعثور عليه مهما كان الثمن، كما كان يردد، وقطع ألسنة الغمازين واللمازين. فقد مل نظرات الشك والازدراء والغمز واللمز التي كان يجابَه بها من أهل الخب، حين يأتي ذِكر أبيه عايش السماوي، أو جده مطلق.

ولكن ذلك لم يكن السبب الحقيقي لمغادرة رفيع للخب، كما يقول أبو عثمان. السبب أنه ذات يوم دعا بعض أترابه من الشباب إلى حائطهم، وأخذ «يخرف» لهم من الرطب الذي قد بدأ في النضج. وبينما هم يتضاحكون ويتمازحون، إذ أطل عليهم زوج أمه، عبد الله الجعفري، وأنب رفيعاً على إسرافه وقال: «لا تظن نفسك صاحب ملك تبعثره كيف تشاء... ما أنت إلا مثل خادم لا تزيد أجرته عن جنيه ذهب في السنة...» كانت هذه الكلمات قاتلة لرفيع، وهو يسمعها بين أترابه. ومن يومها قرر المغادرة.

لم يكن أحد يجرؤ على التعريض به أو بأبيه أو جده علناً، فهو يبقى سماوياً في كل الأحوال، ولكنه كان يعلم ما تلوكه الألسن في غيابه، وحين يسمُر الشباب من جيله على طعس من الرمل، أو في حظار أحدهم. لم يكن رفيع السماوي بمثل أخلاق أبيه عايش أو جدّه مطلق، فقد كان تقياً وورعاً، وإن كان يشبه أباه في السحنة والجسد، ولا يشوب سلوكه أي شائبة، ولكن سمعة أبيه وجدّه لا تريد أن تتركه، وإهانة زوج أمه لا تريد أن تتركه لحظة واحدة، فقرر أن يترك الخب بحجة البحث عن أبيه. لم يكن يهمه أمر أبيه كثيراً، فإن كان عايش قد مات فلا جدوى من البحث عنه، وإن كان حياً فهو كالميت بالنسبة إليه، وهو الذي تركه تحت رحمة زوج أمه الذي لا يترك مناسبة من دون أن يعيره بوالده وجدّه، قائلاً: «خوش عيلة... ذبح وهوش وقحاب...»، ثم يضحك ويكمل قائلاً: «الله يهدي الشيخ إبراهيم العلي، ما أدري على أي أساس اعترف بعايش سماوي..» ورغم غضب علياء واعتراضها على تعريضات زوجها بابنها، فإنه كان يصدها بعنف وهو يقول: «أنت آخر من يتكلم... احمدي ربك على أني تزوجتك بعد ذاك الشيطان... وآخرتها لا تنجبين لي إلا ولداً واحداً... لا بارك الله فيك ولا في نسلك.. الواحد لو اشترى له عبدة سوداء، لكان خير له منك ومن نسل الأباليس هذا...».

٤

عندما غادر رفيع الخب، كان الكثيرون من كل بلاد القصيم ونجد على استعداد للرحيل في كل اتجاه، كما كانوا يفعلون دائماً عندما تسوء الأحوال، وهي كثيراً ما تسوء. كما أن الصراع بين ابن سعود وابن رشيد يوشك أن يستعر، والشريف في مكة وابن صباح في الكويت لن يقفا متفرجين. والدولة والإنجليز لا بد أن يصطدما في النهاية نتيجة تصادم حلفائهما، فإبن سعود ثائر على الدولة، وهو يسعى إلى استعادة كل مناطق نفوذ أسلافه، وكل ما وصلت إليه دولة سعود الكبير. وابن رشيد ممثل الدولة، وهو صاحب القصيم. وعربان نجد يستعدون للمعارك وما تجلبه من غنائم، وحاضرتها تحاول أن تعرف مع من تكون مصالحها، وكيف تقيم توازناتها، والكل لا بد في النهاية أن يكون مع هذا المعسكر أو ذاك، فالمحايد مأكول من دون مقابل. ولذلك عندما أراد رفيع السفر، لم يجد قافلة من قوافل العقيلات أو غيرها مستعدة للمجازفة والسفر في مثل تلك الظروف. لذلك التحق بجماعة لابن رشيد، وغادر مطمئناً إلى الشمال.

لم يعد رفيع بعد ذلك إلى الخب إلا بعد عشر سنوات من رحيله، أي بعد خمس سنوات من «وقعة الصباخ» تقريباً، وحوالى ست سنوات من وقعة البكيرية. وكانت أمور كثيرة في نجد قد تغيرت خلال غيابه. فقد أصبح القصيم كله تابعاً لابن سعود، بعد روضة مهنا وذبحة عبد العزيز بن متعب الرشيد. وأصبح سلطان عبد العزيز السعود يمتد من قصيبا بين حايل والقصيم شمالاً، إلى شمالي حضرموت جنوباً، ومن حدود الأحساء شرقاً، حتى ديار قبيلة حرب بين المدينة وأعلى القصيم غرباً. لم يعرفه أحد عندما عاد، فقد كانت سيماء الثراء والجاه بادية عليه، كما أنه تغير كثيراً بعد هذه السنوات، فقد كان تمن العراق وتمره، ومشمش الشام وتينه، وبقول مصر وخبزها، واضحة على جسده الذي كان نحيلاً حين غادر. قال أنه لم يترك مكاناً إلا قصده: رملة فلسطين وغزتها، وبلقاء الأردن، ونوبة السودان، ودمشق الشام وحورانها، وأمبابة مصر، وزبير العراق، ومحرق البحرين. ولم

يترك عملاً إلا مارسه: غاص مع الغائصين في البحرين بحثاً عن اللؤلؤ، وهرّب مع المهربين في الشريعة وسيناء، وباع الخرز والأعشاب لفلاحي الكرك وعربان معان، وأصبح صبياً وحمالاً في رأس العين وطلعة المصدار في عمان. وجمع من الذهب والفضة الشيء الكثير خلال هذا المشوار، فكان يحمل معه الغازي والمجيدي والريال الفرنسي. واشترى ببعض الذهب الذي عاد به حايطاً مجاوراً لحايط إبراهيم السماوي القديم، وسمّاه حايط رفيع، جعل فيه أمه علياء وزوجته حصة، وأوصى أن يكون «سبيلاً» من بعده لا يباع ولا يُشرى، بل يبقى للمحتاج من ذريته وذوي رحمه، وينفق منه على الضحايا، وبصدقة جارية من بعده، وجعل من أخيه عمران الجعفري مشرفاً وقائماً عليه، بعد أن تزوج عبد الله على أمه وأهملها تماماً في أثناء غيابه، وبقيت تعاني الأمرين في منزل أهلها. كان يريد أن يسمي الحايط «حايط السماوي»، ولكنهم حذروه من ذلك، فلا يجوز أن ينافس إبراهيم الأول في التسمية، حتى علي نفسه لم يجرؤ على ذلك، فقبل بحايط رفيع على مضض. ولكن أول شيء فعله رفيع حين عاد هو أن ذهب إلى زوج أمه وأعطاه خمسة ريالات فرنسية وهو يقول بمرارة: «لك الآن أن تستأجر ما شئت من خدم... ذرية علي السماوي ستبقى زينة الخب»، لم يكن يريد أن يقول «سادة الخب» لعدم إثارة آل ثنايا.

وكانت مفاجأة سارة حين وجد رفيع أن له ولداً يحمل كل صفات عائلة السماوي، وليس فيه من صفات عايش أو أخلاقه شيء، فقد كان صورة من مطلق في جسده، وعلي في حكمته وحنكته، وإبراهيم في ورعه، رغم صغر سنه. ولكن ما لم يستطع رفيع تفسيراً له هو تلك الخصلة من الشعر الفضي التي كانت تتوسط مقدمة شعر سميح الفاحم السواد... من أين جاء هذا اللون الفضي وكأنه لعجوز في خاتمة العمر؟... ربما كانت من صفات أخوال أبيه عايش الذين لا يعرف عنهم شيئاً، ألم يقل النبي إن العِرق دساس؟ ولكنه لا يهتم.. فلديه ولد سوف يحمل اسمه وذاك يكفي. وقد سمته أمه سميحاً حال ولادته، فقد خرج من جوفها على رمال

النفود الناعمة في يوم رق نسيمه، وكثر غيمه، وتوارت فيه الشمس خلف الغمام، وهو يبتسم، على خلاف المواليد عادة الذين يخرجون وهم يصرخون، فقالت: «عز الله إنه سميح واسمه سميح». ولكنها فُجعت أول الأمر حين رأت خصلة شعره الفضية، غير أنها ابتسمت حين رأت بسمته الضافية، وتذكرت أنها لم تتألم لا في حمله ولا في ولادته، وكأن ما كان بها كان مجرد هواء لا وزن له. وذكرت أنها ليلة حملت به، وهي ليلة لا تنساها، فقد كانت ليلة مغادرة رفيع للخب، رأت فيما يرى النائم كواكب السماء تضحك، والشمس والقمر يتناجيان، ثم لم تلبث الشمس أن انسلت إلى فرجها واستقرت في بطنها. وفي ليلة مولده، رأت شهاباً عظيماً ينطلق من الشرق إلى الغرب، وبقي ذيله ساطعاً حتى بزوغ النهار. وعندما ألقمته ثديها، سال اللبن مدراراً، وهو ينظر ويبتسم.

ومما زاد رفيعاً إعجاباً بولده، ذلك الذي رآه من الاحترام الذي يحظى به سميح في الخب. فقد كان على صغر سنه الذي لا يتجاوز العشر من السنين، حاد الذكاء، حفظ القرآن الكريم، وعدداً لا بأس فيه من الأحاديث الصحيحة، بالإضافة إلى حفظه للكثير من الأوراد عن ظهر قلب. وكان يأتي المسجد قبل الجميع، ويغادر بعد الجميع، حتى أن أهل الخب توقعوا وتمنوا أن يكون خليفة الشيخ إبراهيم العلي السماوي، ويعيد إلى الأذهان عِلْم عائلة السماوي الذي اشتهرت به، بعد أن طغت حكاية عايش وأبيه مطلق على تاريخ العائلة. وعلى الرغم من شعره الفضي الغريب، ومن أنه كان يناقش في كثير مما يسمعه في التفسير والحديث، وذاك من الأمور المنكرة، خاصة في عهد رجل لا يرحم مثل ابن جلوي في بريدة، إلا أن الناس سموه حمامة المسجد، لكثرة مكوثه هناك، ولتلك النغمة الجميلة في الصوت التي تستولي عليه حين يقرأ القرآن ويبكي. بل أن بعضهم كان يحلف أنه كان يرى أناساً متدثرين بالبياض يحيطون بسميح وهو يقرأ القرآن، ثم لا يلبثون أن يختفوا فجأة ما أن يتوقف عن القراءة. ولكن شيئاً واحداً لم يرق لرفيع في سلوك ابنه سميح. فقد كان قليل الكلام، سارحاً معظم الوقت، لا يحب

اللعب مع الأطفال في سنه. فهو إما أن يكون في المسجد، وإما على طعس رمل يجلس وحيداً ساعة الغروب أو الشروق أو منتصف الليل ويتأمل ما حوله. وفي بعض الأحيان، كان لا يحس بما حوله، وإذا كلمه أحدهم لا يرد إلا بعد لأي وبكلمات قليلة. لذلك بدأ ينتشر في الخب لقب جديد له وهو سميح الذاهل...

أخذ رفيع ينفق الذهب بغير حساب على الجميع، فلديه سميح ابنه، وعلياء الشودرية أمه، وحصة الثنايا زوجه، وعلي السماوي جده، والذهب العصملي والفرنسي والإنجليزي ملك يمينه، والسماء لم تبخل بمطرها. أقام الولائم ينحر فيها أسمن الخراف والقعدان، ويريق أفضل السمن، ولا يعجبه إلا تمن العراق وسكري خب السماوي. واتصل بأعيان بريدة وعنيزة والرس وعائلاتها الكبيرة، يذهب إليهم ويأتون إليه، وأصبح هو ذاته من الأعيان، وأصبح اسم رفيع اسم على مسمى. وخطب واحدة من بنات «العبارنة»، واحدة من أكبر عائلات القصيم وأغناها، وكاد أن يتزوجها لولا مغادرته المفاجئة فيما بعد، وكان الناس يعلقون بحسد واضح: «ايه... الدراهم يجيبن بنات الرجال... عز الله صدق حميدان الشويعر يوم قال: المال لو هو عند عنز شيورت، وقيل يا أم قرين وين المنزل»، في الوقت الذي كان دهن ولائمه يقطر من أيديهم، ولسان حالهم يردد مع حميدان الشويعر أيضاً: «أحب الدسيم ومص العظيم، وأحب العبيلة وشرب المرق». فلم يبخل رفيع على الخب وأهله، حتى أن آل ثنايا أخذوا يتوجسون خيفة منه، وأنه يسعى إلى إمارة الخب، خاصة بعد أن تغيرت الأمور منذ أن أصبح القصيم سعودياً، وانتشار الشائعات بعلاقة خاصة كانت بين ابن ثنايا ومهنا الصالح، حليف الرشيد في القصيم. ورغم تحذيرات أمه علياء له من الإسراف، وتشديدها على أن الذهب يرفع من لا نسب له، فكيف من كان عريق النسب، لم يستمع رفيع لوعظها ونصحها، وكان يرد عليها بالقول: «وكّلي الله يا أم رفيع... إذا الدنيا أقبلت، ما هوب ضارك ما صرفت. وإذا الدنيا أدبرت، ما هوب نافع مَا كنزت... وكّلي الله، وكّلي الله..». وعاش

الخب أياماً لا تنسى بعد عودة رفيع، ذكّرتهم بأيام علي السماوي، أيام المطر والوئام والسلام، وخاصة أن رفيعاً كان أقرب الناس شبهاً به، كما يقول كبار السن في الخب.

وانتهى الذهب الفرنسي والفضة المجيدية، ولم يبق إلا الحايط الذي اشتراه، فأراد بيعه، إلا أن أمه وأخاه وقفا ضد رغبته، فمن العار أن يُسبله ثم يعود عن وصيته، وحلفت أمه أنها سوف تغضب عليه إن فعل، وهو لن يأتي بأي ثمن على أية حال لو باعه مضطراً، فرضخ لها. ولكنه اعتاد حياة الرفاه، والحايط لا يكاد يفي حد الكفاف، فقرر الرحيل من جديد، خاصة بعد أن بدأ الهمز واللمز يحيطان به من كل جانب بعد أن أصبح معدماً من جديد. عادت سيرة مطلق وعايش، بعد أن دفنها ذهب رفيع، وارتاح عيال الثنايا. وبدأ التهكم على محاولته الزواج من جديد من علية القوم في بريدة، يصبح حديث الطعوس والحظران في أيام الصيف، والبيوت الضيقة حول نار «الأرطا» في ليالي الشتاء. وعاد عبد الله الجعفري إلى التقليل من شأن عائلة يحتل احترامها أفئدة الجميع، وإن لهجت الألسن بما لا يقال، في خب لا بد أن تلهج الألسنة فيه بأي شيء.

بكت أمه وزوجه، وحاول أخوه ثنيه عن عزمه، ولكنه كان مصمماً. وقبيل الفجر في أحد أيام آب الحارة، قرر الرحيل، فنظر إلى ابنه الذاهل عن كل شيء على طعس قريب، وزوجه النائمة، وراقب أمه من بعيد وهي تستعد للصلاة بقرب الحظار، وانطلق في اتجاه بريدة. كان يعلم أنه لن يجد قافلة لعقيل مشومة أو مغربة، فهم في آخر «الكلبين»، وهم لا ينطلقون عادة إلا في الخريف أو الربيع، وأحياناً في الشتاء، وابتداءً من «الوسم»، وحتى نهاية «البطين». ولكنه قرر الانطلاق من هناك، حيث يتزود بما يحتاج، ولعله يجد رفيقاً «يخاويه» في هذه الأيام اللاهبة، رغم أنهم في أول أيام «اسهيل»، حيث من المفترض أن يرق الهواء قليلاً.

كان يعلم أن الرحيل في مثل هذا الوقت فيه مخاطرة كبيرة، إن لم يكن من قطاع الطرق في البادية، فمن قسوة الصحراء، بيد أنه لم يعد يحتمل

الانتظار في الخب حتى الخريف أو الربيع. ولكن لم يكد يخرج من الخب، حتى جاءه صوت علياء وهي تناديه بحرقة وصوت مبحوح من البكاء. فتوقف مرغماً، حتى لحقت به علياء. وحاولت أن تعيده إلى الخب، فوافقها ولكنه قال لها أنه تعب، فلِمَ لا يرتاحان قليلاً على أحد الطعوس حتى انبجاس النور، ومن ثم يعودان إلى الخب. لم تثق علياء بكلامه، ولكنها رضخت بعد إصراره، ولم يكن هناك خيار آخر. وأرادت أن تتيقن من بقائه معها، فانتزعت غدفتها من على رأسها، وشبكت يدها في يده، وربطتهما معاً بقوة عدة ربطات، وتوسدت الرمل، ولكنها لم تلبث أن أغفت وهي لا تشعر. كانت واثقة أن رفيعاً وإن استطاع أن يفك القيد، فهو لن يتركها بلا غدفة. وعندما أحس رفيع أن أمه نامت، أخرج سكيناً كانت لا تفارقه، وقطع الغدفة من جوانب عدة حتى تحررت يده، ثم انطلق غير ناظر وراءه. وعندما بدأت الشمس ترسل أشعتها على العالم، كان قد شارف «مرقب المطا»، وكان سور حجيلان وقصر مهنا قد بدآ يظهران كالسراب من بعيد لناظري رفيع، الذي أخذ يسرع في مشيه بإتجاه باب الشقيري، وهو يتلفت ورائه. وفي الوقت الذي لاح فيه برج «الصنقر» لرفيع، كانت الرمال تدفن علياء النائمة تحتها... وكان ذلك آخر علم الشودرية بابن السماوات...

٥

لم يعد رفيع إلى الخب طوال حياة علياء القصيرة بعده، التي لم تدم أكثر من ثلاث سنوات. كانت تترقبه كل صباح ومساء، وهي لا تكف عن البكاء. وبقيت هذه الحادثة جرحاً لا يندمل في نفس علياء الشودرية، التي لم تتوقف عن تذكرها وهي تبكي وتردد: «سامحك الله يا رفيع، سامحك الله... عساك بخير وكل شيء يهون...»، ثم تردد أبياتاً من الشعر لابن عرفج:

يا عين من فرقا المحبين هلي ... دمع كما جمر الخلاص اشتعاله
نوحي وهلي وارعدي واستهلي ... من نظر ولم حقوق خياله

ثم إذا وصلت إلى قوله:

سـمـح المحـيـا لـو يـراه المصـلي يا مسندي عقب الديانة بداله

يغمى عليها، فتفيق، ثم تنشد:

الـلـه مـن جـفـن عـن الـنـوم ذاره سـو البـلا والـبـين بـفـراق غـاليه

وامـن الـوزرا هـدبـه تـغـير سـماره وانهـل مـن طرف الـشـقـاوي دواليه

واضحيت من هجر النيا والعزاره حيران مدري وش يرمي الدهر فيه

مـسـكـين مـا بي فـطـنـة واعـتـباره حـرقـان قـلـبـي حـرقـتـني تمـانـيه

ثم يغمى عليها من جديد. وتحولت إلى هيكل عظمي، وهي التي كان يضرب بها المثل في اكتناز الجسم، وأخذت في أيامها الأخيرة تمشي وهي تحدث نفسها وتنشد، ثم تبكي وقد حملت في يدها شماغاً قديماً لرفيع تشمه طوال الوقت وتبكي. حتى إذا هدها التعب، ألقت بنفسها على أي طعس قريب، أو في الحظار، وتنام لبعض الوقت وهي لا تزال تبكي. ولولا أن حصة الثنايا وعمران الجعفري كانا يغصبانها على تناول بعض اللبن والتمر، لماتت من الجوع وهي لا تدري. وضحى ذات يوم من أيام الصيف اللاهبة، أيام سنة «الرحمة» الله لا يعيدها، والناس مشغولون بذاك الوباء الذي حل عليهم، وأخذ يحصد الأرواح من دون رحمة، حملت إليها حصة بعض اللبن الطازج والرطب في الحظار، فوجدتها قد أسلمت الروح وهي تقبض على شماغ رفيع بقوة قرب أنفها، وقد أسبلت عينيها الرطبتين. ولم تنتبه حصة إلى أن ابنها سميحاً كان يقف هناك، وهو يتوكأ على عصاه وينظر إلى جدته من دون أن يكون هناك أي تعبير على وجهه. نظر إلى وجه جدته، ثم قبّل جبينها، ثم وقف وهو ينظر إلى أمه قائلاً: «ذهبت إلى حيث الراحة، وتركتنا لمطلق وعايش ورفيع وابن ثنايا»، ثم انطلق إلى حيث لا أحد يدري قبل أن يظهر بعد عدة أيام. ولكن الحادثة بقيت في نفس سميح، وهو الذي ازداد شروداً وانطواءً بعد رحيل أبيه، ورؤيته للحادثة التي وصلت إليها جدته قبل أن تموت. ثم لم يعد يُرى تقريباً بعد وفاة جدته، بعد أن تركت من القصيد ما أخذ ينتشر في نجد كلها، وأصبح يطلق عليها اسم شودريات رفيع. حتى المسجد الذي كان قرة عين سميح لم يعد يُرى فيه. وكان قبل وفاة

جدته، يغيب أياماً عن الخب ثم يعود، وسط قلق أمه حصة الثنايا، التي اعتادت على الأمر في النهاية، فلم يعد يثير قلقها.

لم يصدق أهل الخب أن رفيعاً فقد ذهبه وفضته بهذه السرعة، فسرت الشائعات بأنه تصنع الفقر والإفلاس، وسافر بعد أن كنز ذهبه وفضته في صفائح من تنك خبأها في مكان ما حتى يعود، أو يجدها أخوه عمران أو ابنه سميح. وسرت حمى البحث عن كنز رفيع في الخب، فمن قائل أنه خبأه في «نفود سميح»، ومن قائل أنه في حظار حايط السماوي، ومن قائل أنه في حايط رفيع، الذي ما اشتراه إلا لهذا الغرض. وبعد سفر رفيع، أخذ الكثيرون يتسللون إلى حايط رفيع، ويبحثون في كل مكان. حتى أن بعضهم أخذ يتسلل إلى البيت في غياب عمران، ويأخذون في البحث عن بقعة مبنية حديثاً في جدران البيت، لعل الذهب والفضة يكونان في مخبأ سري وراءها. وأخذ البعض يقول أن رفيعاً ظهر له في الحلم، وأبلغه عن مكان الكنز. بل إن بعضهم أقسم أنه رأى رفيعاً نفسه يحوم حول الحايط، وهو يحمل سيفاً حاداً يبرق في الظلام، حتى إذا ما اقترب منه، رفع رفيع السيف، ثم لا تلبث نار أن تخرج منه، وتحجز رفيعاً وحايطه عن بقية الخب. وبدأ البعض يراقبون عمران وعلياء، لعلهم يعرفون شيئاً ويذهبون إلى مكان الكنز. وعندما يئس الجميع في النهاية من العثور على كنز رفيع، عادوا إلى حياتهم المعتادة، وما زالوا يفكرون بالكنز، ويمنّون النفس باكتشافه ذات يوم. وقد أكد البعض أنهم وجدوا الكنز، ولكن «حيايا» وعقارب وثعابين مختلفة الألوان كانت تقف بالمرصاد. كثرت الحكايات، وكثرت الأسباب، ولكن رفيعاً وذهبه تحولا إلى سبحانية تضاف إلى سبحانيات الخب...

ـ عز الله إنك صدقت يا عم... فأنا أتذكر ذلك، فقد كنت آنذاك في الحادية عشرة من العمر تقريباً، وكنا نشعر بالحركة غير العادية في الخب، كم كنا نستغرب إلى أين يذهب سميح...

وهز أبو عثمان رأسه موافقاً، وهو ينفخ على لقمة من المرقوق

الساخن، ويقول وهو يحاول ابتلاعها:

- يقول البعض أن سميحاً كان يعود وهو يحمل برحياً طازجاً لأمه في غير موسمه، ولا أحد يعلم من أين يأتي به... بل إن البعض قال أنه رآه يأكل لحماً مشوياً فوق أحد الطعوس القريبة من حسو ابن سويد، بينما أكد البعض أنه حسو جميعان...

- ألم أقل لك إن أكثر ما يقال عن سميح مجرد كلام... وش جاب حسو ابن سويد إلى حسو جميعان؟...

وأخذ أبو عثمان يبحث عن القفر في المرقوق ويقول:

- لحم مشوي؟.. ما قلنا شيء، يمكن... ولكن بدون أن تكون حوله أية نار؟

وعندما كانوا يسألونه من أين له بهذا، كان يبتسم ويمضي في طريقه... هل تعلم يا جابر؟... نحن نعيش ما نريد أن نعيش... هكذا سمعت سميح يقول ذات مرة...

ثم وهو يلقي قطعة من القفر الحار في جوفه:

- المهم... كله كلام... لم أر شيئاً من ذلك، رغم وجودي في الخب بين فينة وأُخرى. صحيح أن سميح كان شخصاً غريب الأطوار، ولكن أن تأكل لحماً مشوياً من دون نار؟.. وفي حسو ابن سويد وحوس جميعان؟ هذا ما لا يمكن أن يصدق... لا، وبرحي طازج في الشتاء؟... المهم... أصبح لقب الذاهل ملازماً لسميح، حتى أن الجميع نسوا لقب السماوي، مثلما نسوا لقب المتوكل، لقب جده عبد الرحمن، وكأن سميحاً لم يعد سماوياً كأسلافه.

وذات يوم، وبعد انتهاء الحرب بين الدولة والإنجليز بعدة أشهر، وقبل ذبحة سعود بن عبد العزيز بن متعب في حايل بعدة أشهر، غاب سميح إحدى غيباته، ولكنه لم يعد حتى هذه اللحظة، ولا أحد يدري أين

ذهب. سمعه البعض في أحد أحاديثه القليلة يقول إنه يريد البحث عن أبيه رفيع وجده عايش السماوي، كما أكدت أمه أنه كان كثير الحديث عنهما عندما كان يبيت في الحظار أحياناً، ولكنها لم تتوقع أن يذهب هكذا من دون رجعة. لقد كانت تخطط لتزويجه من بنت عمه هيلة الجعفري، لعله يستقر ويشوف حاله، ولكنه كان رافضاً لفكرة الزواج، رغم حب ابنة عمه له، ورغم جمالها الذي دفع الكثير من شباب الخب إلى خطبتها حتى قبل أن تبلغ مبلغ النساء. لقد كان سميح منتهى أمل نساء الخب، ولكنه كان عازفاً عن النساء... مثل محاكيك، وإن لم يكن منتهى أمل أي امرأة..

وضحك أبو عثمان وهو يقول ذلك، ثم فرك يده بسفرة قش السعف الجافة، ومسح يديه ببعضهما البعض وهو يشمهما بتلذذ، وتناول قطعة سديف صغيرة باقية، وفرك يديه وفمه بها، ثم ألقى بها في فمه وهو يقول: «أنعم الله عليك يا جابر، وكثر الله خيرك... سفرة عامرة إن شاء الله»، ثم تناول مسواكه وأخذ يستاك بقوة وهو يهم بالنهوض استعداداً لصلاة المغرب، وقد بدأ صوت شويش يعم أرجاء الخب.

٦

كان سميح الذاهل يشكل لغزاً لجابر السدرة. فهو لن ينسى حادثة رآها بنفسه عندما كان في الحادية عشرة من العمر، وسميح في الخامسة عشرة، ولن ينساها ما دام النفس يتردد في صدره. كان يلعب مع بعض أقرانه حول القليب في الحايط، وكان سميح يجلس بعيداً في ظل سكرية كعادته، وهو ينظر ويبتسم، من دون أن يرى شيئاً، ومن دون أن يكون في المكان، وقد تحوت عيناه الواسعتان إلى صفاء ثابت لا يتغير. وفجأة سقط أحد الأولاد في القليب وأخذ يصرخ، فانطلق الجميع إلى طلب النجدة، إلا جابر الذي بقي منتظراً لسبب لا يدريه، وسميحاً الذي بقي مبتسماً وهو ينظر إلى القليب من بعيد. وقبل أن يأتي أحد، خلع سميح ثوبه، وبقي في سروال أبيض ناصع، وقد انتشر شعره على كتفيه، وقفز من دون مقدمات

في القليب. صرخ جابر، ولكن ما هي إلا لحظات حتى كان سميح صاعداً من أعماق القليب، وكأنه يرتقي درجاً غير مرئي، وهو يحمل على كتفيه ولداً مغمى عليه وضعه بجانب الحايط، ثم نظر إلى جابر وابتسم، وعاد إلى حيث كان ولبس ثوبه، وكان سرواله لا يزال ناصع البياض، وقد تحول كل شعره إلى اللون الفضي. وعندما جاءت النجدة، كان كل شي قد تم بسلام. قص عليهم جابر ما رأى، ولكنهم وصفوه بالخبل، إذ كيف يقفز أحدهم إلى القليب، ثم يصعد من دون مساعدة أحد، ويبقى سرواله ناصع البياض، وسميح ما زال مبتسماً في مكانه تحت السكرية. لم يكن حالماً، فقد رأى ما رأى، ولكن سميحاً لا يريد أن يقول شيئاً، والناس لا يصدقونه، وملابس سميح لا تريد أن تقول شيئاً. ولكن كيف تم إنقاذ الفتى؟ وجدوا حبلاً طويلاً يمتد إلى أعماق القليب، وكان الفتى ممسكاً بطرفه عندما عادوا ووجدوه مغمياً عليه عند طرف القليب. فقالوا لا بد أنه أمسك بالحبل وصعد ثم أغمي عليه من الإعياء. ولما سألوا الفتى، قال أنه لا يذكر شيئاً، منذ السقوط في البئر حتى الاستفاقة لاحقاً، ففسروا الأمر بأنه إرادة الله، ونسيان الفتى لكل ما جرى نتيجة الصدمة. سأل جابر سميحاً بعد ذلك عن الحادثة، ولكن سميحاً لا يريد أن يقول شيئاً، يبتسم ويمضي في طريقه... ولكنه متأكد مما رأى...

وفي ليلة من ليالي القمر، كان جابر غير قادر على النوم، فذهب إلى النفود الكبير لعله يستنشق بعض هواء يريحه. وفي ضوء القمر من بعيد، رأى سميحاً وليس عليه إلا سرواله الأبيض، ومن حوله بعض غرانيق بيض وخضر تحوم حوله، وهو يحدثها ويبتسم كعادته. أخذه المنظر، وبقي يراقب، ثم قرر الإقدام. وعندما وصل إلى حيث المكان، لم يجد سميحاً ولا الغرانيق... أو قد جن؟.. لا، فبعد لحظات، كانت يد غريبة تضع راحتها على قلبه وتقول بصوت غير مسموع: «لا تضطرب... فقد رأيت ما رأيت...»، وغاب الصوت وبقي الطيف، وعاد جابر بحيرته.

وفي ليلة أُخرى، وكان القمر بدراً يرسل فضياته على رمال في غاية

النقاء، أحس جابر، وهو بين النوم واليقظة، بيد تربت على كتفه، وصوت كأنه قادم من بعيد يقول: «هل تريد أن ترتاح من عناء المكان والزمان؟» ونظر جابر حوله، فلم ير إلا شعراً فضياً يضم المكان، فالتف بالشعر، ولم يعد يشعر بشيء. وكانت دقائق، فإذا به سابح في فضاء ليس من المكان ولا في الزمان، ثم وجد نفسه على النفود مرة أخرى والقمر لا يزال مكانه، ووجه سميح يحتل صفحته وهو مبتسم كعادته... هل كان يتخيل؟.. ربما... لا.. إنه متأكد من أن سميحاً لم يكن خيالاً على الإطلاق...

وشغلت حكاية سميح جابراً عن كل شيء حوله. فلم يعد يذهب إلى الحايط ويراعي فلاحته، وهو الذي كان أنشط فلاح في الحايط، رغم تأنيب أبيه، ولوم أخوته. أصبح المسجد والنفود ساعة الغروب ألذ ما يمكن أن يحصل عليه في يومه. أين ذهب سميح، ولماذا لا يعود؟ وخلال انفراده بنفسه، أخذ يسترجع كثيراً من أقوال سميح القليلة التي لم يكن يدرك معناها آنذاك. ذات مرة استطاع الصبية أن يصطادوا عدداً كبيراً من طيور القميري المهاجرة، وكانوا يتصايحون وهم يشوونها ويأكلونها بما حوت. وفجأت أطل عليهم سميح، وقال وهو واقف على رؤوسهم: «بئس حياة لا تكون إلا بأكل الحياة»، ثم مضى في طريقه وهو يبتسم. فتوقف الجميع عن ازدراد الطيور، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم ببلاهة، ثم عادوا إلى صخبهم وازدراد الطيور. نسي جابر هذه الحكاية، حتى بدأ يفكر بسميح بعد غيابه.

وذات مرة في عيد أضحى، كان نفر من أهل الخب قد تجمعوا بعد الصلاة على قعود يذبحونه، وهم يضحكون بسرور، وقد منّوا النفوس القرمة ذلك اليوم بحميس كثير، وقفر وفير للأيام التالية. وفجأة برز سميح من حيث لا يدري أحد، ونظر إلى القعود المذبوح وقال: «لو لم يكن قعوداً لما ذبحتموه»، وغادر إلى حيث لا أحد يهتم، وتغامز الجميع وهم يقولون: «صحيح خبل... أكيد لو لم يكن قعوداً لما ذبحناه... هل يريدنا أن نذبحه هو؟..»، وضج الجميع بالضحك، وعادوا إلى تقطيع القعود، وقد تحلّب ريقهم. وعندما جاءت أنباء الركبان بفتح ابن سعود للأحساء والقطيف، قال

أهل الخب بفرح: «عز الله شبعنا تمراً..»، ولكن سميحاً في المسجد قال: «عز الله انفتحت أبواب جهنم..»، ولم يهتم أحد بما قال سميح، الذي عاد إلى موسى وفتاه في سورة القصص، وهو لا يهتم بأحد. وذات مرة كاد أهل الخب أن يفتكوا بسميح، رغم تقديرهم له. فقد كان الشيخ فوزان يحدثهم في أمسية رمضانية في المسجد عن خلق آدم وعصيان إبليس، وكان سميح يجلس عند باب المسجد وهو يعبث بعصا باتت لا تفارقه في الأيام الأخيرة، برمل يحاول أن يكون مثل لون شعر رأسه. وقال الشيخ فوزان أن إبليس يمثل قمة الكفر والعصيان، وجاء صوت كالهمس من بعيد يقول: «بل إنه قمة الطاعة والعبادة». ونظر الجميع إلى سميح، وقد تبدى الشرر في عيونهم، ولكنه ألقى عصاه ومضى. قالوا إنه خبل، وقالوا إنه سليل مطلق وعايش، وقالوا يتيم لا يدري ما يقول. ولكن جابراً لا ينسى ما قال سميح، وإن لم يفهم... ولولا كونه من السماوات، وأخواله من الثنايا، لفتكوا به تلك اللحظة، أو شكوه لابن جلوي... ولكنه يبقى سميح الذاهل. أحداث كثيرة، وأقوال كثيرة يتذكرها جابر وكأنه لم يعشها أو يسمعها، ولكن آفة الإنسان النسيان...

سفر الأولين

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قال أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِين. قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم. ثم لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِين. وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين. فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَة إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِين. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِين. فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِين. قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُون﴾.

(القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيات: ١١ ـ ٢٥).

١

قرر جابر أن يغادر الخب. إنه يريد البحث عن سميح الذاهل. دافع قوي في داخله يدفعه إلى ذلك، وصوت غير مسموع يدعوه إلى البحث عنه. ولكن أبا عثمان لم ينصح له بذلك في مثل الظروف المحيطة. فالغارات والغزوات بين قبائل شمال نجد وقبائل بادية العراق مستمرة. وابن صباح في الكويت بدأ يشك في نيات عبد العزيز بعد وقعتي حمض والجهراء، وأخذ يثير له المتاعب، رغم الود الظاهر بينهما. والشريف حسين في مكة، وابنه عبد الله يثيران قبائل نجد وحواضرها على عبد العزيز بعد وقعة تربة، ويدعوانها إلى نقض العهد بينها وبينه، ويحاولان إقامة تحالف ضده بعد سقوط ابن رشيد، ودخول حايل وإمارة شمر في سلطان عبد العزيز، «والظاهر أن الشريف صاير مثل العنز اللي تحفر عن سكينها، فعبد العزيز لن يتركه حتى يدخل مكة مثل ما دخل حايل.. يحسب أن الإنجليز بينفعونه دايماً، مثل ما حسب ابن رشيد أن الدولة بتحميه.. والله لولا الإنجليز، لما توقف عبد العزيز بعد هزيمة عبد الله في تربة إلا في جدة...»، قال أبو عثمان ذلك، وهو السعودي المتحمس، وينظر إلى الأفق البعيد وكأنه يستقرئ الغيب، ثم نظر إلى جابر وهو يقول: «الإنجليز يا وليدي يتعاملون مع الناس مثل الحذيان... الحذاء الصالح يلبسونه حتى يخرب، والحذاء التالف يرمونه.. والشريف اليوم مثل الحذوة الخربانة عند الإنجليز... ما شفت وش سووا بفيصل في الشام، وإلاّ غدرهم بأهل فلسطين...»، ثم وهو يضحك: «يحسب الشريف أنهم بيخلونه خليفة على المسلمين بصحيح.. لعب عليه لورانس.. الخلافة يا وليدي راحت مع روحة الدولة..» ولكن جابراً كان مصمماً على المغادرة، رغم نصح أبي عثمان ووالده وإخوته، وتكرارهم القول بأن الغربة كربة. لم يبين لهم سبب رحلته، بل قال إنه عازم على التغريب مع عقيل من أجل الرزق والفرجة على بلاد الله الواسعة، فلم يجد الجميع إلا الدعاء له وتمني السلامة.

وغادر جابر وهو لا يدري إلى أين يذهب، فسميح يمكن أن يكون

في أي مكان وكل مكان. فكر في الذهاب مع العقيلات إلى الشام أو العراق، فهو لا يبحث عن تجارة أو نزهة بقدر ما هو يبحث عن سميح. وقلبه يحدثه أن سميحاً يمكن أن يكون في الحجاز، ولكنه لا يستطيع الذهاب إلى هناك في الظروف القائمة، حتى مع عقيل الذي منعهم عبد العزيز من التجارة مع الحجاز كنوع من المقاطعة والحصار الاقتصادي، منذ أمره إلى الأمير فهد بن معمر في بريدة قبل مدة. فقرر الذهاب إلى العارض، إلى الرياض، مركز السلطان عبد العزيز، ومن هناك يفرجها الكريم. لم يكن لديه خطة معينة، بل ترك خطاه للمقادير تأخذه كيف شاءت، إذ قد يكون في ذلك الطريق إلى سميح الذاهل.

ودخلت القافلة التي تضم جابراً إلى الرياض من «دروازة» الثميري، البوابة الشرقية للرياض، وأكبر بواباتها الخمس، التي تقود مباشرة إلى الديرة و«الصفاة» حيث قصر الحكم ومقر عبد العزيز، وذلك في السور الذي بناه عبد العزيز حولها بعد الاستيلاء عليها مكان السور القديم الذي هدمه ابن رشيد عندما استولى على الرياض. كانت الرياض عندما وصلها جابر في حالة هرج ومرج شديدين. فقد وصلت الأمور بين الشريف وعبد العزيز إلى نقطة عدم القدرة على التفاهم، وأخذ الإخوان وأهل نجد يضغطون على عبد العزيز مطالبين إياه بالسماح لهم بالحج ولو بالقوة، بعد أن منعهم الشريف من الحج منذ خمس سنين. وقال لهم عبد العزيز: «ما ادخرت جهداً لحل ما بيننا وبين الحجاز بالتي هي أحسن، ولكن الحسين كلما دنوت منه تباعد». واعتبر أهل نجد والإخوان ذلك إذناً من عبد العزيز بالمسير إلى الحجاز، وإلحاق الشريف بمصير ابن رشيد وابن عايض وابن عثمان في الآستانة.

لم تعجب الرياض جابراً كثيراً، فقد كانت أصغر من بريدة، وأكثر حرارة وجفافاً. وليس فيها من الزرع ما يشابه مزروعات خبوب بريدة. وحتى مسجدها، فهو أصغر من مسجد بريدة الكبير ومئذنته المربعة. ولكن الرياض اليوم أصبحت مركز ابن سعود سيد نجد القوي، ومركز نجد كلها. وأحس بالحنين إلى القصيم ونفوده، ولكنه كتم حنينه وقرر المضي في البحث

عن سميح. فلقاء سميح ليس بالأمر السهل، وإلا بقي في خبه وانتظره. لا بد من المعاناة والصبر، وسيكون سميحاً آخر المطاف.

لم يكن لجابر أقارب في الرياض، وهو لا يريد أن يفرض نفسه ضيفاً على أحد، ولذلك قصد الجامع الكبير بجوار قصر عبد العزيز والحكم، كي يقضي فيه أيامه التي لا يدري كيف ستكون ولا كم ستطول في الرياض. كما أن الجامع هو المكان الوحيد الذي قد يلتقي فيه بسميح، إن كان موجوداً في الرياض. فمثل سميح لا يمكن أن تلقاه إلا في جامع أو برية لا حدود لها، فجدران البيوت تخنقه، وأنفاس الحشود تقتله. وكانت «المناخة» أمام قصر الإمام عبد العزيز، وكذلك الجامع الكبير، مكتظة بكل الأجناس من بادية وحاضرة وإخوان، وخاصة البادية التي اشتمت ريح الغزو من جديد، فأخذت تتجمع في عاصمة ابن سعود. كان الجامع مكتظاً بالعلماء وطلبة العلم والمطاوعة من كل الأجناس والأصقاع، بالإضافة إلى بعض البدو والكثير من الإخوان. اختار جابر مكاناً قصياً في الجامع، متخذاً منه منزلاً ومستراحاً، وواضعاً فيه خرجه الذي يحمل حاجياته البسيطة التي لا تتجاوز بعض «اليبيس» والأقط طعاماً، وهو لا يدري بما قد تأتي به الأيام. كان ينهض مع الفجر، فيصلّي مع المصلين، ويتناول شيئاً مما معه من تمر، ثم يخرج من المسجد ويأخذ في تفرس الوجوه. وكان كثيراً ما يُدعى إلى القهوة من جماعات كانت تتحلق حول المسجد، فيقبل الدعوة مسروراً، ويشبع من التمر الذي بين أيديهم. لم يكن تمر الرياض بجودة تمرهم في القصيم، ولكنه كان مسروراً به. ولم يكن جابر شاذاً في ذوقه، ولكنه كان كأي «قصيمي» لا يعجبه إلا القصيم وما به، رغم كل جوع القصيم وأوبئته.

ولم تطل إقامة جابر كثيراً في الرياض، إذ بعد ثلاثة أيام من قدومه، جاوره في صلاة الفجر رجل أربعيني تبدو من ملابسه وسماته ملامح الإخوان. فقد كان يعتم بعمة بيضاء ضخمة، على شماغ أحمر قديم، ويحمل بيده عصاً من الشوحط، وقد تحزم ببيت الخرطوش. سلم عليه الرجل بعد

الصلاة، وقال من دون مقدمات: «الأخ حضري والا بدوي؟.. شكلك يقول إنك حضري..»، فقال جابر أنه حضري من القصيم. فلما سمع الرجل اسم القصيم، قال: «عز الله إنها بلاد من طاع الله... من أي القبايل أنت؟»، «من تميم... من وهبة تميم»، قال جابر. وضحك الرجل وقال: «أيه... من ضيع أصله قال أنا من تميم...»، واستشاط جابر غضباً، إلا أنه أمسك نفسه، بينما كان الرجل ينظر إليه وهو يمسح لحيته الطويلة المخضبة بالحناء ويقول: «أجل دام أنك ابن أجاويد، ورا ما تجاهد معنا في سبيل الله؟». ولم يدرك جابر ما يرمي إليه الرجل، فقد جاء باحثاً عن سميح الذاهل، وهو لا يفكر بهدف غيره، ولا يهمه غيره. ولكنه قال: «معكم!... ومن أنتم؟..»، «حنا!»، قال الرجل باندهاش: «حنا خيالة التوحيد، إخوان من طاع الله، وحرب على من عاداه»، «الإخوان يعني؟»، قالِ جابر وهِو يعرف ذلك، «نعم... إن راد الله». وأخذ جابر يفكر.. ولِمَ لا؟... لِمَ لا يكون هذا البدوي المتحمس وسيلة من وسائل القدر بعث بهاَ إليه لتسهيِل لقائه بسميح؟ فابتسم وهو ينظر إلى الرجلِ أمامه ويقول: «وإلى أين الجهاد هذه المرة؟». فمسح الرجل على لحيته مرة أُخرى وهو يقول بحماسة: «إلى بيت الله... إلى مكة التي منعنا عنها الكافر اللي يقول إنه ابن رسول الله، وهو يمنع المسلمين من حج البيت». البيت العتيق... أخذ جابر يفكر... لا بد أن سميحاً هناك، فعاشق المساجد لا بد أن يعشق أعظمها... هذا البدوي مرسل من القدر للالتقاء بسميح... هذا مؤكد، فقلبه يحدثه بأن سميحاً في مكة، وهو الذي جعله يفكر بالذهاب إلى الحجاز أولاً، وها هو القدر يبعث إليه من ينقله إلى الحجاز رغم الخصام والحصار. ونهض جابر بكل حماسة وهو يقول: «عز الله أنك نطقت بالحق... ولكن ليس لديّ ذلول ولا بارودة ولا زاد...»، فمسح الرجل على لحيته من جديد وهو يقول: «ما عليك... من حب الله حبه وحبيناه... وحنا كلنا إخوان إن أراد الله... وكّل أمرك لله...». وانطلق الرجل إلى حيث قصر الإمام وتجمع الإخوان بثيابهم البيضاء، وجابر فيِ إثره، وصورة سميح تحتل كل خياله... فربما آن الأوان للاجتماع به مرة أُخرى...

٢

توطدت العلاقة بين جابر وصاحبه الجديد، جهجاه بن قعدان الغويثي، وهما في الطريق إلى تربة للانضمام إلى جيوش الجهاد، واستعداداً للزحف إلى الحجاز. وقد تشارك الاثنان في الركوب على ذلول جهجاه، الذي حصل لجابر على بندقية «أم أصبع» إنجليزية قديمة. لم يعجب عقال جابر جهجاه، فهو من علامات الجاهلية، فطلب منه التخلص منه والتعمم، طالما أنه أصبح من الإخوان، فلم يتردد جابر بتنفيذ طلبه، فالمسألة لا تستاهل برأيه، ما دام سميح هو نهاية الطريق، فألقى بالعقال جانباً وتعمم. وعرف جابر من صديقه الجديد أنه من قبيلة الغويثات الشهيرة، وأنه كان كافراً قبل أن يهديه الله إلى الإسلام وينضم إلى الإخوان. فقد كان يعيش على الغزو والنهب والسلب، وكان فارساً مشهوراً في هذا المجال. ولما وصلهم مطاوعة دعوة التوحيد ونبذ الجاهلية، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وباع كل ما كان يملك من حلال، ولم يبق معه إلا ذلول وبارودة، واستقر في الأرطاوية، وهي من أوائل الهجر التي أقامها الإمام عبد العزيز لاستقرار البادية وهجرها لمظاهر الجاهلية. ومنذ ذلك اليوم، وهو مجاهد في سبيل الله، ثم في سبيل الإمام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور. ورغم الخشونة التي كانت تميز جهجاه في تعاملاته وحركاته وسكناته، فإنه كان ينشج بالبكاء، ويسيل دمعه مدراراً عندما يقرأ القرآن، أو يتهجد في آخر الليل. واكتشف جابر في صاحبه قلباً رقيقاً، رغم الجفاء الظاهر، فقد حدثه كثيراً عن حبه لابنة عمه عفراء، وقال فيها قصيداً كثيراً قبل الإسلام، ولكن عمه عندما عرف بهذا الحب، زوّجها من غريب من قبيلة بعيدة الموقع. ولكنه وجد في النهاية في الله والجهاد في سبيله غاية المراد، مغانم الدنيا وجنة الآخرة، وعسى الله يجمعه بعفراء في الجنة. لقد كان في الماضي يغزو من أجل الدنيا، ومصيره النار في الآخرة عندما يموت. ولكنه اليوم يجاهد في سبيل الله، فيغنم من مغانم الدنيا، وهو في الجنة إن مات. وأراد جابر أن يحدثه عن سميح، الذي كان يتراءى له مثل البرق في كل ركن من

أركان الصحراء المترامية وهم في طريقهم إلى تربة، ولكنه أمسك عن ذلك، وبقي يناجي سميحاً وحده قبيل الصبح وبعد المغيب.

وسار جابر وجهجاه من تربة، في جيش يقارب الثلاثة آلاف مقاتل، بقيادة سلطان بن بجاد، والشريف خالد بن لؤي، فاجتازوا جبل حضن بين نجد والحجاز، وعسكروا في الحوية بالقرب من الطائف. ولم يلبثوا طويلاً، حتى خرج إليهم من الطائف، الجيش الهاشمي بقيادة صبري باشا العزاوي، وكيل حربية الملك حسين نفسه. ودارت المعركة بين الطرفين، وصيحات الإخوان تملأ الأفئدة بالرعب: «هبت هبوب الجنة، وينك يا باغيها...»، «إياك نعبد وإياك نستعين»، «لا إله إلا الله»، وقد أقبلوا على المعركة وهم يطلبون الموت طلب من لا يحب الحياة. وما هي إلا فترة وجيزة، وانهزم جيش الحسين، ولجأ إلى المرتفعات القريبة من الطائف، وأخذ يطلق نيران مدافعه من بُعد وهو محاصر تماماً. وبعد أن كادت المعركة تنتهي، أقبل الأمير علي، الابن الأكبر للملك حسين، من مكة بنجدة كبيرة، وعسكر في هدة هذيل بالقرب من الطائف. وبعد معارك طاحنة، انهزم الجيش الهاشمي، واقتحم السعوديون الطائف التي أصبحت مدينة مباحة.

كان جابر مأخوذاً بكل ما شاهد. فلم يكن السعوديون بقوة الهاشميين، ولكنهم انتصروا. ولأول مرة يرى صاحبه جهجاه يضحك، وهو يراه يبقر بطن أحد المقاتلين بسيفه رغم وجود البندقية... وطاف ظل سميح بالمكان، وكان جابر يراه وقد غادرت الابتسامة وجهه وهو يقول: «لا تجتمع بداوة ودين... لا تجتمع بداوة ودين... وإن اجتمعا، كان على آدم السلام». وعندما دخلوا الطائف، استغرب تصرفات جهجاه ولم يستطع فهمها. فرغم كل التقوى والقلب المترع بحب عفراء، وكل ذلك النشيج الذي كان يسمعه في الأسحار، كان يرى جهجاهاً وهو يدخل بيتاً ويقتل صاحبه دون أن يرف له جفن. وكاد جابر أن يضحك عندما أمسك جابر وبعض الإخوان برجل وأرادوا قطع رأسه بالسيف، فأخذ الرجل يبكي، فقال جهجاه: «عز الله إنك كافر، تبكي خوف من جهنم»، فقال الرجل:

«لا والله، ولكني أبكي على أيامي التي أضعتها في الكفر، بعد أن تبين لي الحق»، فأوقف جهجاه القتل وهو يقول: «من اليوم أنت منا وفينا». ثم شاهد جابر جهجاجاً يدخل بيتاً ويحرق كل محتوياته من الكتب والأثاث الفاخر، ويبقي على بعض كتب التفسير والفقه وهو يقول: «صدق الرسول الكريم: كالحمار يحمل أسفاراً...»، ثم يأخذ الإناث سبايا ويقتل الغلمان، ويتجه إلى القبلة ويصلي بعمق ودموع حارة... وعندما ناقشه في ذلك، قال له جهجاه: «ما أرق قلوبكم يا الحضران... هؤلاء كفرة، وقد استولينا عليهم بالقوة، فهم لنا... ما تعرف الشرع؟... ألا تعرف سيرة الرسول مع اليهود والنصارى؟.. الله يجيرنا وإياك من النار... استغفر ربك.. استغفر»، «عليه الصلاة والسلام...»، قال جابر، «ولكنهم ليسوا يهوداً، كما أن الرسول لم يتعامل مع أهل مكة حين الفتح بهذا الشكل، وهم من المشركين... هذا ليس شرعاً، إنه شيء آخر لا أفهمه...»؛ «استغفر ربك... لا تكفر... بل هم أشد كفراً من اليهود والنصارى والمجوس...»، قال جهجاه، «اليهود ضد الإسلام منذ الأزل، هذول هم المغضوب عليهم... والنصارى ما اقتنعوا، وهذول هم الضالين... أما هذول... أما هذول، فهم ضد الإسلام لأنهم يقولون به ولا يفعلون... ألا تعرف دينك؟..» لم يكن جابر مقتنعاً بما يجري، ولكنه غير مهتم، فهو لم يأت هنا ليجادل أو يجاهد، بل هو يبحث عن سميح، فأخذ يهز رأسه وهو يردد: «معك حق.. معك حق... استغفر الله العظيم»، وفي رأسه تدور كلمة لسميح قالها وهو لا يذكر شيئاً، ولكنه يذكرها الآن: «عندما ترى أحدهم مهووساً بالحق، مبالغاً فيه، فاعلم أن الحق ليس معه، أو أنه يخفي كل الباطل...». ويذكر أنه استهزأ به في تلك اللحظة، ويقرصه قلبه كلما فكر في ذلك، ولكن سميحاً قص عليه سبحانية متداولة، لم يدرك معناها آنذاك، سوى أنها سبحانية من سباحين الشبان والعجائز والرضعان.

قال سميح: «يقال أنه كان في ماضي الأيام، حين كان البِر موجوداً بين الناس، فتى وأمه. وكان الفتى باراً بأمه لا يرفض لها طلباً ولا يعصي لها أمراً. وكانت أمه امرأة تقية ورعة يُضرب بها المثل في الورع والتقى. وكانا

يعيشان في منزل كبير ورثاه عن والد الفتى، وكان أمام المنزل سدرة كبيرة يتفيأ الناس ظلالها، وتبيت العصافير بين أغصانها في المساء. وذات يوم طلبت الأم من ولدها أن يقطع السدرة، فاستغرب الأمر لما يعلمه من ورع أمه وحبها لما يسعد الناس. فقالت له أمه أنها كانت تتوضأ ذات مرة، فلاحظت أن أحد العصافير الذكور ينظر إلى فرجها، فأصبحت لا تستطيع الوضوء مع وجود ذكور العصافير التي تبيت على السدرة. فلم يكن من الفتى إلا أن قطع الشجرة، وتفرق الناس الذين كانوا يتفيأونها. وبعد مدة من قطع السدرة، عاد الفتى ذات يوم إلى المنزل مبكراً على غير عادته، فإذا هو يسمع صوت ضحكات في داخل المنزل. استغرب الأمر، فأمه لا تضحك عادة، فتسلل حتى شاهد ما صدمه... لقد شاهد أمه ورجلاً غريباً في المنزل يتضاحكان ويتمازحان، وهما يتغازلان بمجون. لم يستطع تحمل الصدمة، بعد أن عرف سر أمه وطلبها قطع السدرة التي كانت تمنع العشيق من الحضور إلى المنزل بأمان، ففر من المدينة كلها». لم يهتم جابر آنذاك بالقصة ومغزاها، ولكنه سأل سميحاً من أين يأتي بهذه القصص والسباحين،فكان رده ابتسامة واسعة، وهو ينهض متوكئاً على عصاه وهو يقول: «يأتيني بها غرنوق أبيض فوق ذلك الطعس من الرمال، عندما يكون القمر بدراً، والنسيم عليلاً»، ثم يغادر ويختفي بسرعة غريبة.

لم يلبث جابر وجهجاه في الطائف كثيراً، فقد اتجهوا إلى مكة لفتحها، وجهجاه يقول: «هزمنا ثقيفاً وهوازن، ولم يبق إلا قريش... قوم صناديد كفرة ليس لهم إلا الحافر وصنع الكافر». كان جهجاه سعيداً جداً وهم يتجهون إلى مكة، ممنياً النفس بالغنائم إن بقي حياً، وبالجنة وحور العين إن مات. ولكنه فقد سعادته بشكل كامل حين جاءت أوامر الإمام بدخول مكة سلماً ومن دون سلاح، فقد استسلم أهل مكة بعد أن جاءتهم الأنباء بما حدث في الطائف. وكانت الأنباء تبالغ في وصف ما حدث في الطائف، وأخذت الشائعات تنتشر عن مدى الموت والرعب الذي نشره الإخوان في احتلالهم للطائف. فرغم أن جميع القتلى في الطائف لم يتجاوزوا الثلاثمئة

قتيل، إلا أن الشائعات جعلتهم أضعافاً مضاعفة. ورغم أن الهاشميين كانوا وراء هذه الشائعات، إلا أن السعوديين كانوا مسرورين وراضين عن أثرها السياسي والعسكري. وبدأ الشك يتسرب إلى نفس جهجاه في مقاصد الإمام عبد العزيز، وإن لم يشك في إمامته. فقد أخذ يبرطم معظم الوقت وهو يحدث نفسه بصوت مسموع: «ولماذا يمنعنا الإمام من حمل السلاح على الكفرة؟ هل هو إمام طالب دين، أم سلطان طالب دنيا؟ لا. . . . عبد العزيز لا يمكن أن يكون إلا إماماً، ولكن لعله يرى ما لا نرى، وإلا كيف يكون إماماً؟». وارتاح جهجاه إلى هذا التفسير، ودخل الجميع مكة بملابس الإحرام، وطافوا بالبيت، وسعوا بين الصفا والمروة، وإن كانوا غير مقتنعين بالدخول إلى مكة سلماً، في الوقت الذي كانت الأعين المرعوبة في مكة تراقبهم من وراء الأبواب وخصاص النوافذ، وهي تضع أيديها على قلوبها. ولم يهدأ روع أهل مكة إلا عندما وصل الإمام نفسه إلى مكة، وألقى خطاباً أمن بعده الناس، ولكنه أثار الشك في نفوس الإخوان عن نيات عبد العزيز، وخاصة بعد أن عين الإمام ابنه محمداً أميراً على مدينة الرسول بعد فتحها، وكان ابن دويش هو صاحبها الذي يراه الإخوان.

٣

لم يجد جابر مبرراً للمكوث في الحجاز بعد دخول السعوديين إلى جدة، وخروج الملك علي، آخر الهاشميين في الحجاز. فهو في الحقيقة غير مكترث بما يدور، ولا يهمه عبد العزيز أو الشريف أو سلطان الدين، كما أخذ ابن بجاد يطلق على نفسه، ولا الإخوان برمتهم. لقد ترك خب السماوي ورمال نجد باحثاً عن سميح الذاهل، الذي كان ملك يمينه ذات يوم، ولكنه لم يكن يدرك قيمة ما كان يملك. كان يأمل أن يرى سميحاً معتكفاً بجانب البيت العتيق، أو مصلياً في الحجر، أو حتى متسكعاً على الثرى الذي سار عليه سيد الخلق أجمعين، ولكنه لم ير إلا التجار والمحاربين، وسميح لم يكن تاجراً ولا محارباً، ولا يمكن أن يكون. وأصبح صاحبه جهجاه لا يطاق، فقد أصبح عصبياً أكثر من اللازم، لا يتحدث إلا عن

عبد العزيز وخيانته لهم. لقد وعدهم بالأرض وما عليها، وها هو اليوم يمنعهم من أشياء كثيرة كان يحضهم على فعلها في الماضي، وكان يردد كثيراً: «من خدعنا بالله، انخدعنا له...». وأخذ جهجاه يكثر من الاجتماع بإخوان يأتون من كل مكان، ويتحدثون عن كفريات الإمام. فقد سمح بالبرق ولم يقاتل الرافضة ومنعهم من غزو العراق والكويت. فإن كان أهل العراق والكويت من المسلمين، فلماذا نحاربهم؟ وإن كانوا من الكفار، فلماذا نعاديهم؟ ويتحدثون عن تلك الصلبان التي أخذت تحتل صدر الإمام، مقدمة من بريطانيا وأهل الكفر، وذاك الكافر «فيلبي» الذي لا يكاد يفارق الإمام. وأخذوا يتحدثون عن الجزية التي يجب أن تفرض على الكفار في جدة، ولكن عبد العزيز لا يوافقهم. وأثناء هذه المناقشات كلها، كانت أسماء سلطان بن بجاد، وفيصل الدويش، وضيدان بن حثلين تتردد كثيراً بين الإخوان.

قرر جابر العودة إلى الخب، فلعل سميحاً قد عاد، أو ترك خبراً أين يكون. كما أنه اشتاق إلى رمال نجد ونفود القصيم، وبالذات نفود سميح الذي غاب عنه كثيراً. وفي الطريق إلى القصيم، عرج على مدينة الرسول، وكانت خالية من الإخوان، على عكس مكة وجدة. أحس براحة غريبة في هذه المدينة التي يراها لأول مرة، وكأنه قد عاش بها طوال حياته. واتجه إلى المسجد النبوي ناوياً قضاء يوم أو يومين فيه قبل أن يجد قافلة ينضم إليها في الطريق إلى القصيم. وذات ليلة حدث حادث غريب... صلى العشاء في الروضة الشريفة، ثم جلس قليلاً يسبّح ويقرأ القرآن، وعينه على القبور الثلاثة. وفجأة وجد نفسه وقد عاد إلى المدينة أيام كانت يثرباً. ها هو بلال يدعو الناس إلى الصلاة، وها هو الرسول يخرج من حجرة عائشة متجهاً إلى مسجده، فينضم إليه أبو بكر عن يمين، وعمر عن شمال، ويسير علي خلف الجميع، بينما عثمان يقرأ القرآن وينظر إلى الجميع. أخذ الجميع في الصلاة والتسبيح. وفجأة تبدأ بقعة فضية نقية كالدائرة تحتوي الجميع بشكل كامل، ما عدا عثمان الذي كان نصفه في الدائرة، والنصف الآخر في ظلام

دامس. ونظر الرسول إلى عثمان وقال له بصوت لا يمكن أن ينساه جابر: «يا أبا عفان، لما لا تجر نفسك إلينا؟» وحاول عثمان. وقفز جابر يريد سحب عثمان إلى الدائرة، ولكنه يحس بيد باردة على كتفه تمنعه من ذلك. ينظر إلى الخلف، فيرى سميحاً وهو يهز رأسه ويبتسم وهو يقول: «لا علاقة لك بهؤلاء... كن مع أولئك...»، وهو يشير بيده إلى الشرق، ويضيف: «فأولئك هم هؤلاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون...». أحس جابر كأنه يُحشى بالثلج من داخله، وأصابته رعدة شديدة، ولكنه قال: «ولكن هؤلاء هم نحن...»، فقال سميح وهو لا يزال يبتسم: «نعم... ولكنك من الشرق، وفي الشرق يسطع النور وفي الغرب يكتمل... عندي يلتقي الشرق والغرب، النور والظلام، فهل تريد أن تضيعني اليوم كما ضيعتني بالأمس؟..» أفاق جابر مفزوعاً، ونظر إلى القبور الثلاثة، فهيىء له أنه يرى سميحاً وهو يهز رأسه، وكانت دائرة النور الفضية تعم المكان... وكأنها مجرد انعكاس لخصلة سميح المستديرة...

٤

عندما وصل جابر إلى الخب، كانت هناك أنباء مثيرة في انتظاره. فقد عاد رفيع السماوي في أثناء غيابه، ولكنه لم يلبث إلا عدة أشهر ومات بعد أن علم بوفاة أمه علياء بعد رحيله بفترة وجيزة حزناً عليه، واختفاء ابنه سميح، ووفاة الشيخ إبراهيم الذي كان يعطف عليه ويرعاه. وخلال الأشهر التي قضاها رفيع في الخب لا يغادره بعد عودته، كان لا حديث له إلا أمه علياء وكيف تركها تحت الرمال في تلك الليلة من ليالي الصيف قبل أكثر من عقد من الزمان. ومما زاد في حالته سوءاً، ذهاب ابنه سميح إلى حيث لا أحد يعلم، وتطليق زوجته حصة الثنايا منه في أثناء غيابه، ووفاة الشيخ إبراهيم الذي كان يغدق عليه من العطف الشيء الكثير منذ أن كان طفلاً عندما غاب أبوه عايش، وحتى مغادرته الخب. كان يقضي يومه منذ أن عاد بين الحايط الذي ماتت نخلاته، والذي اشتراه عندما عاد في المرة الأخيرة،

أو على النفود الذي أصبح يعرف باسم «نفود سميح». وفي الآونة الأخيرة كان يقضي كل وقته على النفود، يقول القصيد الذي يجرح القلب، ويبكي حتى يغمى عليه ثم يفيق ويعود إلى البكاء والقصيد من جديد. ولولا أن أخاه عمران، وابنة أخيه، هيلة الجعفرية، كانا يرعيانه، ويأتيان له بما يسد الرمق ويطفئ الظمأ، لمات من الجوع والعطش من دون أن يدري به أحد، ومن دون أن يدري هو بنفسه، حتى وجدوه ذات صباح وقد لفظ أنفاسه الأخيرة على النفود، ويده قابضة على حفنة من الرمل، وكانت فرسه «الصقلاوية» واقفة عند رأسه وهي تتشممه وقد ابتلت عيناها. وقالت هيلة، التي كانت أول من اكتشف موته، أنها عندما جاءته بـ «القدوع»، وجدت إلى جانبه ثلاثة غرانيق ناصعة البياض، أحدها يقف عند رأسه، وآخر عند قدميه، والثالث يرفرف فوق جسده. ووجدت بجانبه قطعة قماش بيضاء جديدة ناعمة الملمس، ومن بعيد هيىء لها أنها رأت ابن عمها سميحاً وهو يبتعد متوكئاً على عصاه. اتهم أهل الخب هيلة بالجنون، ولكنهم لم يستطيعوا تفسيراً لوجود تلك القطعة من القماش بجوار رفيع. ولكنهم في النهاية قالوا إن رفيعاً عندما أحس بدنو الأجل، حضر كفنه من قماش أتى به من العراق أو الشام. فدفنوه في قبر بالقرب من قبر أمه، وحاولوا النسيان. ولكن هيلة ما زالت مصرة على حكاية الغرانيق وسميح الذي رأته من بعيد.

ـ خب ناكر للجميل فعلاً... حتى عيال عمه إبراهيم، فوزان وسلمان قاطعوه، وهم من هم في الورع والتقوى، وهجره أبناء عمه عبد الرحمن... دنيا ما لها أمان...

قال أبو عثمان، وهو يحدث جابر الذي كان في أشد الشوق لمعرفة حكاية عودة رفيع:

ـ نسوا الذهب الذي أنفقه عليهم، ونسوا أنه من سلالة علي أعظم من أنجبهم الخب، بل المؤسس الفعلي للخب، وأبي سميح، أرق من أنجبهم الخب، وابن علياء الشوذرية، شاعرة الخب وأجمل فتاة عرفها زمانها... لم

يذكروا إلا أنه ابن عايش الداشر. . . رحم الله الشيخ إبراهيم، لو كان حياً لما حدث شيء من ذلك. . .

ثم وهو يأخذ نَفَساً عميقاً وينظر إلى الأفق:

ـ أيه. . . ولكن ماذا نقول. . . لم تعد الدنيا هي الدنيا، منذ أن ذهبت بركتها بذهاب المباركين فيها. . .

ثم أخذ أبو عثمان ينكش الرمال بعصاه وينظر إلى جابر، ثم ينظر إلى الرمال وهو ينكشها من جديد. . وأحس جابر بأن أبا عثمان يريد أن يقول شيئاً، فبقي منتظراً على أحر من الجمر وهو ينظر إلى عينيه مباشرة من دون أن يقول شيئاً، منتظراً أن يتحدث أبو عثمان. وطال الوقت، وأخذت أعصاب جابر تحترق، فمن الواضح أن لدى أبي عثمان كلاماً خطيراً لا يستطيع الاحتفاظ به لنفسه، فالسر يحرق صاحبه مثل النار في الأعماق تماماً. وأخيراً لم يستطع جابر صبراً، فقال بهدوء ظاهر، بينما النار تأكله من الداخل:

ـ رحم الله رفيعاً. . . لقد عاش مقهوراً ومات مقهوراً، عوضه بالجنة إن شاء الله. . .

وكأن هذه الكلمات كانت الشرارة التي أطلقت المخزون الذي يحرق أبا عثمان، إذ قال بصوت كأنه قادم من أعماق بركان على وشك الانفجار:

ـ وكل القهر في ما قاله لي رفيع قبل أن يموت. . .

وفتح جابر عينيه على اتساعهما، واستعد لتلقي سر كان واضحاً أنه يحرق أبا عثمان، وهو غير قادر على الاحتفاظ به كثيراً.

ـ خيراً؟. . خيراً إن شاء الله. . . وماذا قال؟. . .

وتلفت أبو عثمان يميناً وشمالاً، وأدنى رأسه من رأس جابر وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

ـ في الليلة التي توفي فيها رفيع، ذهبت كي أسمر معه وأسري عنه في تلك الليلة المقمرة من ليالي الربيع، فقد كنت أحس بأن هناك شيئاً سيحدث منذ رأيت فرسه قبلها بليلة وهي تضرب الأرض برجلها، وتمتنع من أكل عليقها، فوجدته يبكي وينشد:

هل الهلال وهامل الدمع مدرار   لاهل واهل ما طره كالهلل هل
علي مود مالك الله ولا صار   لارام له حال ولا المال له حال

ثم ينخرط في البكاء من جديد، ولا يلبث أن يتأوه بشدة وهو ينشد لابن مسعر:

يا ونة ونيتها يا ابن نصار   ماونها مثلي خلوج ابن رومي
كنى من الفرقا على كير بيطار   شبويه ارطا والستاد مهموم
صدري كما نجر زغول وجضار   نفسه على مهواه نفس محموم
من عقب ماني قلب صرت كنبار   وسبحان من له في عبيده حكوم
يا وينهم ربعي هل الكيف والكار   اللي عليهم دارجات علومي

وعندما سكن الليل، وبدا كأن الصفا والسكينة حلاً بالكون كله، قال لي رفيع: «شف يا أبو عثمان... ما عاد لي خاطر بهالدنيا، بعد ما صارت الدنيا مهيب الدنيا... وين علياء وين سميح وين إبراهيم، وين الخب اللي نعرف... لا أظن أني سأعيش طويلاً في هذه الدنيا الفانية، ولا عاد لي خاطر في العيش. ولكن قبل أن أموت، لدي سر يحرقني أريد أن أفضي به إليك، فأنت الوحيد الذي يمكن أن يؤتمن على هذا السر»، «خير يا أبو سميح... سرك في بير...»، «هذا هو العشم يا أبو عثمان، هذا هو العشم»، ثم صمت لفترة، ونظر إليّ بعينين خلتهما عينيّ سميح العميقتين لوهلة قبل أن يقول: «لقد وجدت عايشاً واجتمعت به...».

وشهق جابر، واتسعت عيناه إلى الآخر وهو يقول: «عايش؟... عايش ما غيره؟.. الذي فر من الخب قبل أكثر من أربعين عاماً؟ أين؟ وكيف؟..».

ـ نعم عايش ما غيره... ولكن دعني أكمل القصة...

قال أبو عثمان:

ـ أخبرني أنه التقاه في الكويت، وقد غيّر اسمه ولقبه، الذي أصبح مهاجر الخبي، وقد تزوج هناك وأنجب ولداً سماه غريباً...

ـ ولماذا لم يطلب منه العودة؟

ـ قال لي أنه طلب منه ذلك، ولكنه رفض، إذ ليس في الخب ما يمكن أن يغريه بالعودة، ولا في القصيم كلها أو نجد. فهو كان يعيش في خير الشيوخ، ولديه عائلة الآن...

ـ وماذا بشأن رفيع وعلياء؟.. أليسا من عائلته؟..

ـ سألت رفيعاً عن ذلك، فقال أنه لم يكن يعلم أن له ولداً هو رفيع، كما أن علياء لا بد أن تتزوج من هو أفضل منه بعد حكايته مع العاهرة والفضيحة... كان كلامه يبدو معقولاً ومقبولاً، ولكن الأهم هو السر الذي أفضى به إلى رفيع...

وصمت أبو عثمان للحظات قبل أن يواصل:

ـ قال رفيع أن عايشاً أخبره أنه ليس ابن مطلق السماوي كما قيل حين جاء من الوادي إلى الخب أول مرة، ولكنه ابن الشيخ إبراهيم من جارية سوداء كان يملكها الشيخ اسمها عنبرة، أهداها إليه أمير بريدة، وكانت ضمن هدايا أرسلها ابن رشيد للأمير... عنبرة، إني أتذكرها تماماً...

قال أبو عثمان وهو ينظر بعيداً:

ـ كنت صغيراً أيامها، وكنا ومجموعة من الأطفال ننتظر قرب حايط السماوات بعد العصر حتى تأتي عنبرة لتخبز القرصان وأحياناً المراصيع والمصابيب للشيخ إبراهيم، فنسرق بعضه ونحن نتضاحك على لغة عنبرة المكسرة. ولكن عنبرة اختفت بعد فترة، وقال الناس أن الشيخ باعها...

ولكنه في الحقيقة لم يبعها، فقد حملت من الشيخ، فذهب بها إلى أقصى الوادي، وفتح لها بيتاً، وكان يزورها وابنها باستمرار...

وضحك أبو عثمان باقتضاب وهو يقول:

ـ الآن عرفنا سر سفرات الشيخ المفاجئة التي لم يكن يخبر بها أحداً... المهم... توفيت عنبرة بعد ستة عشر عاماً من ولادة عايش، فاضطر الشيخ إلى جلب ابنه عايش، بعد أن طلب منه الانتساب إلى أخيه مطلق الهارب وليس إليه...

ـ ولكن ماذا لو ظهر مطلق الهارب فجأة وأنكر عايشاً؟...

ـ سألت رفيعاً السؤال نفسه، فقال أن أباه إبراهيم أخبر عايشاً أن مطلقاً قد مات. فعندما هرب، زبن إحدى القبائل، ومات في غزوة قام بها مع القبيلة. علم الشيخ إبراهيم بذلك من شيخ القبيلة نفسه، عندما جمعهما مجلس أمير بريدة في إحدى المناسبات، ولكنه أبقى الأمر سراً حتى عن أخيهما عبد الرحمن، وبقي مطلق هارباً حتى هذه اللحظة...

وابتسم أبو عثمان، ثم قال:

ـ نعم... هارب من الدنيا بأسرها...

ـ ولكن لماذا يفعل الشيخ ذلك؟...

قال جابر:

ـ فهو لم يقترف حراماً، فله الحق في وطء ما ملكت اليمين، وعنبرة كانت من ملك اليمين؟..

ـ هذا صحيح...

قال أبو عثمان:

ـ ولكنك لا تعرف السماوات، ولا تعرف الخب... فإن تطأ ملك اليمين غير أن تنجب منه. صفاء العرق، ونسب الأخوال أهم شيء لديهم.

ورغم ورع الشيخ إبراهيم، وإيمانه بأن لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وأنّا كلنا من آدم، وآدم من تراب، إلا أنه لم يستطع تغيير عادات وتقاليد أسرته وقومه... والحقيقة أن العِرق دساس كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم... ألا ترى كيف كان شكل عايش وأخلاقه؟.. لا ريب أن أخواله المجهولين أورثوه الأخلاق مع السحنة والشكل...

- ولكن مطلقاً كان مارداً وشريراً، وهو سليل علي وإبراهيم الأول؟..

قال جابر، بينما صمت أبو عثمان، ثم نظر إلى جابر وهو يبتسم ويقول:

- عز الله أنك بالحق نطقت.. ولكن ليس بالحق تسير الأمور دائماً... على أية حال، عايش لم يكن ابناً لمطلق، كما كنا نعرف، وكما ربينا على ذلك...

- سبحان الله، إذن سميح ابن إبراهيم ومن نسل عنبرة الجارية، ولا علاقة له بابن ثنايا الأمير الغادر، أو بمطلق المارد الجبار؟

- هذا صحيح...

- أي أن مطلقاً ليس له نسل على الإطلاق؟...

- نعم...

- والثنايا ليسوا أخوال عايش ورفيع؟...

- قلنا لك هذا صحيح...

- وهل كان هناك أحد يدري بالسر غير الشيخ إبراهيم وعايش؟..

- قال لي رفيع أن الشيخ عبد الرحمن علم لاحقاً، عندما جاء عايش إلى الخب، أبلغه أخوه بعد أن رأى شدة معارضته لإلحاق عايش بنسب السماوات..

- وهل يعلم أبناء الشيخ إبراهيم أو أبناء الشيخ عبد الرحمن بالسر؟..

ـ كلا. . . مات كل من يعرف السر، وأنا الوحيد الذي يعرفه اليوم، وأنت الآن. . .

ـ ولكنهم يجب أن يعرفوا. . . أليس كذلك؟. . المسألة مسألة أنساب ومواريث. . .

ـ لم يطلب مني رفيع شيئاً من ذلك، ولن أفعل ما لم يفعله الشيخان إبراهيم وعبد الرحمن، وما لم يفعله عايش أو رفيع. ولكن السر كان كاتماً على قلبي فكان يجب أن يعرفه أحد قبل أن أموت، وأنا كما ترى شايب طايح. . .

ـ عطاك الله طولة العمر يا أبا عثمان. . .

ـ ومن قال، ولكن الدنيا لم تعد هي الدنيا كما قال رفيع. . .

وصمت أبو عثمان لبرهة، ثم قال:

ـ ولكن لم يكن هذا هو السر الوحيد الذي أفضى به رفيع إليّ. . .

وجحظت عينا جابر من جديد، بينما واصل أبو عثمان حديثه:

ـ قال لي رفيع أن عايشاً أخبره أنه استولد العاهرة التي فر معها، وأقام معها فترة بين الأحساء والبحرين. ولكنه عندما قرر الذهاب إلى الكويت، رفضت وقالت أنها ملت الغربة وتريد العودة إلى ديارها. حاول عايش إقناعها بعقوبة عودتها، ولكنها أصرت وعادت بطفلها. . .

ـ تبي الصراحة يا أبو عثمان. . . أنا أحتقر هذا الرجل، أعني عايشاً. . . يترك طفله، وقبل ذلك يهجر زوجه وجنينه. . .

ـ خل قلبك أبيض يا جابر. . . ترى «الطنزة تلحق»، و«الطنزة مد اليد» مثل ما يقولون. هي خطى كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطى مشاها. . . أو كما قال الأقدمون: «لا تسخرن من شيء فيحور بك»، أو كما قال رسول الله: «من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله». لا أحد

يدري ماذا تريد الأقدار ولا إلى أين تسير، الحكمة عند صاحب الحكمة، وما نحن إلا مخلوقات ضعيفة...

ـ بس عفن الما، ولا عفن الرجال...

ـ قلت لك... خل قلبك أبيض...

ونظر جابر إلى الأفق وهو يقول:

ـ وهل علم عايش بمقتل العاهرة؟..

ـ أخبره رفيع بذلك، بعد أن طلب منه إبلاغه باسم العاهرة وأسرتها، ولكن عايشاً رفض، فاضطر رفيع أن يخبره بمقتلها وضياع الطفل. وهنا أخبره عايش بالاسم الذي كان مفاجأة، فقد كانت بنت أسرة معروفة، وحمولة عريقة ومشهورة...

ـ يا سبحان الله... أيكون لسميح عم من السفاح... نغل؟!..

ـ تلك إرادة صاحب الإرادة...

ـ وما اسم العاهرة وأسرتها؟..

وبعد تردد، قال أبو عثمان:

ـ والله لولا السن وخوف الموت، لما قلت لك عن الاسم إطلاقاً... كان اسمها طرفة... طرفة النفودية...

وأخذ أبو عثمان نَفَساً عميقاً بعد أن أزاح العبء عن كاهله، بينما كان جابر في غاية الدهشة، فقدكان الاسم لواحدة من أكبر الأُسر وأشهرها وأثراها في القصيم وسائر بلاد نجد. فلماذا تزني واحدة من بناتها؟.. وقطع أبو عثمان تفكير جابر واندهاشه وهو يقول:

ـ هل عرفت الآن القهر الذي كان يحمله رفيع عندما عاد؟.. فلم يعد هو هو، وفقد كل شيء.. لقد عاد بالذهب والنسب ذات مرة، وها هو اليوم بلا فرنسي ولا مجيدي أو عصملي، ولا حتى نسب يعتد به... مجرد

ابن عايش الذي غيَّر اسمه. وأخذ أهل الخب «يتطنزون» عليه في الروحة والجية وهم يقولون: «راح يجي بالما وجاء عطشان»، ما يدرون أن الرزق وهيبة، ما هوب نهيبة.. رحمك الله يا رفيع، لقد مات مقهوراً، ولكن أصفى من الذهب السايح...

- ولكن لماذا عاد إلى خب الأسرار هذا؟..

- سألته السؤال ذاته، فقال على أمل رؤية سميح، وطلب الغفران من علياء، كما أن الدنيا على سعتها أصبحت ضيقة بالنسبة إليه، فليس له في النهاية إلا أن يعود ليموت في الخب... فمنه خرج وإليه يعود...

- سالفة ولا في الخيال...

- نعم.. فكثيراً ما يكون الخيال أشد غرابة من الواقع... وما أدراك، فربما كانت حياتنا كلها خيالاً في خيال... وعلى أية حال، هل في خبنا غير الخيال؟..

وأخذ جابر يهز رأسه وهو يفكر، بينما عاد أبو عثمان إلى نكث الأرض بعصاه...

٥

يكاد رأس جابر ينفجر... في الأيام القليلة الماضية عرف من الأسرار ما لم يكن يتوقع وجوده في خب مثل خبهم. سميح من نسل عنبرة السوداء؟.. عنبرة التي لا يدري أحد من أين جاءت، ولا كيف خلقت، ولماذا خلقت؟.. شيء ولا في الخيال أو في أضغاث الأحلام. ولكن لِمَ العجب؟ ألم يكن الرسول ابن هاجر الجارية المصرية؟ أوَ ليس عيسى بدون أب؟.. ألم يكن آدم من الطين وهو الذي سجدت له ملائكة النور؟.. وطافت في ذهنه كلمات أبي عثمان: «خطى كتبت علينا...» بل طافت بذهنه كلمات لسميح كأنه يتذكرها لأول مرة: «عندما يطول الأمد بالطين، يصبح صلصالاً. وعندما يطول الأمد باللحم يصبح أنتاناً...» ماذا كان

يقصد سميح بقوله ذاك؟.. وهل كان يعرف السر؟.. لا بد أنه كان يعرف، فمثله لا يخفى عليه شيء. أشياء كثيرة كانت تطوف بخياله، فكان يكثر من الذهاب إلى أبي عثمان، وقد تزود بالتمر واللبن والزبدة، والحديث معه طوال الوقت. وفي أيام البدر الزاهية، كان يذهب إلى قبري رفيع وعلياء، ويجلس ساهماً، ثم يصعد إلى نفود سميح، ويجلس وهو يراقب القمر حتى يموت تحت العرش، قبل أن يستأذن الرحمن في العودة ثانية. وفي ليلة من تلك الليالي الزاهية، كان يراقب القمر وهو يكبر ويكبر استعداداً للنهاية، فلم يحس إلا ويد تربت على كتفه. أحس بالفزع، ولكن برودة ضافية اخترقت كل جوانحه، وفجأة وجد سميحاً بوجهه المشرق يجلس قبالته تماماً، وعلى كتفه الأيمن غرنوق أبيض، وعلى الأيسر غرنوق أسود، وكانا في غاية الهدوء وكأنهما يقفان على سارية ثابتة. سأله جابر: «أين أنت؟..»، فقال: «أنا في كل مكان...»، «ولكني لا أجدك..»، «من بحث عني وجدني»، «هل صحيح أن أمك هي عنبرة؟..»، «كل رحم طيب هو رحمي...»، «وهل عايش هو أبوك؟..»، «بدون الماء، فالنار تحرق. وبدون النار فالماء يغرق...»، «وماذا بشأن رفيع؟..»، «عاش ومات، ويعيشون فيموتون...»، «وهل تحب هيلة؟..»، «من لا يحب، لا يُحب..»، «أنا أتحدث عن هيلة...»، «وأنا أتحدث عنها أيضاً...»، «وماذا بشأن الخب؟..» «أنت كثير الأسئلة... لا تسأل كثيراً، فلديك الجواب، إبحث عنه في أعماقك ولكنك تتهرب...»، «كيف؟...»، ولكن سميحاً نهض بسرعة، وغاب في وجه القمر. وعندما أفاق جابر في صبيحة اليوم التالي على حرارة الشمس الساطعة، هيىء له أنها تبتسم لأول مرة في حياته، وكانت رائحة كدهن العود تنتشر في خياشيمه...

٦

قرر جابر أن يسافر من جديد ويبحث عن سميح، فقد عاد الصوت غير المسموع إلى الصراخ في داخله. ولكن والده منعه من ذلك وطلب منه الزواج. لم يكن راغباً في الزواج، فقد كان يريد البحث عن سميح، وذلك

لا يكون إلا بالسير على طريقته في الوجود في كل مكان، والزواج يقيده إلى مكان بعينه وهو لا يريد ذلك. وكان مصمماً على رفض إرادة والده مهما كانت التضحيات، حتى لو خاصم والده وأمه. ولكن أحداثاً جعلته يتريث ريثما يتبين أثرها. فقد جاءت الأنباء بأن فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن حثلين قد اجتمعوا في الأرطاوية، بعد العودة من الحجاز خالي الوفاض مما كانوا يأملونه من إمارة يستحقونها لجهادهم، ووزع عبد العزيز الإمارة على أولاده والمقربين إليه من الحضر، فأصبحوا على رأي المثل «شخب طفح، لا بيدي ولا بالقدح»، أو «شيء ترجيه، ولا شيء تاكله». وأعلنوا بين قبائلهم أن عبد العزيز لم يعد إماماً للمسلمين، بل هو طالب ملك وسلطان. كما أنهم نقموا عليه أموراً اعتبروها مخالفة للدين: السيارات والطيارات واللاسلكي، والمكوس، ومنع الجهاد، وعدم إرغام الشيعة في الأحساء والقطيف على الدخول في الدين، والمعاهدات التي يعقدها عبد العزيز مع الكفار من الإفرنج، والسماح لعشائر شرق الأردن والعراق بالرعي في مراعي المسلمين، وقد ألغى الشرع وأخذ يطبق القانون. وتعاهد الثلاثة على محاربة الكفر والشرك الذي أخذ يتفشى، وبدأت غيوم الحرب تتجمع في الأفق من جديد، بعد أن كان الاعتقاد أن حرب الحجاز هي آخر الحروب، ولن يكون بعدها إلا «سهود ومهود، والعدو مقرود»، كما كان يردد أبو عثمان بعد أصبح عبد العزيز ملكاً على الحجاز.

ـ هل يحرم الإسلام هذه الأشياء التي يقول عنها الإخوان حقيقة يا أبا عثمان؟..

قال جابر السدرة وهو يسأل أبا عثمان، بعد أن فرغا من صلاة العصر ولبثا في المسجد. ضحك أبو عثمان وقال:

ـ لا تكن ساذجاً يا بني، المسألة لا علاقة لها بإسلام أو غيره...

وعاد أبو عثمان إلى مصحفه، ولكن جابراً لا يتركه:

ـ لم أفهم...

وأقفل أبو عثمان المصحف، وتركه جانباً وهو يقول:

- وهل الذين قتلوا عثمان بن عفان أو علياً بن أبي طالب كانوا مدفوعين بالدين والحمية له كما كانوا يقولون؟..

- لا أدري... بس كلام الإخوان لا بد أن يكون صادراً عن علم... أم أنا مخطئ؟..

وضحك أبو عثمان وهو يقول:

- كلام مليح، لو هو صحيح... القضية ليست قضية دين، بل هو السلطان والملك... كلا الاثنين، عبد العزيز والإخوان، دينيون، ولكنهم يبحثون عن السلطة والملك في الدنيا أيضاً... ولكن باحثاً عن باحث يفرق، فالدنيا تبي والآخرة تبي... ومثل ما يقول المثل: «دخانها ولا هبوب شمالها»، ومثل ما يقولون في العراق: «الدخان اللي يعمي، ولا البرد اللي يقمي»... والإخوان هبة شمال يا وليدي، دخان عبد العزيز أرحم منها...

-.....

- مع عبد العزيز يجيء الاستقرار، ومع الإخوان نعود لما كنا عليه... ليكن عبد العزيز ملكاً، ولكن لنا أن نأمن أنفسنا... ومثل ما يقولون: «شبر من ذنب الخروف، ولا بوع من ذنب البقرة»...

وتحجرت عينا جابر، فهذا الرجل يعرف كل شيء مثل سميح، ولكنه أوضح من تلميحات سميح:

- شف يا وليدي... الإخوان يخافون السيارة والطيارة واللاسلكي، ومعاهدات عبد العزيز مع الأجانب... إنها تعني قوة له وضعفاً لهم، وإلا كيف تفسر استخدامهم البواريد والفشق التي هي من صنع الكافر؟..

-...

ـ وهم يخافون قفل باب الجهاد لأنه يجعلهم لا في العير ولا النفير، بعد أن طارت الطيور بأرزاقها... طول ما هنا حرب، فلهم أهمية، وإذا انتهت الحرب، انتهوا معها... لا تحسبهم مجرد بدو جهلة... طارت منهم إمارة الطايف وإمارة المدينة، فبماذا تنفعهم إمارة الأرطاوية أو الغطغط؟..

ـ تعني أنهم لا يؤمنون بما كانوا يفعلون؟..

ـ كلا... فهم مخلصون فعلاً، ولكن مثل ما الدين يبي، فالدنيا تبي أيضاً... وابن آدم مثل ما هو من روح الله، فهو من الطين أيضاً... هل فهمت ما أعني؟

ـ نعم... نعم...

ـ والمكوس دعم مالي لعبد العزيز، وهم لا يريدون ذلك... ألا ترى كيف أن ابن بجاد لا يمانع في دعوته بالسلطان؟.. وهم لا يعرفون عبد العزيز مثل ما يعرفهم... غرهم أن عبد العزيز مثل الدهنا، بعيدة الما قريبة الثرى... وما نقول إلا الله يستر...

٧

عندما عُقد مؤتمر الرياض ومؤتمر بريدة، تصور الجميع أن الأمور بين عبد العزيز والإخوان في طريقها إلى الوئام والاستقرار، هكذا ظن أبو عثمان. ولكن يبدو أن الأمور كانت تسير نحو الأسوأ. فقد أرسل الدويش ابن عم له على رأس جماعة من الإخوان، وهجموا على المخفر الذي أقامته حكومة العراق على ماء بصية على الحدود النجدية العراقية، وتوترت العلاقات بين الإنجليز والملك فيصل من جهة، وبين عبد العزيز من جهة أُخرى، وهذا بالضبط ما كان يسعى إليه الدويش. فقد كان يريد إحراج عبد العزيز أمام الإخوان، وإظهاره بمظهر الضعيف، بالإضافة إلى توتير علاقاته مع الإنجليز وحكومة العراق. غير أن حكومة العراق اعتقدت أن هذه خطة من عبد العزيز لجس النبض، ورد فعل الحكومة العراقية. فإن صمتت،

توالى الهجوم على المخافر، وإن سارعت إلى عمل مضاد، توقف الهجوم. ولكن عبد العزيز سارع وأعلن أن الدويش متمرد، وحذر حكومة العراق والمندوب السامي البريطاني في بغداد من تهوره، وأعلن أن قواته تطارد الدويش.

وعادت طبول الحرب تقرع في نجد من جديد. فعبد العزيز لا يمكن أن يفرط بما حقق طوال هذه السنين، والحضر غير مستعدين للتنازل عن الاستقرار الذي بدأت ملامحه تتضح مع نهاية فتح الحجاز، في الوقت الذي كان أكثر البدو غير مستعدين لاستقرار يحرمهم لقمة العيش، ويتحولون إلى مجرد فلاحين في هجر معزولة، تحت رحمة حكومة تعطيهم الأرزاق متى شاءت، وتسل عليهم السيف متى شاءت، وهم الذين ما اعتادوا سلطاناً غير سلطان أنفسهم. صحيح أن عبد العزيز يعطيهم في أوقات السلم ما يحتاجون، وفي أوقات الحرب لهم المغانم، ولكنهم لا يستطيعون العيش بعد قفل باب الجهاد، إلا أن يتحولوا إلى مجرد «حضران»، وذاك من المسبة والعار. ولم يكن عبد العزيز راغباً في ضرب الدويش حقيقة، فالإخوان ما زالوا العمود الفقري لقواته، والدويش ما زال مهاباً ومحترماً عند الإخوان، الذين لا يرون في ما فعله إلا ضرباً من ضروب الجهاد. كما أن عبد العزيز كان يخشى من تفاقم الأمر فيما لو ضرب الدويش، ولجأ هو وأنصاره إلى بادية العراق، واستغلت الحكومة العراقية والإنجليز ذلك لإحراجه والضغط عليه. أمام جميع هذه التطورات التي لم تكن في البال، حاول عبد العزيز لم الموضوع، فدعا إلى عقد الجمعية العمومية في مؤتمر في الرياض، وحضر جميع زعماء الإخوان، ما عدا الدويش الذي أناب ابنه عبد العزيز، واعتذر بالهرم وكبر السن. ولم يكن أبو عثمان يستطيع مقاومة الإغراء في الذهاب إلى العارض، وحضور الجمعية العمومية.

وخلال هذه الفترة، عرف جابر السكينة والهدوء لأول مرة في حياته. فقد تزوج هيلة، فمن يحب سميحاً لا بد أن يحبه جابر. وبنى له أبوه وإخوته غرفة جديدة في بيت السدرة الكبير. وعرف جابر كل أنواع السعادة

مع هيلة. فعلى كل جمالها، كانت لا تتحدث إلا عن سميح ابن عمها. لم يشعر جابر بأي غيرة من حديثها، فمثل سميح لا يغار منه، بل يغار عليه، وقد جاءه سميح في ليلة الزفاف، وقال له مبتسماً: «عشت وعشعشت، ومليت العش فريخات...»، فأحس أن سميحاً راض عنه. وهذا ما أحسه جابر في أول أيام الزواج. فقد اكتشف أن هيلة تعرف عن سميح أكثر مما يعرف، وأنها آخر من رآه عندما اكتشفت موت رفيع. كان يجلس وإياها كثيراً على نفود سميح، وفي بعض الليالي يذهبان إلى قبري علياء ورفيع، ويبكيان معاً.

وعندما عاد أبو عثمان من العارض، كانت هيلة قد حملت. لم يهتم جابر كثيراً بحمل هيلة، فقد أسرع إلى أبي عثمان يستطلع منه الأخبار:

ـ الإخوان مهوب ناوين على خير... والظاهر أن الشق أوسع من الرقعة...

قال أبو عثمان:

ـ تنازل عبد العزيز عن الحكم في المؤتمر، ولكن جموع الحضر والفقهاء بايعته، فلم يجد الإخوان بدأ من مبايعته والبراءة من فيصل الدويش، حتى عزيز بن فيصل كان من المبايعين والمتبرئين... ولكن كأني أرى عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري من جديد... عادت أيام التحكيم، فهل يكون عبد العزيز علياً أو معاوية؟.. نجد مقبلة على الحرب من جديد... خذها مني وأنا أبو عثمان...

وأخذ أبو عثمان نَفَساً عميقاً قبل أن يقول:

ـ لا أدري... فقد قال رسول الله أن الفتنة تأتي من هاهنا، وأشار إلى الشرق... فهل تكون نجد هي مقر الفتنة ومبعث قرن الشيطان؟.. أعاذنا الله... أعاذنا الله...

ـ وبارك الرسول في اليمن والشام، ولم يبارك نجداً... لماذا؟..

قال جابر، بينما كان أبو عثمان يبدو في غاية الضيق وهو يقول:

ـ لعله قصد نجد مسيلمة، لا نجدنا... المهم... الله يسوي اللي فيه الخير... قل آمين...

ـ آمين... آمين...

٨

وواصل الدويش هجومه على الحدود النجدية العراقية، حتى اعتقد العراقيون أن هذا من تدبير ابن سعود، وليس تمرداً من الدويش. وهجم ابن بجاد على قافلة لابن شريدة في القصيم، واستولى على ما فيها من بضائع، وقتل رجالها، وأرسل سرية إلى الشمال بقيادة فرحان بن مشهور، قامت بالهجوم على سرية لابن جلوي، وقتلت معظم رجالها، ثم نادى ابن بجاد ببغي من لا ينضم إلى الحركة من أهل نجد. وثارت ثائرة أهل العارض والقصيم، وأرسلوا المراسيل إلى عبد العزيز، ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، الذي استشاط غضباً، وأحس أن كل مشروعه في كف عفريت. فقد أصبح الإخوان شوكة في الحلق، أو على رأي المثل: «عصفور طويه: يالله هاته، يالله رده». لقد أمسكه الدويش من يده التي تؤلمه، فمشروع عبد العزيز قائم على تحقيق الأمن والاستقرار، وها هو الدويش يتحداه في عقر شرعيته. لقد كان الهجوم على قافلة القصمان رسالة إلى عبد العزيز، يقول فيها الدويش: «حنا اللي جعلناك ملك، وحنا اللي بنرجعك للكويت مثل ما جيت منها»، ولكنه كمن قيل فيه المثل: «داواها واعماها». وكانت القصيم هي المركز الذي كان يأتي لعبد العزيز بالمال والغذاء ودعم الحضران، على رأي الدويش، لذلك كان ضربه هناك هو الأوجع.

ووصلت الأمور مداها، فأعلن عبد العزيز الزحف للقضاء على تمرد الإخوان، ودعا قواته إلى التجمع. فأخذ حضر نجد، وبوادي حرب وقحطان وسبيع وبعض عتيبة من الإخوان في التوافد والاستعداد للزحف. وخرج الجميع باتجاه القصيم، ومن هناك إلى الزلفي التي كان الإخوان

يحاولون إثارتها على عبد العزيز. ومن الزلفي، انطلق الجيش إلى جبل طويق، واستقر في «روضة السبلة»، حيث يعسكر المتمردون من الإخوان أيضاً. وانضم إلى جيش عبد العزيز أهل القصيم، الذين شعروا أن مصيرهم يعتمد على هذه المعركة. وكان أبو عثمان من أشد المتحمسين للمعركة، فقد كان يقول: «حنا يا أهل القصيم، أهل تجارة وزراعة. وهذي تبي حكم وسلطان واستقرار... المعركة معركتكم يا القصمان...». ونتيجة حماسة أبي عثمان، تحمس جابر للقتال، واشترى بندقية جديدة من سوق السلاح، وذلولاً عُمانياً من الجردة، رغم عويل هيلة التي كانت لا تريد أن يأتي مولودها إلى الدنيا وهو يتيم. ولكن جابراً كان مصمماً، وهو إذ صمم على شيء، لا يقف أي شيء في طريقه، فخرج باتجاه الزلفي في طريقه إلى روضة السبلة، وهو يحاول تبديد مخاوف زوجته: «وكّلي الله يا مره... وكّلي الله، ترى ما يشيل الراس إلا من حطها..».

عندما وصل أبو عثمان وجابر إلى الروضة، كانت تعج بالرجال والخيل والبعارين على جانبي تلك الربوة الصغيرة التي كانت تفصل بين قوات ابن سعود، وقوات الدويش وابن بجاد، أما ابن حثلين فقد كان غائباً في الأحساء. وكانت العمائم تملأ الجانب الأيمن من الربوة، فيما كانت العقل تملأ الجانب الأيسر. انضم أبو عثمان وجابر إلى الجانب الأيسر، حيث جيش السعوديين، وبات الجميع في انتظار الغد. وفي ليلة المعركة، جاء فيصل الدويش، ومعه ثمانية محاربين من مطير، إلى معسكر عبد العزيز طالباً الأمان والمفاوضات، معلناً أنه ليس على رأي ابن بجاد. واجتمع إلى الملك في خيمته لوحدهما، وأصر الملك على تقديم ابن بجاد لمحكمة شرعية، وإرجاع ما سلبه من قافلة ابن شريدة، فرأى الدويش أن يعرض الأمر على ابن بجاد. ثم صلّى مع الملك، وتعشيا معاً، بينما كان الفرسان يعرضون وينشدون لابن الفرم: «أنا أخو من طاع الله، يا ويل عدو الشريعة منا»، فنظر أحد رجال عبد العزيز إلى ابن شبلان، ابن عم الدويش وقال: «خذها يا ابن شبلان». وأراد الدويش المبيت في معسكر الملك، ولكن عبد العزيز

قال له: «قم نم عند قومك، وموعدكم غداً بعد شروق الشمس. فإن كنت صادقاً، فتنح عن الجماعة». وعاد الدويش إلى معسكره وهو يقول لأنصاره الذين سألوه عن الوضع في معسكر عبد العزيز: «ما شفت إلا حضري خايف ما معه غير طبابيخ ما يعرفون إلا النوم على الدواشق... أبشروا بالنصر يا الإخوان...»، ثم قال لابن بجاد: «عز الله أنهم مزاود بلا عُرى». والحقيقة أن الدويش كان متردداً، فرغم ما يقوله في العلن، فقد أحس بالخشية عندما رأى جميع تلك الأسلحة الحديثة في جيش عبد العزيز، وهذه الآلاف المؤلفة من الرجال. كان يفكر في الانسحاب، ولكن ابنه عبد العزيز أقنعه بالثبات، بعد أن رأى نظرات التردد في عينيّ والده، ولم يخالف الدويش لابنه أمراً.

وعندما أعلنت الشمس بداية اليوم التالي، هجمت قوات عبد العزيز على الإخوان، فانهزموا من ساعتهم. وفر ابن بجاد مع جماعة له إلى «الغطغط»، وأصيب الدويش في خاصرته، وكاد أن يسقط عن جواده، لولا أن ساعده بعض رجاله، وفروا به إلى «الأرطاوية». وكان جابر يقاتل إلى جانب أبي عثمان، ولم يكن قادراً أول الأمر على استخدام البندقية الجديدة، التي كانت تختلف عن البندقية التي استعملها في حرب الحجاز، رغم أن أبا عثمان مرنه عليها وهما في الطريق، وهو يعلق مازحاً: «عز الله إنك ما غزيت مع مهنا». ولكن التحام الفريقين جعله يتقن استخدامها بسرعة عجيبة. وبينما هو يقاتل، ويكر ويفر، وجد نفسه أمام مفاجأة لم تكن تخطر له على بال... فقد وجد نفسه وجهاً لوجه أمام جهجاه بن قعيدان الغويثي. لقد نسيه تماماً منذ أن غادر الحجاز، وها هو يقابله اليوم في ظرف ما كان يخطر له على بال. نظر الاثنان بعضهما إلى بعض لوهلة، وقد توقفا عن إطلاق النار، ثم قال جهجاه بعدها، وكأنه يفيق من حلم طويل: «يا حسافة لحمك على النار يا جابر، ما هقيت إنك تبي تصير كافر بعد ما هداك الله»، ثم صوب بندقيته إلى صدر جابر، الذي كان لا يزال مبهوتاً. وفجأة انطلقت رصاصة اخترقت صدر جهجاه، فسقط مضرجاً بدمائه وهو يتشهد

ويقول: «يا زين ريح الجنة... قولوا لأمي وعفراء تراي محتربهم هناك». كان أبو عثمان هو الذي أطلق الرصاصة التي قتلت جهجاه. فقد كان يراقب جابراً طوال الوقت، وعندما وجده مكبلاً في الوقت الذي كان جهجاه يصوب بارودته إلى صدره، أطلق النار عليه وهو يسرع الخطى إلى جابر ويقول معنفاً: «وش بك؟.. وراك وقفت مثل حمار مدلي في نهار قيظ، والرجال يبي يذبحك؟..» ولم يحر جابر جواباً، فقد كان لا يزال مبهوتاً، ثم انتبذ مكاناً قصياً وأخذ يراقب المعركة التي كانت على وشك الانتهاء من بعيد، وهو يرى سميح الذاهل يجلس على الربوة البعيدة ويبكي بحرارة، كما يبكي الصبيان، وقد انتثرت غرانيق بيض ميتة على جانبيه...

٩

لم يعد جابر وأبو عثمان إلى الخب بعد موقعة السبلة، فقد كان على أبي عثمان مرافقة الملك المنتصر، وخاصة بعد أن قابله الملك وأهداه بندقية إنجليزية جديدة، وشكره على فزعته في موقعة السبلة ومواقع أُخرى، وألح عليه في أن يكون أحد خوياه المقربين. ولكن أبا عثمان رفض بأدب وكياسة، ووعد الملك بمرافقته لفترة، وكانت نفس جابر تحدثه بأن أيام أبي عثمان في الدنيا باتت قليلة، وقرر مرافقته رغم إلحاح أبي عثمان عليه بالعودة إلى الخب، وانتظار مولوده.

وفي طريق العودة، تعرض عبد العزيز الدويش ومعه خمسون فارساً للملك وهو يقول:

ـ يا محفوظ... وين النية، وش تبي؟..

فقال له الملك:

ـ ما أبي غير الأرطاوية وغير أبوك..

فطلب عبد العزيز من الملك عدم مهاجمة الأرطاوية، في مقابل أن يحضر عزيز أباه له، ووافق الملك. وعسكر الملك في «زبدة»، بجوار

«الأرطاوية»، معقل الدويش. وفي اليوم التالي لإقامة الملك في معسكره، جيء بالدويش محمولاً على نعش، وقد أحاطت به نساؤه وأطفاله وهم يبكون، ووضع النعش بين يدي عبد العزيز، الذي غير ملابسه واغتسل حتى لا يبقى أثر للطيب في ملابسه كي لا «يستشم» الدويش. وقال الملك:

ـ هذا فعلك بيدك...

فرد الدويش بصوت واهن:

ـ يا الإمام... إن عاقبت، فبذنوبنا... وإن عفوت، فأنت أهل العفو...

فقال عبد العزيز، وهو ينظر إليه بعينين لا تحملان أي تعبير:

ـ قد عفوت...

ثم أمر بأرزاق وكسوة للدويش وأهل بيته، وسأله إلى أين يريد الذهاب، فقال الدويش أنه يريد الكويت، فكتب عبد العزيز كتاباً إلى عبد الله النفيسي، وكيله في الكويت، يوصيه به خيراً. وعندما خرجوا بالدويش من عنده عائدين إلى «الأرطاوية»، قال عبد العزيز، كما أخبر أحد جلسائه أبا عثمان:

ـ أنا ابن فيصل وأخو نورة وأبو تركي، يحسب الشايب إنه ضحك عليّ... عز الله إنك داهية يا ابن الشقحا، لكنك أرعن... حسافتك، أي والله حسافتك...

ثم وهو ينظر بعيداً:

ـ إن كان لي بصيرة، فبرأس الدويش حب ما طحن... ولكن ما نقول إلا من كان مع الله، كان الله معه، وهو الحاكم بيننا...

ثم نهض الملك، فنهض الجميع معه.

وفي «شقراء»، حيث عسكر عبد العزيز بعد أن غادر «زبدة» بثلاثة

أيام، جاءه ابن بجاد مستسلماً، وطالباً العفو والسموحة. ولكن عبد العزيز أمر بسجنه في الرياض، ثم نقله بعد ذلك إلى الأحساء تحت إمرة ابن جلوي الذي عين أميراً على الأحساء بعد تركه حايل. وواصل الملك طريقه إلى حايل عبر القصيم، حيث تزوج في طريقه فتاة من عنيزة، ثم غادر حايل إلى الحجاز. وأرسل عبد العزيز أخاه عبد الله لتعقب بعض المتمردين في أماكن مختلفة، كما أمر عبد الله بن جلوي بتأديب العجمان على الساحل الشرقي. ولكن العفو عن الدويش، ومعاقبة ابن بجاد، بقيا مسألة مؤرقة لجابر... لماذا؟ لم يستطع صبراً، فسأل أبا عثمان، الذي سأل الملك في إحدى جلساته البرية ساعة الأصيل، والتي كان يحبها كثيراً. وضحك الملك كثيراً، كما يقول أبو عثمان، عندما سأله، ولكنه لم يجب بشيء. فحاول أبو عثمان أن يجد جواباً ممكناً، فقال: «الدويش داهية نعم، ولكن ما عندك أحد... ما عنده باللحى شعر... وعلشان كذا، ينهك عليه بسهولة، وأمره هين، فليس في ذهنه هدف بعيد... أما ابن بجاد، فماكر، وأهدافه بعيدة فضحها حين لقب نفسه بسلطان الدين... وأنت تعرف يا وليدي إنه ما يجتمع سيفان بجراب واحد... ثم إن ابن بجاد من عتيبة، وهي أكبر من مطير، ولذلك أراد عبد العزيز أن يبين لهم أنه لا يهتم بعددهم فلا يغترون، بينما كان الدويش بين أهله وناسه في الأرطاوية، حيث يعسكر الملك، ولذلك أراد اتقاء شرهم». وكان تعليق جابر على جواب أبي عثمان: «عز الله أنك أنت الداهية يا عبد العزيز... اللي انتصر على الرشيد والشريف والإنجليز، مهوب عاجز عن الدويش وابن بجاد وابن حثلين...».

١٠

في جدة، سكن أبو عثمان وجابر في ملحق من ملاحق الخويا التابعة لقصر الملك، وحجوا مع الملك. وفي مكة، تذكر جابر صاحبه جهجاه، فترحم عليه وهو يحس بغصة في الحلق، فلعن الدنيا التي لا أمان لها. وبينما كان يسعى بين الصفا والمروة، لمح جابر شخصاً يقف عند «باب

السلام» وهو ينظر إليه ويبتسم: لقد كان سميحاً بلحمه ودمه. أكمل جابر أشواط السعي السبعة على عجل، وصلىً ركعتين على عجل، ثم انطلق إلى باب السلام، ولكنه لم يجد وراءه إلا الباعة والعابرين. فتش في كل مكان، ولكن سميحاً كان قد اختفى. هل كان ما رآه وهماً وطيفاً؟ كلا... لقد رأى سميحاً يبتسم، مثلما رأى الغرانيق البيض حوله ذات ليلة، ومثلما رآه ليلة القمر. سامحك الله يا سميح، أكلما نسيناك ظهرت، وكلما أردنا لقاءك اختفيت. ولكن، لا بد من سميح وإن طال السفر.

وفي جدة جاءتهم أنباء مصرع ضيدان ابن حثلين، زعيم العجمان، على يد فهد بن جلوي، ومصرع هذا الأخير على يد أحد خدامه من العجمان انتقاماً لقتلة ضيدان، وكان وقع الخبر شديداً على الملك، الذي كان في أشد حالات الحزن لفقد فهد، الذي كان قائد ميسرته في موقعة السبلة. كان ضيدان في هجرة «الصرار» على مقربة من «الأحساء»، حين اشتعلت المواجهة في السبلة. وبعد المعركة، دعاه عبد الله بن جلوي لمقابلته، ولكنه رفض. فابن جلوي كان مشهوراً بالقسوة وعدم الرحمة، لا يقارن إلا بالحجاج بن يوسف الثقفي، وتوطيده الملك لعبد الملك بن مروان، ولذلك لقبوه بجبار آل سعود. وكان ضيدان يخشى أن يقتله حجاج نجد في المقابلة، كما قُتل أبو مسلم الخراساني عندما قابل أبا جعفر المنصور، الذي منحه كل الأمان... ولكن هل يعرف السلطان الأمان؟... وأرسل ابن جلوي إليه حملة بقيادة ابنه فهد. فتقابل الاثنان، ولكنهما لم يتوصلا إلى أي اتفاق، فقتل فهد ضيداناً، بعد أن اعتقد أنه يهدده حين طلب ضيدان أن يعود إلى قومه قبل منتصف الليل، وقُتل فهد في الليلة ذاتها.

وخشي «العجمان» من انتقام ابن جلوي ـ فقد كان فهد أكبر أبناء أبي فهد، الذي تغنت به الشعراء، فرحلوا شمالاً، وهبطوا «الوفرة» بالقرب من الكويت، بقيادة زعيمهم الجديد «أبي الكلاب»، نايف بن حثلين. وأصبحت «الوفرة» مركزاً للمتمردين والمعارضين وبقايا «السبلة» وطلاب المغانم. فجاء ابن لامي من مطير، وجماعات من عتيبة وعنزة، وابن مشهور الرويلي، الذي

كان يتخذ من الجهراء مركزاً له. وضاقت «الوفرة» بهم، فقرروا مهاجمة «الجبيل» واتخاذها مركزاً لهم. كان كل شيء ميسراً، إلا أن «العوازم» وقفوا لهم بالمرصاد، وهم آخر من كانوا يتوقعون منهم الرفض. كانت العوازم تقف مع عبد العزيز، ولم يفلح «أبو الكلاب» في الحصول على دعمهم، فكان لا بد من المواجهة، وقد استسهلها ابن حثلين. فقد سار العجمان إلى «نطاع»، واتجه العوازم إلى ماء «رضى» بالقرب من «نطاع». هجم العجمان على العوازم في «رضى»، فهزم العجمان، وفروا إلى «نطاع» و«الوفرة». وبعد هذه الوقعة، زالت هيبة القبائل، وانكسرت شوكتها.

وفي الرياض، أدرك جابر مدى حكمة أبي عثمان عندما وصف عبد العزيز بالداهية. فعندما قال أن برأس الدويش «حب ما طحن»، لم يكن مبالغاً، ولا يضرب بالودع. فقد جاءت الأنباء أنه بعد شفاء الدويش، خرج من «الأرطاوية» يريد «الوفراء»، وفي معيته جمع غفير من «مطير». وعندما اجتاز «الدهناء» و«الصمان»، جاءته الأنباء بوقعة رضوى في «اللصافة». ولكن الدويش واصل السير إلى «الوفراء»، وعندما وصل هناك، تنازل له ابن حثلين عن الرئاسة، فانتفخت أوداج الدويش، فقد أصبح زعيماً لقبائل الجزيرة كلها. وكانت خطة الدويش الجديدة هي إثارة القبائل على ابن سعود، فالقبائل هي أساس قوته، وهي أساس ضعفه. ولكن ما خفي على الدويش، كما قال أبو عثمان، أن القبائل وإن كانت ظاهرة القوة، إلا أن قوة عبد العزيز تكمن في الحواضر وسعيها نحو الاستقرار. القوة العسكرية والمادية، كما يقول أبو عثمان، ليست إلا زبداً لا بد له من ماء، والماء هو الحاضرة.

وبدأ الدويش خطته بالإغارة على سبل التجارة في نجد، وعلى القبائل واستثارتها، فأغار على «سبيع» الموالية لابن سعود، في «القاعية»، وأجبر «البريهات» من مطير في حفر الباطن على السير معه، وهم من المحايدين في الصراع، وإلا اعتبرهم من الكفار. واختار الدويش سبعمئة وتسعة رجال من مختلف القبائل الموالية له، وأمّر عليهم ابنه عبد العزيز، ووجّههم نحو

شمر والشمال، في محاولة لاستنهاض همم القبائل للثورة معه، وكانت شمر هي الأولى، فجرحها لا يزال ندياً، بينما عاد هو إلى الوفرة.

وغزا عزيز الظفير وشمر، بعد أن اتخذ من «الحزول» معسكراً، وقفل راجعاً إلى الوفرة. ولكن ابن مساعد، أمير حايل، كان له بالمرصاد. فقد أراد عزيز أن يسلك الطريق المعتاد إلى الوفرة، الحزول، لينة، الجهراء، الوفراء. ولكنه فكر أن ابن مساعد قد يكون له بالمرصاد، فغير الطريق: الحزول، أم رضمة، الوفراء. ولكن ابن مساعد كان يفكر في الشيء ذاته، فكمن لعزيز في أم رضمة، فقتل عزيزاً وخمسة عشر من آل بيته من «الدوشان». جن جنون الدويش بعد مقتل ابنه عبد العزيز، واشتعلت النار في صدره، وابن سعود يطوف بخياله على أنه مصدر كل المصائب. فهو الذي جندهم من أجل الإسلام، وهو الذي تخلى عنهم عندما أصبح الحكم ملك يمينه. إنه يكره ابن سعود، وآل سعود، فقد جعله أضحوكة بين العالمين: فلا هو الذي ظل على بداوته وغزواته وزعامته في «الجاهلية»، ولا هو الذي ظل زعيماً على الإخوان والجهاد بهم، ولا هو الذي في الحكم أُشرك. حتى إمارة «المدينة» التي كان يمني النفس بها، ضاعت وذهبت إلى محمد بن عبد العزيز. ولم يبق له إلا إمارة هجرة صغيرة وحقيرة، لا حول لها ولا قوة. لم تكن «الأرطاوية» تفي بطموحات الدويش، فهو يرى نفسه شريكاً في الحكم والسلطان، أو يُترك مجاهداً إلى ما شاء الله، وإلا فما فائدة قتال كل تلك السنين؟

لقد وجد الدويش نفسه بعد كل هذه السنين، مثل «طقعة مصلوخ في يوم عجاج»، لا صوت ولا رائحة ولا أثر. ولم يعد للحياة معنى بعد موت عزيز، وضياع الدين والدنيا معاً، وأصبح الموت أحب إليه من الحياة. ولكنه لن يموت رخيصاً، وخاصة بعد أن أصبح مهدور الدم في مقررات اجتماع «الشعراء». فواصل الدويش ثورته وغزواته في نجد والشمال، بينما قرر عبد العزيز القضاء على حركته نهائياً، فسار إلى «الشوكي» حيث تجمعت مئة وثماني عشرة راية من حضر وبادية نجد. وهنا شعر الدويش بجدية عبد

العزيز في مطاردته، فأخذ يرسل له المراسيل مستعطفاً ومهدداً باللجوء إلى الكفار، في الوقت الذي كان يراسل فيه الملك فيصل في العراق طالباً حمايته للتفرغ لحرب نجد، والكابتن كلوب في العراق واضعاً نفسه تحت إمرته. لقد كان الدويش يلعب لعبة سياسية مع الأطراف كافة. ولكنه لم يستطع تنفيذ أغراضه، فلم تعد الظروف هي ذات الظروف، وإذا فات الفوت ما ينفع الصوت. فاستسلم الدويش للإنجليز في «الجهراء»، الذين سجنوه في بارجة بريطانية هو ونايف بن حثلين، وجاسر بن لامي، ثم نقلوهم بالطائرة إلى حيث سلموهم لعبد العزيز في «خباري وضحا». وعندما دخل الدويش مقيداً على عبد العزيز، قال له:

- هل ظننت أنك تنجو باللجوء إلى الإنجليز؟!.

فقال الدويش:

- هات يدك أعاهدك...

- لا تعاهدني ولا أعاهدك...

قال عبدالعزيز:

- أنت لا تعرف العهود ولا تحترمها. أنا أصون العهد... أنا أخو نورة...

فقال الدويش:

- أعاهدك باللي رفع سبع، وطمن سبع، أني عدو عدوك، وصديق صديقك، ولو كان ابني عزيز، وإن كذبت، الله يرميني بين ايديك أذل من إبليس يوم عرفه...

فقال الملك:

- الله ربي وربك...

وانتهت المقابلة. وانتهت الثورة بسجن زعمائها في «المصمك» في الرياض، حيث ماتوا الواحد تلو الآخر... ودانت الأرض لأخو نورة...

وعاد أبو عثمان وجابر إلى الخب، وقد منحهما عبد العزيز الشيء الكثير من الأرزاق والحلال. فساروا إلى القصيم وهم مطمئنون، فقد انتهت أيام الغزو، وسنوات النهب والسلب. وكان من ضمن الهدايا، جارية عشرينية بيضاء رعبوبة، قالوا له إنها تركية الأصل، ومن أكراد تركيا تحديداً، وتقول هي أنها من بلاد ما بين الرافدين، هكذا قال لها والداها، أهداها عبد العزيز إلى أبي عثمان، وكانت من ضمن الغنائم التي غنموها في حرب الحجاز من قصور الأشراف. وكان أبو عثمان مسروراً بها ويراعيها طوال الطريق إلى القصيم. فقد أركبها على ذلول أشهب جعل عليه هودجاً، وكان هو يركب ذلولاً يسير أمامها. وكلما صعدوا نفداً، أو هبطوا آخر، نظر إليها في الهودج، وهو يملأ عينه منها، ثم يسألها إن كانت بحاجة إلى أي شيء. من كان يرى أبا عثمان في تلك اللحظات، اعتقد أنه لم يعرف الدنيا، ولم يشرق أو يغرب. لقد كان أشبه بطفل صغير أهديت إليه لعبة لأول مرة في حياته. كان اسم الجارية «أنانا خاتون»، ولكن أبا عثمان لم يستسغ الاسم، فكان يعلق ساخراً: «أنانا!.. وش ها الاسم؟.. خاتون؟ يعني ويش؟..»، فسمّاها زهرة، وهو يضحك ويقول بسرور صبياني: «سميتها زهرة، وهي عز الله أحلى من زهرة الفجر، وأجمل من ندى الصبح... خوش زهرة... خوش زهرة...»، ثم ينظر إليها وبريق السعادة يشع من عينيه، ويترنم بصفاء:

راعي القرن الأشقر شد قلبي وتله تلة السيف غيصة من بحور الظلام
ليتني شذرة زمام على مبسم له فوق خد تكاشف مثل برق الظلام
أو زرار بثوبه غاطي لبة له فوق فرع النهود وحدر طرق اللثام
كن بعيونه الخزرات جمع وسلة عسكر الروم حمران الوجيه الطغام
صاحبي وإن ذبحني بالهوى فدوة له ذبح خلي حلال وذبح غيره حرام

فيرد عليه جابر، الذي لم يستطع إخفاء إعجابه بجمال الجارية،

ويختلس منها النظرات، وإن كان يحاول غض البصر، احتراماً لمشاعر أبي عثمان:

يـا الـعـين لـك بـالـهـوى لـفـتـة	مـا انـت عـلى ديـن الإخـوان
هـو مـعـجـبـك واحـد شـفـتـه	عـوده مـن الـزيـن رويـان
شـفـتـه وحـفـتـه ووالـفـتـه	قـفـا بـقـلـبـي وخـلاني
الاولـه ليت مـا شـفـتـه	والـثـانـية ليت مـا جـاني
والـثـالـثـة يـوم واجـهـتـه	جـذ المعـاليق وابـكـاني
الـكـحـل بـالـعـين سـايحـتـه	كـن الـهـدب ريـش غـربـان
والـقـرن الأشـقـر مـنـسـفـتـه	يـاتي محـاقـيـب وبـطـان
والـثـوب بـالـزري نـاقـشـتـه	كـنـه مـسـاحـيـب ديـبـان
والـردف لـلـثـوب شـايـلـتـه	الحـجـل بـالـسـاق رنـان
والـنـهـد لـلـثـوب شـايـلـتـه	كـنـه طـريـع رمـان
يـا مـل قـلـب يـبـي عـفـتـه	يـا مـن عـذلـتـه وعـيـاني

ثم ينظر جابر إلى أبي عثمان ويضحكان بسعادة ضافية، وقد أحسا أن الدنيا قد عادت تبتسم من جديد. وكان جابر في الحقيقة سعيداً لسعادة أبي عثمان، ولكنه كان على أحر من الجمر لمعرفة ماذا أنجبت هيلة. وعندما بدأ سور حجيلان يظهر في الأفق في ضحى اليوم الرابع لمغادرة الرياض، لم يستطع جابر صبراً، فترك القافلة الصغيرة، وأخذ يستحث ذلوله على الإسراع، ولم يقف إلا أمام باب بيته في الخب. كان والده وإخوته يتناولون «القدوع» في «القهوة» عندما فاجأهم بدخوله. حياهم بسرعة، ودخل إلى «القبة»، ثم أسرع إلى الحوش حيث كانت هيلة جالسة هناك تطحن بعض الدقيق على الرحى، بينما كانت أمه جالسة غير بعيد عنها، وبين يديها طفل ألبسوه طاقية مزركشة، وبيده تمرة يمتصها... هذا هو ابنه إذن. وأخبرته هيلة أنهم كانوا في انتظاره لتسمية الطفل، فقال دون تفكير: «عثمان... نعم، اسمه عثمان، وأنا أبو عثمان...»، ثم وهو يضحك مبتهجاً: «خلي يصير عندنا أبو عثمانين وليس واحداً، وعسى الله يرزق أبا عثمان بعثمان».

كان جابر يريد أن يسمي ولده الأول صالحاً، على اسم أبيه، فاستأذن أباه في ذلك عندما تبين حمل هيلة، ولكن أباه رفض رفضاً قاطعاً، طالما هو على قيد الحياة. وكان خياره الثاني أن يسميه «سميحاً»، ولكن كل العائلة رفضت، وهم يقولون: «يكفي سميح واحد من الخب، لا نريد أن يصبح خبنا خب الذاهلين». وذبح جابر جزوراً كاملاً فرقه على أهل الخب، بمناسبة عودته وأبي عثمان سالمين، وبمناسبة قدوم عثمان السدرة إلى الدنيا.

١٢

كانت الأيام التالية للعودة، أيام سعادة وصفاء لجابر وأبي عثمان. فقد كان جابر مسروراً بعثمان، وأبو عثمان مسروراً بزهرة، حتى أنه لم يعد يمكث طويلاً في المسجد بعد الصلاة كعادته في السابق، «ركعتين والوتر»، كما كانوا يعلقون عليه. لا يلبث أن يتم الصلاة، ويصلي السنَّة بعجلة، ثم ينطلق إلى البيت مسرعاً، حيث لا يراه أحد حتى يحين وقت الصلاة التالية. وأخذ أهل الخب يعلقون عليه بخبث: «عز الله عنز وطاحت بعبس. معلوم، يده في الزهم... إيه، على هوى القلب يمشن الأقدام»، أو يرددون وهم يضحكون: «المطوع يوم شاف خديد سارة، أطبق المصحف وعجل بالصلاة»، ثم يأخذون في مدح أبي عثمان وهم يقولون: «يستاهل أبو عثمان، فعلى نياتكم ترزقون». وكان أول شيء فعله أبو عثمان حين عاد، هو عتق زهرة، ثم الزواج منها بعقد وشهود، في حفل زواج ذبح فيه جزورين، «كي يشبع أهل الخب من اللحم، ويدعوا له بالتوفيق»، كما علق ضاحكاً بعد أن انتقده جابر على هذا الإسراف. وعندما قال له الأمير ابن ثنايا أنه لم يكن من الضروري عتقها، وكان بإمكانه التمتع بها وهي جاريته من دون زواج، فقد أحل الله ما ملكت الأيمان، قال أبو عثمان أنه لا يريدها أن تكون أقل من نساء الخب، أن يُنظر إليها نظرة أقل، كما أنه يريد أن تكون له ذرية يحملون اسمه بعد هذا العمر الطويل، وهو لا يريد لابنه أن تكون أمه «أم ولد». وعندما علق ابن ثنايا مازحاً، على قدرة أبي عثمان على الجماع والإنجاب في هذه السن، أجاب أبو عثمان ضاحكاً، وقلبه

يحترق من الغيظ: «خل باب قهوتكم يصك علينا، وافسر سروالك، وأنا أوريك...». فضحك ابن ثنايا بدوره وهو يقول: «ولا توريني ولا أوريك... عويذ الله منكم يا الشيبان، رجولكم بالقبر وقلوبكم خضرا... تموتون وسراويلكم مندية»، ثم وهو يكتم ضحكته: «ما علينا... المهم، منك المال ومنها العيال، وجعلها قدوم خير عليك...».

واشترى أبو عثمان بقرة حلوباً، ودوشق قطن جديداً، وبنى «صفتين» إضافيتين في بيته من طين جيد، أصر أبو عثمان على أن يجلبه من «جفر الجن» المشهور بجودة طينها، حتى أنه يضاهي طين «جفر الحمد» في بريدة، إن لم يكن أفضل منه. وقد تعاون الجميع عن طيب خاطر في بناء منزل أبي عثمان، وهم يغنون فرحين. وتمنوا لو طال وقت البناء، فقد كان أبو عثمان يغديهم يومياً بالزبدة الطازجة والمراصيع، بالإضافة إلى اللبن والتمر والقهوة. وجعل أبو عثمان من إحدى الغرف جصة ومخزن أرزاق، والأخرى قهوة تفنن في تزيين «كمارها» بالجص الغالي. وبنى سوراً حول بيته بحيث يكون لزهرة حوشاً تجتمع فيه مع النساء، وجزء منه للبقرة مقراً، ومكان «للموقد»، وهو الذي لم يعرف المطابخ في حياته. لقد أصبح لأبي عثمان بيت كامل بعد هذه السنين من الغربة والوحدة. وإذا كانوا يقولون: «بيت ليس فيه امرأة ولا بقرة، ليس له ثمرة»، فقد جمع أبو عثمان كل ذلك اليوم، ولم يبق إلا الولد الذي يحفظ ذريته من الانقراض. كان كل الرضا والسرور يفيضان على وجهه تلك الأيام، وكان كثيراً ما يقول لجابر: «ما عمري تمنيت طول العمر مثل ما أتمناه اليوم... ودي لو الله يرزقني بولد يحمل اسمي عقب ما أموت»، فكان جابر يجيبه مخلصاً: «وكّل الله يا رجال... اللي عطا سارة وزكريا يعطيك»، ثم وهو يضحك: «وأنت ما شاء الله شاب... الشباب شباب القلب والعافية، وأنت ما شاء الله عليك...». لم يكن جابر مقتنعاً بما يقول: فأبو عثمان قارب الثمانين من العمر، وإن كان لا يزال ممتلئاً بالقوة والحيوية، ولكن الإنجاب... إنه غير متفائل. ويبدو أن أبا عثمان لم يكن متفائلاً هو الآخر، ولكنه يمنّي النفس،

فما على الله شيء عسير... إن أراد شيئاً قال له كن... فيكون...

ومع مرور الأيام، ابتدأ أبو عثمان يعود إلى عادته القديمة من مكوث في المسجد وقراءة القرآن، أو الجلوس مع الرجال في البيوت والحظران أو على كثبان الرمال، كما عاد للحديث الطويل مع جابر على «نفود سميح»، وإن أخذ هو من يجلب القهوة والتمر والزبدة بعض الأحيان وهو يقول مبتهجاً، وبحبور طفل صغير: «زبدة زهرة ليس لها مثيل، وكأنها من لبن غير اللبن... ما عمري شفت أحد يخض مثل زهرة»، أو «قهوة هيل بزعفران وعنبر هندي، لا أحد يعرف صنعها في القصيم كله مثل زهرة... معلوم... تربية الحجاز...».

ومع عودة أبي عثمان إلى الظهور في الخب، ابتدأت زهرة تظهر، فتزور الجيران، وتستقي الماء من قلبان الخب، وتذهب أحياناً لالتقاط الحطب من البرية المجاورة، أو التقاط بعض الحشائش الغضة للبقرة أيام الربيع، رغم أن أبا عثمان كان يكفيها مؤونة ذلك، فيشتري لها أجود أنواع الغضا والأرطى والسمر من جردة بريدة نفسها، ويحذرها من ثعابين الجحور المهجورة. كانت زهرة بيضاء البشرة بشكل لافت للنظر، فقد كان بياضها مشرباً بحمرة ظاهرة لا تتوفر للبيض من أهل المنطقة، ولا حتى الشيوخ والأثرياء من أهل المدن بوجنتين ورديتين، وعينين خضراوين، وشعر بين الأحمر والأشقر. وقد فتن صبيان الخب بزهرة فأصبحوا لا يسمونها إلا «الطماطة»، أو «عيون البس»، أو «أم شعر ذهب». وكانوا يلاحقونها أينما سارت، وهم ينظرون إلى وجهها نصف الظاهر، بينما بياض النصف الآخر يخترق كل حجاب، ويستنشقون عبيراً لم يستنشقوا مثله في الخب قبل ذلك. ففي المناسبات وأيام العيد، كان الرجال يتعطرون بالعود والبخور، والنساء بدهن العود. أما زهرة، فقد كانت تفوح منها روائح عطرية جميلة لا يعرفونها، ولا علاقة لها بعود أو دهن، ولا تتوفر حتى في حوانيت «قبة رشيد». أما الرجال، فقد كانوا ينظرون إلى زهرة وهم يتنهدون ويقولون: «صبرت وظفرت يا أبو عثمان... صحيح، هذي هي الشرهات وإلا

بلاش... عز الله صدق اللي قال: عمك من عمتك نعمته». وكانت زهرة تلبس حجلاً من الفضة، أوصى عليه أبو عثمان خصيصاً من مصر مهراً لها، حتى يكون زواجه منها كامل الأركان كما كان يقول، ويشعرها بأنها ليست جارية. وكلما سمع الناس في الخب صوت الحجل، نظروا ناحية الصوت، فزهرة لا بد أن تكون هناك. ثم يبدأ الصبيان بالسير خلفها، تاركين ألعابهم وأشغالهم المكلفين بها في الحايط، لعل الحظ يسعدهم فينالون نظرة من عيون البس.

لم تكن زهرة مرتاحة في الخب أول الأمر، فبعد قصور جدة ومكة ووفرتها، ها هي تقبع في خب معزول لا يكاد يحصل على الكفاف. ولكنها بعد أشهر معدودات، أخذت تبدي أسفها على تلك الأيام الضائعة التي عاشتها في العبودية والقصور. فهي اليوم امرأة حرة، وزوجة لرجل كامل، كما كانت تقول وهي تبتسم بحياء. وأخذت تتحدث عن أبي عثمان بعشق وله، فهو الأب الذي حُرمت منه، وهو الأم التي فقدت حنانها، وهو الزوج الذي لا يألو جهداً في توفير السعادة لها. ولكن أكثر ما كانت تتحدث عنه زهرة، هو هذا الإحساس بالحرية الذي لم تعهده أو تجربه سابقاً. فقد ولدت في الرق، من أبوين خُطفا صغاراً من ديار بكر أو شمال العراق أو سوريا، لا تدري بالضبط، كما أن ذكرى والديها عن ذلك اليوم البغيض باهتة مثل سراب بعيد، وبيعا في مكة. وقد ولدت هي في قصر لأحد كبار الأشراف، وكانت من ضمن السبايا يوم دخول السعوديين لجدة، حيث أهديت للسلطان عبد العزيز الذي ضمها إلى خدمه وجواريه في الرياض، حتى أُهديت إلى أبي عثمان. كانت زهرة تقول لنساء الخب أنهن لا يدركن معنى الحرية ونعمتها، فهن لم يجربن الرق والعبودية. صحيح أنها كانت تعيش في القصور حياة أنعم من حياتها في الخب، ولكن العصفور يفضل الانطلاق في الهواء جائعاً، على أن يحبس في قفص ذهبي متخماً. وهواء الخب في غاية الرقة والنظافة، كما كانت تردد. لم تكن تعرف معنى الحرية عندما كانت في القصور، ولذلك فهي لم تفتقدها آنذاك. ولكنها

عندما جاءت إلى الخب وأعتقها أبو عثمان وتزوجها، عرفت قيمة ما كانت فاقدة من دون أن تعي، وأدركت أن كسرة خبز يابسة مع الحرية، أفضل من فطيرة ساخنة بزبدة طازجة مع العبودية والرق، ولن تفرط في كسرة الخبز مهما كان الثمن. لم تكن نساء الخب يعرفن ما هي الفطيرة، ولكنهن أدركن أنها طعام فاخر قد لا يضاهيه إلا الحنيني الفاخر بحسب تصورهن، أو مصابيب الشيخ إبراهيم، التي كانت تعدها جاريته عنبرة، وأصبحت مضرباً للمثل في جودة الصنعة فيقال: «كنها مصابيب عنبرة».

وكانت زهرة تحدث نساء الخب بمظاهر الرفاه في القصور التي عاشت فيها، وكان أكثر حديثها عن الفترة التي كانت مقيمة فيها في قصور الحجاز، إذ إن إقامتها في قصر الملك عبد العزيز في الرياض لم تدم طويلاً، كما أن قصره لا يختلف كثيراً في عادته وأنشطته عما تمارسه حالياً، اللهم إلا في السعة والرحابة. أما قصور الحجاز، فهي حلم من الأحلام. كانت نساء الخب يستمعن إلى زهرة وهن فاغرات الأفواه، فهي تتحدث عن أشياء لا يعرفنها ولا حتى في الأحلام. فأحلامهن، مهما كانت محلقة، لا تتجاوز حدود الخب والصحراء المحيطة، وإن ذهبت بعيداً، فهي لا تتجاوز بيوت أثرياء بريدة ووجهائها.

وأصبحت زهرة محبوبة نساء الحي، بعد أن كن يغرن منها ويكرهنها أشد الكره في الأيام الأُولى لمجيئها. فقد كان جمالها ورقتها مثار انتباه الرجال في الخب، الذين لم يكن لهم حديث إلا عن حظ أبي عثمان وسعادة أبي عثمان بهذه الجارية «اللي كنها زبدة نقية، تجرع جرع»، أو «كنها دخَل يوكل بزقه»، ثم يرددون وهم يتنهدون: «عز الله صدق من قال: يا شاري الطيب تسمى رابح». ثم ينظرون إلى زوجاتهم وهن يعملن في الحايط ويرددون: «اثرنا ننام مع عقارب وحنا ما درينا». وكانت نساء الخب يثرن على الرجال عندما تأتي «سالفة» زهرة وأبي عثمان، ويذكرنهم أنهن هن من يسنين ويروسن ويزرعن ويحصدن ويجمعن الحطب والجلة، ويقُمن بأعمال الحايط والمنزل والأطفال، ومع ذلك يريدون منهن أن يكنَّ إناثاً كاملات في آخر

الليل، بينما «عبدة أبي عثمان»، كما كن يسمينها، ليس لها هم إلا «التغندر والتبودر والسواليف مع شايب ما شاف خير إلا تالي عمره».

ولكن زهرة استطاعت أن تنفذ إلى قلوب الجميع بسرعة، فقد أخذت تساعد النساء في أعمال الحايط، وفي طحن الدقيق على الرحى، والخبز على المقرصة، أو صنع «مهفات» السعف، بعد أن تنتهي من أعمال بيتها الخاصة، وهي ليست كثيرة على أية حال، بل إنها ابتدأت تأسر ألبابهن حين أخذت تعلمهن صناعة مأكولات جديدة، كن يتضاحكن وهن يذقنها لأول مرة. فقد علمتهن في أحد الأعياد كيف يصنعن معمولاً بالتمر، وكيف يصنعن كيكة ذكرتهن بقرص عقيل المعروف، ولكنها ألذ وأدسم وأرق. كما أخذت تعلمهن كيف يتزين لرجالهن، وهن اللواتي لا يعرفن إلا «الديرمة» و«الكحل» للزينة في ليالي الجمعة. فقد كان ضمن ما جلبت معها من أغراض شخصية، أشياء تحمر الشفاه والخدود، وعطور غريبة ولكنها ذات رائحة أخاذة، احتفظت بها منذ أيام الحجاز. وكانت زهرة تحمل هم كيفية الحصول على هذه الأشياء بعد أن تنفد، ولكن أبا عثمان فاجأها ذات يوم بهدية من هذه الأشياء فرحت بها فرحاً شديداً. وأخبرها أبو عثمان أنه أوصى على هذه الأشياء قوافل العقيلات الذاهبة إلى مصر. وأصبحت زهرة هي المسؤولة عن تزيين عرائس الخب ليلة زفافهن، ولا يعد العرس عرساً حين لا تحضره زهرة. فقد كانت تحيي العرس، وعلمت نساء الخب رقصات جديدة، وهن اللواتي لا يعرفن من الرقص إلا التمايل ونثر الشعور في الهواء، بل أصبحت زهرة محل حسد عذارى الخب، اللاتي كان منتهى أملهن زوج «مالي جصيصته، رابط بقيرته، ودافن ميمته»، وكان أبو عثمان، رغم كبر سنه، تنطبق عليه هذه الصفات كلها الآن. وعندما كان بعضهن يعلقن على كبر سنه، كانت الأُخريات يرددن بأسى: «ليكن ما يكون، رجل من عود ولا القعود»، كما أن العوانس من عذارى الخب، اللواتي تجاوزن العشرين من العمر، كن يقصدنها لتعلمهن أصول الزينة واجتذاب انتباه الرجال. كما كانت تساعدهن في جمع مواد «قريص لحد» وخبزه.

والغريب أن زهرة أتقنت اللهجة المحلية في غضون أشهر معدودات، وأصبحت كأنها مولودة في الخب ولم تغادره طرفة عين. ولكن كانت تصدر منها بعض الكلمات الحجازية في بعض الأحيان، حين كانت تتمازح هي ونساء الخب. وكانت هذه الكلمات تعطي زهرة دلالاً وأنوثة أكثر حين تتفوه بها، فقد كانت رقيقة اللفظ مقارنة بجفاف الكلمات المحلية. ولذلك كان أبو عثمان يصر على أن تحدثه باللهجة الحجازية حين يكونان وحدهما في البيت، فقد كانت تجعله يحس بالاسترخاء، بعكس اللهجة النجدية، وخاصة القصيمية الثقيلة، التي كانت تجعله متوتراً وكأنه على أهبة الاستعداد لمجادلة طويلة.

وتوطدت العلاقة بين زهرة وهيلة زوجة جابر. وجمع نفود سميح بين جابر وأبي عثمان، وهيلة و«أم عثمان»، كما يحب أبو عثمان أن يناديها. كان جابر وأبو عثمان يحتسيان القهوة ويتحدثان، بينما كانت هيلة وزهرة تجلسان غير بعيد عنهما تتحدثان، أو تعلم زهرة هيلة كيفية الغزل على السنارة، أو بعض الحروف الهجائية التي تخطها على الرمال الناعمة، أو كيفية صنع هذه الأكلة أو تلك. وكثيراً ما كانت زهرة تتحف هيلة بهدية هي عبارة عن زجاجة عطر أو علبة «غندرة» صغيرة. وألحت هيلة على جابر، حتى أوصى على جلب بعض هذه الأشياء لها، وكانت فرحة هيلة بها شديدة، وأهدت بعضها إلى زهرة. وحدثت هيلة زهرة عن سميح ابن عمها، وحكاية الغرانيق البيض يوم وفاة رفيع. والغريب أن زهرة لم تستغرب حديث هيلة وحكاية الغرانيق، بل قالت وهي تنظر بعيداً إلى الأفق: «نصدق بالجن والعفاريت، ولا نصدق بالغرانيق؟.. ونصدق بالأولياء والدراويش، ولا نصدق بسميح؟... وصدقنا الكاذبين كثيراً، أفلا نصدق الصادقين؟..»، ثم وهي تنظر إلى هيلة وتضحك باقتضاب، وقد برقت عيناها الخضراوان بحب خالص: «وأنت عندي صادقة مصدقة يا هيلة نجد كلها». وأحست هيلة بحب جارف نحو هذه التي كانت جارية وغريبة، فإذا بها تصبح أكثر حرية ممن ولدوا أحراراً، وأكثر حميمية من أهل الدار أنفسهم.

١٣

وأنجبت هيلة طفلها الثاني، صالحاً، بعد عدة أشهر من وفاة أبي جابر، صالح السدرة، في سنة ثورة «ابن رفادة»، وثورة الأدارسة، وفي اليوم الذي جاءتهم فيه الأنباء بأن الملك عبد العزيز قد غير مسمى البلد من «المملكة الحجازية النجدية وملحقاتها»، إلى «المملكة العربية السعودية». ولم يعجب الاسم الجديد أبا عثمان كثيراً، فكان يقول أن الاسم الجديد يلغي «نجد» من الذكر، ونجد هي أمنا التي لا ننساها في فقر أو غنى. وكان يعتقد أن اسم «مملكة نجد» هو الأنسب، وإن كان ولا بد، فليكن «مملكة نجد والحجاز». ولما قال له جابر أن البلد الآن ليس نجداً فقط، بل هناك الحجاز والأحساء وتهامة وعسير والجوف، أجاب أبو عثمان بغضب وحدة غريبة على شخصيته التي لا تتأثر بالأعاصير: «ولكن حنا اللي حاربنا... لولا أهل نجد ما قامت الدولة، فليس أقل من تسمية البلد باسم نجد»، ثم يهدأ قليلاً، ثم يردد: «إيه، ما علينا... الشيوخ أبخص... الشيوخ أبخص...» لم يكن جابر متفقاً مع أبي عثمان في هذه المسألة، وهو نادراً ما كان لا يتفق معه. كما أنه لم يكن مهتماً كثيراً بحكاية الاسم هذه، فقد كان منشغلاً بأمور أُخرى أخذت تستولي على ذهنه. لقد عاد سميح يلح عليه في البحث عنه، حتى أنه جاءه في المنام ليلة وفاة والده وأنبه على نسيانه له. كما جاءه ليلة مولد صالح وذكّره بأنه يقبع أسيراً، وهو ينتظره لفك أسره بعد أن نسيه الجميع.

والحقيقة أن جابراً كان قد بدأ ينسى سميحاً، فقد زادت مسؤولياته، وأصبح لديه عائلة عليه إطعامها والتفكير في مستقبلها. فكان عندما لا يكون هناك موسم للزراعة، يذهب إلى «جردة» بريدة ويحاول أن يبيع ويشتري ويحسن أحواله. ولا يعود إلا وهو منهوك القوى، يأكل اللقمة المقدمة إليه، ولا يلبث أن ينام قبل أن يسلم الإمام في صلاة العشاء. كما أن مرض أبيه، وحالة أبي عثمان جعلاه ينسى كل شيء عن سميح.

فمنذ أن حملت هيلة بصالح، تحول أبو عثمان إلى رجل حاد الطباع، يثور من أدنى شيء، حتى الذباب إذا حط على أنفه. وتحولت جلسات «نفود سميح» إلى صمت مطبق لا يطول، إذ لا يلبث أن ينهض أبو عثمان من دون مقدمات أو كلام، ويذهب إلى المسجد حيث يستمر في قراءة القرآن حتى تنتهي الصلوات كافة. وعندما كان جابر يحاول أن يفتح موضوعاً من تلك الموضوعات الأثيرة إلى نفس أبي عثمان، مثل رحلات عقيل وغزوات ابن سعود، كان أبو عثمان يبدو كأنه ليس هناك. فقد كان ساهماً ينظر إلى الأفق نظرات لا حياة فيها، ثم لا يلبث أن ينهض من دون أن يشرب فنجان القهوة. وحتى علاقته مع زهرة بدأت تفتر، وأصبحت زهرة تشتكي من فتوره، وجلوسه وحده في «القهوة» معظم الوقت ساهماً لا يأكل ولا يشرب. وذات مرة جاءت زهرة إلى هيلة تشتكي أبا عثمان، وهي تبكي بدمع غزير. فقد دخلت عليه القهوة وحاولت أن تلاطفه وتعرف ما ألم به، فطردها وقال: «ما بقى إلا العبيد والحريم يحلون مشاكلنا»، ثم لم يلبث أن خرج من المنزل. «ليس هذا هو أبو عثمان الذي أعرف... أكيد عين وصابتنا... أكيد منحوتين... نعم منحوتين، ليس لما يجري سبب إلا ذلك»، كانت زهرة تقول. وحاول جابر أن يهدئ الأمور بين الزوجين، ولكنه وجد أبا عثمان يثير الشفقة أكثر من زهرة؛ فقد وجده ذات مرة على نفود سميح، وهو يمسح دموعاً هربت من عينيه بالرغم منه. فلما رأى جابراً، حاول أن يكون أكثر تجلداً، ولكنه لم يفلح، فقال بانكسار: «عز الله إني ظلمت بنت الأجاويد معي... لكن ما هوب بيدي، ما هوب بيدي»، ومسح دمعة انحدرت على وجنته العظمية الجافة. لم يبك أبو عثمان في أشد المواقف جزعاً، ولكنه اليوم يبكي، وبكاء أبي عثمان ليس ككل بكاء. فجابر يعلم ما يعتمل في نفس أبي عثمان، ولكنه يريده أن يتحدث، فالحديث في مثل حالته هو العلاج. لقد أثار حمل هيلة وإنجابها، وزهرة لم تحمل، مخاوف أبي عثمان من الموت من دون أن يكون له ولد يحمل اسمه، فيندثر ذكره، ويكون كأن لم يكن.

ـ وكّل الله يا رجال، وكّل الله... قادر على كل شيء...

قال جابر وهو يحدث أبا عثمان في المسجد الخالي، بعد أن انتهت صلاة العصر ولم يتحرك أبو عثمان من مكانه. ولكن أبا عثمان لا يريد أن يتحدث أو يفعل أي شيء، فقد فتح مصحفه القديم، واستعد للقراءة.

ـ أنا أعلم مما تعاني، ولكن ربك كريم... فالذي خلق آدم من طين، ورزق مريم الفاكهة في غير أوانها، وخلق عيسى بدون ماء الرجال، وناقة صالح وحوارها من الصخر، وأحيا عزيراً وأهل الكهف، ويحيي العظام وهي رميم، غير عاجز عن أن يهبك غلاماً زكياً تقر به عينك، كما منحه من قبل لسارة وزكريا...

وأدرك أبو عثمان أن جابراً قد أدرك ما به، فلم يلبث أن أجهش بالبكاء وهو يقول:

ـ قادر على كل شيء، ولكنني رجل قد بلغت من العمر عتياً، وزمن الأنبياء والمعجزات قد ذهب...

قال أبو عثمان، وهو يمسح دموعه بطرف شماغه، ويتلفت حوله مخافة أن يكون قد رآه أحد وهو يبكي، ثم نظر إلى جابر وهو يقول:

ـ والله ما عمري بكيت منذ أن بلغت الحلم، ولكن ما في النفس أحر من رمل القيظ... الله لا يحملك ما أحمله يا ولدي...

ـ عسى الله يعطيك راحة البال، ويرزقك الذرية الصالحة، فالقادر موجود دائماً، مع الأنبياء وبدونهم، وفي المعجزات وبدونها... أذكر الله واذهب إلى تلك المسكينة التي لا تدري ماذا تفعل بدونك...

ومسح أبو عثمان وجهه بشماغه، ثم نهض الاثنان في اتجاه بيت أبي عثمان، وهما يذكران الله كثيراً...

١٤

وأخذ سميح يزور جابراً كثيراً في أحلامه، وبصورة متكررة ودائمة، وفي أوضاع مختلفة. فذات مرة حلم به وهو مكبل بالسلاسل ويمد له يده مستغيثاً. وذات مرة جاءه في الحلم وهو يغرق في مياه حمراء، ويصرخ طالباً النجدة. وذات مرة حلم بجهجاه وهو يمسك بسميح ويهم بقطع رأسه، فيستنجد سميح بجابر، الذي ينهض من نومه منزعجاً وهو يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فينظر إلى هيلة وولديها بجانبه، ثم يعود إلى النوم، بعد أن يتفل إلى الشمال، ثم ينقلب على جانبه الأيمن وهو يتلو المعوذتين وآية الكرسي. ولكن سميحاً لا يريد أن يرحمه، إذ لا يلبث أن يظهر وهو يسقط في هوة عميقة، ولكنه يبتسم هذه المرة ويشير لجابر بيده. ثم يظهر وهو يقف على كثيب من الرمال، وخلفه تقف علياء ورفيع، ومن وراء الجميع يلوح طيفا عايش ومطلق وهما يحملان سيوفاً كثيرة، ويهمان بالهجوم عليهم. وقبل أن يصلا إليهم، تأتي طيور بيضاء، وتخطف سميحاً وتطير به بعيداً، والجميع ينظرون. ثم لا يلبث مطلق وعايش أن يتقاتلا، ويأخذ كل منهما في لعق دماء الآخر، بينما علياء ورفيع يبتعدان ويبتلعهما سراب بعيد. قص جابر أحلامه على مطوع الخب وإمامه، الشيخ سلمان السماوي، الذي طمأنه بأنها مجرد خذاريف وأضغاث أحلام لا معنى لها، وطلب منه التعوذ بالله من الشيطان الرجيم دائماً، وإن يوتر ويقرأ المعوذتين وآية الكرسي في صلاته قبل النوم، ثم ينام طاهراً. وفعل ذلك، ولكن سميحاً لا يريد أن يتركه. أراد أن يقص أحلامه على أبي عثمان، ويستشيره، ولكن حالة أبي عثمان لا تسمح له بأن يفهم أي شيء، وهو المشغول بنفسه.

وذات يوم كان في «الجردة» يستمع إلى حديث بعض العقيلات الذين قدموا لتوهم من الشام، بعد أن باع ما لديه من خضار قليلة، فسمع أحدهم يتحدث بسخرية عن شخص غريب الأطوار قابله في رحلته الأخيرة. كانت صفات الشخص الذي يتحدث عنه العقيلي تنطبق على سميح. فهب جابر وقلبه يدق بعنف وهو يسأل العقيلي:

ـ تقول أنك قابلت هذا الشخص. . . أين؟

ـ في القدس. . .

أجاب العقيلي، مندهشاً لتوتر جابر غير المبرر:

ـ وبالتحديد في حانوت يهودي في باب العمود اسمه «حزقيال»، اعتدت أن أشتري منه حُلياً من الخرز والمعادن الرخيصة أبيعها للنساء في قرى حوران والبلقاء والكرك والطفيلة. . .

ـ ما اسمه؟. . هل ذكر لك اسمه؟

ـ الحقيقة لا، ولم أسأله أنا عن ذلك إذ لم يكن هناك فرصة، فقد غادر بعد فترة وجيزة من وصولي، ولكن كان واضحاً أنه نجدي السمات، فقد كانت الصحراء منطبعة على وجهه الباهت وعينيه الباردتين رغم ذلك الإشعاع الغريب الذي كان ينطلق منهما، رغم تلك الخصلة من الشعر الأبيض التي كانت تبرز من تحت شماغه الشامي الأسود. . .

هو سميح، لا أحد غيره. . . قال جابر محدثاً نفسه:

ـ ولكن كيف حكمت عليه بغرابة الأطوار وأنت لم تحادثه، أو تجلس معه طويلاً؟

ـ قال لي ذلك اليهودي صاحب الحانوت. . . قال أنه يظهر فجأة ويختفي فجأة، وأنه كثير الحديث عن الأديان، ويتكلم بكلام غريب لا يعرف مغزاه. فقد سأله ذات مرة: «أيهما أفضل، البيع أم الشراء؟»، فقال اليهودي أن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة لا تتم إلا بهما. إلا أن البدوي التائه، كما كان يسميه اليهودي، قال: «كلا. . . فالبيع بلا ثمن أفضل من الشراء بثمن، والشراء بلا ثمن أفضل من البيع بثمن، والبيع والشراء بثمن جهالة، وبدون ثمن حكمة، وهما مثل الليل والنهار والرجل والمرأة. . .»، ثم غادر فجأة كما جاء فجأة. . .

لا ريب أنه سميح، فهذه كلماته. . . قال جابر محدثاً نفسه وهو يهم

بالنهوض وقد دارت الدنيا به ولم يعد يعي ما حوله، وسط استغراب العقيلات من حماسة الشاب لشيء لم يُقل إلا عرضاً من باب الطرفة والتندر.

وفي الخب، أخبر أبا عثمان بخبر سميح، وأنه في القدس، ولكن أبا عثمان كان سارحاً في دنيا أُخرى غير الدنيا، فأخبر زوجته هيلة التي فرحت لفرحه ولكنها أوجست خيفة من هذا الخبر. فوجود سميح، وعودته للظهور في حياة جابر من جديد يعنيان أنه سيشد الرحال إلى حيث يكون، وتخشى أن تطول رحلته وربما لا يعود، كما فعلها عقيلات كثيرون، وجدوا الراحة والمرأة الجميلة في الشام ومصر فلم يعودوا. وخلال الأيام التالية، تأكدت لهيلة شكوكها. فقد أخذ جابر يهمل عمله في الحايط والجردة، ويطيل الجلوس على نفود سميح، ولم يعد يلاطف أطفاله كما كان يفعل في السابق، ولكنها كانت تهوّن على نفسها بالقول أنه ربما كانت هذه حالة عارضة لا يلبث جابر أن يخرج منها. وحاولت أن تثنيه عما يمكن أن يكون قد عزم عليه بالقول أن لا أحد يدري أين ألقت المقادير بسميح، وحديث العقيلي قد لا يكون له أثر من الصحة، كما أن من رآه قد يكون أي شخص آخر. وكان جابر يهز رأسه بآلية وهو يستمع لزوجته بلا مبالاة، من دون أن ينبس بكلمة واحدة ولو كانت همساً، وهو ما كان يؤجج مخاوف هيلة.

وذات يوم، حصل ما كانت تخشاه هيلة، فقد قرر جابر السفر إلى الشام بحثاً عن سميح والعودة به إلى دياره، فهم أحق به من البلاد التي يحل بها، كما كان يقول. وحاولت هيلة أن تثنيه عن عزمه، تارة بالحديث والاستعطاف، وتارة بالدموع، وتارة بالحديث عن الأطفال وحاجتهم إلى أب يرعاهم. ولكن جابراً كان قد عقد النية على السفر، وهو عندما يقرر أمراً لا يثنيه عنه شيء، فلم تجد هيلة بداً من القبول بالأمر الواقع، والرضوخ لإرادة زوجها وقلبها يأكلها من الداخل، ولكنها تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وتدعو الله أن يعيده لها سالماً معافى، من دون أن يقترن بشامية أو مصرية. وخلال الأيام التالية، انشغل جابر في الإعداد لرحلته: فاشترى ناقة عمانية وضحاء بالدَّين، وقربة للماء، و«خرجاً» مزركشاً مما كان يرى مثله عند أبي

عثمان، و«كمراً» جلدياً من قبة رشيد، و«شداداً» أوصى عليه عند أحد النجارين المعروفين، و«مزودة»، وفراشاً. وأخذت هيلة تعد له ما تستطيع من «العبيط» و«قرص عقيل»، و«الكليجا»، و«الحنيني»، وهو يؤنبها على الإسراف الذي لا داعي له، فهو سيكون مع قافلة عقيل، ولن يعدم وسيلة للحصول على ما يقيم أوده خلال الرحلة. وكان جابر قد علم قبل مدة أن قافلة أميرها حمود ابن شكر، أحد أشهر أمراء عقيل، على أهبة الرحيل إلى الشام، وهي تتكون من أكثر من عشرة أشرعة، فاتفق مع ابن شكر على أن يرافقهم في رحلتهم، ويكون هو ضمن شراع ابن شكر نفسه، على أن يحدد له ابن شكر ما يعمله، سواء كان العمل «قهوجياً»، أو «راعياً»، أو «ملحاقاً».

وفي فجر اليوم المحدد للرحيل، كانت القافلة قد تجمعت حول «بئر العبيري»، غير بعيد عن الباب الشمالي لبريدة وبرج «المرقب»، للتزود بالماء قبل التوجه إلى «قصيبا»، أول الموارد في الرحلة، مروراً بنفود الشماس والشقة والصبيحة. وبدأت رحلة لا يعلم جابر أين ستنتهي، والأمل يداعبه في الالتقاء بسميح بعد كل هذا الغياب، وقد غاب مع صوت أحدهم وهو يهيجن:

أما انت هيجن إلي هيجنت والا انت عن فاطري حول
يا حلو مزة شفايا البنت كل على سلمه الأول
لطف الحشا صاحبي ما هونت لطف الحشا صاحبي لول

فيرد عليه آخر:

يا الله على كور منجوبه من شايابات المحاقيبي
أحلى من الهرش وركوبه بأوساط زمل المعازيبي

فيرد آخر:

ما حلى المسرى ليا نام الهداني فوق هجن يقطعن بنا الخريمه
لا افلس الرجال من كل المعاني وش يبي بالدار وقعود الهضيمه

لا دريت أن الحقب لز البطان فانهض الجنحان يا مال الغنيمه
العشر هالوقت ما تصفا ثمان لا تلومن لا ركبنا كور ريمه
والفجوج وساع يا ذرب الايمان ما يحوثل بالبلد كود الصتيمه
ما تندم من ركب بنت العماني في رجا مولاه والفرجه سليمة

ثم لا يلبث آخر أن يرفع عقيرته:

ذبحتني يا دقيق العود وأنا أحسب انك تداويني
ذبحتني بالعيون السود والسلهمة يا بعد عيني

وأخذت الإبل تغذو السير في صحراء تمتد بلا نهاية، وكأنها الأبدية ذاتها...

سفر التائهين

«وسأله أحد الفريسيين أن يأكل معه فدخل بيت الفريسي واتكأ، وإذا امرأة خاطئة في المدينة لما علمت أنه متكئ في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب. ووقفت من ورائه عند رجليه باكية وجعلت تبل رجليه بالدموع وتمسحهما بشعر رأسها وتُقبل قدميه وتدهنهما بالطيب. فلما رأى الفريسي الذي دعاه ذلك قال وهو يحدث نفسه لو كان هذا نبياً لعلم من هذه المرأة التي تلمسه وما حالها إذ هي خاطئة. فأجاب يسوع وقال له يا سمعان عندي شيء أقوله لك. فقال قل يا مُعلم. قال كان لُمداين مديونان على أحدهما خمس مئة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما كليهما فقل لي أيهما يكون أكثر حباً له. فأجاب سمعان وقال هو فيما أظن الذي سامحه بالأكثر. فقال بالصواب حكمت. ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان أترى هذه المرأة. أنا دخلت إلى بيتك فلم تسكب على رجلي ماءً وهذه بلت رجلي بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها. أنت لم تقبلني وهذه منذ دخلت لم تكف عن تقبيل قدمي. أنت لم تدهن رأسي بزيت وهذه دهنت قدمي بالطيب لأجل ذلك أقول لك إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبت كثيراً. والذي يُغفر له قليل يُحب قليلاً. ثم قال لها مغفورة لك خطاياك. فجعل المتكؤون يقولون في أنفسهم من هذا الذي يغفر الخطايا أيضاً. فقال للمرأة إن إيمانك خلصك فاذهبي بسلام».

(إنجيل لوقا، الفصل السابع، الفقرات: ٣٦ ـ ٥٠).

عندما وصلت القافلة إلى «بير العمري»، بعد شهرين من مغادرة بريدة، أدرك جابر أنهم قد دخلوا الشام، فأخذ يشم رائحة سميح في المكان، ويستعجل الرحيل إلى عمّان ومنها إلى فلسطين. لقد كانت رحلة طويلة، باعوا واشتروا فيها، وأقاموا في كل مورد حلوا به: قصيبا، زرود، الحيانية، عذفا، الشويحطية، قراقر، النبك، ثم بئر العمري. ولكن أمير القافلة أمر بنصب الخيام، لإراحة الإبل وإشباعها من الأعشاب الكثيرة في الحماد المحيط، وكي تتزود بالماء العذب بعد ماء «قريات الملح» الأجاج، وانتظاراً للتجار والوكلاء من عمان ودمشق، الذين ذهب «قلوط» القافلة لإخبارهم بوصولها. وفي أثناء الانتظار، واجهت جابر مشكلة لم يكن يحسب لها حساباً، وكادت أن تحبط آماله في الوصول إلى فلسطين وإضاعة الفرصة للقاء سميح. فلم يكن جابر يحمل «باسبورتاً» يجعله يتجول بحرية، وكادت آماله كلها تخيب. إلا أن أحد تجار القافلة الكبار وجد حلاً للمشكلة. فقد كان يحمل جوازاً أُضيف فيه اسم ابن له لم يسافر مع القافلة، فاتفق مع جابر على أن يكون ابنه حتى يصل إلى عمان ويستخرج باسبورتاً خاصاً به من قنصل ابن سعود في الشام. وأخذ حمود ابن شكر يتذكر تلك الأيام التي كانوا يتجولون فيها بدفاتر عبور يحصلون عليها على الحدود، ويصدرها وكلاء العقيلات في كل مكان، الذين أصبحوا وكلاء ابن سعود بعد ذلك. أما اليوم فلا بد من القنصل والقنصلية، وأذن الفرنسيين للدخول إلى سوريا، والإنجليز للدخول إلى فلسطين. ولم يكن كل هذا الكلام يعني لجابر كثيراً، فقد كان في غاية الفرح والسعادة لحل مشكلته.

ووصلوا إلى عمان أخيراً، بعد استراحة قصيرة للرجال والحلال في سحاب، واستقر الجميع في «رأس العين»، بعد أن استلم الرعاة أجورهم وعادوا «مشرقين» إلى القصيم، واستلم «المعدية» شؤون الإبل، التي أصبحت الآن في «سحاب» وعلى مياه «عين الزرقا» شمال عمان. كان كل شيء جديداً بالنسبة إلى جابر، وكان حائراً أين يذهب. فلا هو قادر على استئجار

مكان للمبيت فيه، ولا يعلم عادات أهل البلد كي يدبر أموره. وعرف حمود ابن شكر ما يجول في خاطر جابر، فضحك وهو يقول له: «لا تشيل هم... اللي يغرب مع عقيل ما يشيل هم». وأسكنه ابن شكر معه في بيته الكبير غربي ميدان رأس العين، غير بعيد عن حوش البعارين وسوق الحلال.

٢

كانت أيام عمان أيام دهشة واكتشاف الجديد بالنسبة إلى جابر. فلأول مرة يرى بيوتاً من الحجر الصلد، ويرى طرقاً من الأسفلت، وسيارات بتلك الكثرة. فهو لم ير إلا سيارة الملك عبد العزيز وأبنائه عندما كان في الرياض، وكان مندهشاً كل الاندهاش كيف أن شيئاً يسير من دون أن يجره حيوان، أو من دون أن يأكل أو يشرب... حديد يمشي؟ هذه والله من علامات القيامة. وفي عمان يتذوق فواكه لم يعرفها من قبل، وقد أعجبه البرتقال اليافاوي ذو الأريج النفاذ، الذي كانت تلاله تملأ سوق الخضار في عمان، بجانب المسجد الحسيني. وذاق لأول مرة القهوة التركية في مقهى بين رأس العين والمصدار، اعتاد شباب العقيلات أن يجتمعوا عليها، ولكنها لم تعجبه على الإطلاق، مفضلاً القهوة العربية كثيرة الهيل، التي كان يتناولها في مجلس حمود ابن شكر مع بقية عقيل الذين كانوا يسمرون عنده كل ليلة تقريباً، بعد أن ينهوا أعمالهم في سوق الحلال. وفي عمان، ذاق خبزاً شامياً أبيض ذا رائحة أخاذة لم يذق له مثيلاً طوال حياته الماضية، وتعرف إلى حلوى جديدة اسمها «كنافة»، أعجبته بعض الشيء، ولكنها لا تتفوق على الحنيني. ولكن أشياء كثيرة لم تعجبه في عمان، فالتدخين شائع ومقبول حتى بين العقيلات أنفسهم رغم تدينهم الشديد، والأجانب من الإنجليز ينتشرون بكثرة، وهو لا يحب الأجانب. غير أن أشد ما أعجبه في عمان كان عذوبة مائها، وسيل عمان البارد. وكان متعجباً من تركهم شيئاً مثل المدرج الروماني قائماً، فهو من بُقايا الكفرة، فلماذا يحافظون على بقايا الكفرة وهم

من المسلمين، وأميرهم ينتسب إلى الدوحة النبوية الشريفة؟ ولم ير جابر أناساً من المسلمين بذلك البياض المُشرب بحمرة كما رآهم في عمان. فقد كان يرى الشركس والشيشان في شارع الأمير طلال، وتعجب كيف يكون للشوارع أسماء، فقد اعتاد على أسماء الأحياء والحارات، ولكن الشوارع؟.. لا بد أنه ابتكار الإنجليز الذين ينتشرون مثل الذباب في كل مكان. وأحياناً كان الشراكسة يأتون إلى سوق الحلال، بحثاً عن دابة قوية تساعدهم في الحرث والحصاد، فيتعجب من كونهم مسلمين مع أنهم في غاية البياض. كل يوم كان يكتشف جديداً في عمان، ولكن الدهشة أخذت تتلاشى مع مرور الأيام، وأصبح يجد متعته الحقيقية في «سواليف» عقيل وأشعارهم في مجلس ابن شكر، وأحياناً في مجلس ابن صقعان في سوق الحلال ذاته.

وفي هذه المجالس، سمع أن ابن سعود اتفق مع الأمريكان على البحث عن البترول في الأحساء وشرق المملكة. وكانت تعليقات الجلوس ما بين متفائل ومتشائم. فالبعض كان يرى أن ذلك يعني عهداً جديداً من الخير لنجد وأهل نجد، بينما كان البعض الآخر يرى أن ذلك معناه قدوم الأجانب، وقدوم الأجانب لا يحمل أي خير، حتى وإن كان خيراً. وأخذ البعض يعدد مساوئ الأجانب من اليهود والنصارى منذ أيام الرسول وحتى الوقت الحاضر. وتذكر الجميع ما فعله الفرنسيون مع عقيل في الميدان في دمشق قبل أكثر من سبع سنين، وما فعله عقيل معهم، واتفق الجميع على أن الأجانب لا يأتي منهم إلا الشر، وإن كان بعضهم من الخيرين. وتذكر جابر ما قاله سميح في الأيام الخوالي، عندما جاءت الأنباء بفتح ابن سعود للأحساء والقطيف، وأخذ يتذكر كلماته التي كانت ترد على خاطره وكأنه يسمعها لأول مرة.

لقد اكتشف جابر في عمان عالماً جديداً مدهشاً لم يخطر بباله أنه موجود. ورغم أنه شاهد مكة وجدة أيام حروب ابن سعود، إلا أن ما رآه وخبره في عمان كان شيئاً مختلفاً. وعندما أبدى دهشته من هذا العالم الجديد

لابن شكر، قال له وهو يضحك: «أجل شلون لو شفت الشام وغوطتها، وبغداد ودجلتها، ومصر ونيلها... توك ما شفت شي يا وليدي»، ثم وهو يتأوه: «ومصر كلها كوم، وشارع فؤاد كوم... ما تشوف فيه إلا حور عين يمشين، مثل الزبدة ما ودك إلا أن تجرعهن جرع»، ثم يضحك وهو يقول: أجل ما سمعت لويحان وهو يقول:

إن مت في شارع فؤاد ادفنوني ياطا على قبري بنات مزايين
ما أكدب عقب شافت عيوني بنات من نسل البوش والسلاطين
شفت الزهور بناعمات الغصوني ما دونها حار على العسر واللين
أحد يدور للبضاعة زبوني واحد تفسح قاضبين القوانين
شارع به أجناس على كل لوني ما داج فيه أهل الحسد والشياطين
يا عاذل راعي الهوى ما تلموني تنقد وعنك الناس ما همب دارين
الناس في سجلات ما يسمعوني الوقت عدل ومثله الناس عدلين
يا أهل العقول الطيبة سامحوني كل برأيه يحسب العشر عشرين

٣

كانت الأيام التي أمضاها جابر في عمان أشبه بالحلم، حتى كاد ينسى المهمة التي أتى من أجلها إلى الشام. وذات يوم كان «يقدع» مع ابن شكر بعد عودتهما من سوق الحلال، فقال له ابن شكر:

ـ لقد مرت الأيام والشهور وأنت في عمان... لا أنت اللي راعي بيع وشراء فتبقى، ولا أنت اللي راعي حلال فتشرق ثم تغرب، ولا أشوف لك شغلة تقعدك... علام عزمت يا بني؟

وكأنما أعاد سؤال ابن شكر جابراً إلى نفسه من جديد، وتذكر المهمة التي جاء من أجلها، وأن له أهلاً وزوجة وأولاداً تركهم في نجد من أجل هذه المهمة. وأحس في الوقت نفسه أنه أثقل على مضيفه بطول المكوث، فقال:

ـ إن كانك تضايقت مني يا عم، فأنا على استعداد للمغادرة هذه الساعة...

ـ أفا عليك يا ابن الأجاويد. . .

قال ابن شكر وهو يهز رأسه:

ـ أفا عليك يا ابن سدرة. . . ما هقيت إن هذا يطلع منك!. . البيت بيتك، واللقمة اللي تكفي واحد تكفي مية، إذا صفت السرائر. . . ولكن قل الشغل ما هوب زين. . .

واعتذر جابر عما بدر منه، وقبّل جبين ابن شكر وهو يكرر الأسف والاعتذار، ثم قال:

ـ الحقيقة يا عم أن قصتي طويلة وعجيبة، وما جئت للشام إلا من أجل البحث عن سميح الذاهل، الذي سمعت أنه رؤي في القدس. . .

ووسط حيرة ابن شكر، أخذ جابر يقص عليه قصة سميح الذاهل منذ أن عرفه صغيراً في الخب، وحتى اختفى فجأة ولا يعلم له أحد مكاناً، لم يصدق ابن شكر قصة سميح ومعجزاته، وأخذ ينظر إلى جابر ويتأمله وهو حائر الفكر في ما يقول هذا الفتى الذي يبدو عاقلاً، ولكنه يتكلم بكلام لا يدخل العقل، ثم قال باستسلام:

ـ على أية حال، هذا ما هوب شغلي. . . ولكن إذا كان لديك مهمة، فأنجزها. . . المهم أن لديك عملاً يجب أن يتم، وإيمان بجدوى هذا العمل. . .

ووافق جابر على ما قاله ابن شكر، بهز رأسه عدة مرات، ثم قال:

ـ والحقيقة أنا شاكر لك تذكيري بمهمتي التي تركت أطفالي الرضع من أجلها، فقد أنستني عمان كل شيء. . .

ـ ليس عيباً أن ننسى، ولكن العيب أن نسهو. . .

قال ابن شكر:

ـ وعلى أية حال، فهناك سرية سوف تقطع «الشريعة» بعد أسبوع، هل تريد مرافقة المعدية معها؟

ووافق جابر، بينما عاد شبح سميح يتراءى له من بعيد...

٤

بعد عدة أيام من الإقامة في «شونة ابن عدوان» في الأغوار مع الإبل والمعدية، عبر الجميع الشريعة ووصلوا إلى الضفة الأخرى، استعداداً للانطلاق من هناك إلى أريحا والفارعة ونابلس وطولكرم واللد، ومنها إلى غزة وجنوب فلسطين ثم مصر، أو إلى بيسان وجنين وعربة وعرابة وكفرياسين في الشمال. وفي أريحا، كان المعدية يستعدون للرحيل إلى الفارعة، ثم نابلس، وكان جابر مرافقاً لهم، حتى إذا ما وصلوا نابلس، وأخذوا يستعدون للانتشار شمالاً وجنوباً، تركهم جابر، بعد أن باع ناقته العمانية الوضحاء بسعر طيب، فهو لم يعد بحاجة لها، ومنح أدواته للمعدية. وركب السيارة لأول مرة في حياته من نابلس إلى القدس، وكانت تجربة مثيرة. لقد أحس أنه يتحرك ولا يتحرك، وأنه نسيم يسير ببطء، ولم يتصور كيف يمكنه ركوب الذلول بعد أن جرب ركوب السيارة.

عندما أشرفوا على القدس، وظهرت على البعد قبة الصخرة، أحس جابر بإحساس غريب... إنه مقبل على المدينة التي سار في أزقتها ابن مريم، وصرخ في أهلها ابن زكريا، وصعد منها محمد إلى السماء، وهناك يعيش سميح... كل ذرّة فيها لو تكلمت لقالت الكثير، وكل صخرة هناك فيها قداسة تبعث الرهبة في الأفئدة، ألا يكفي أن فيها «الصخرة» التي لا تمس الأرض، وفي كل عام تهبط درجة، حتى إذا مست الأرض، قامت الساعة. ومحطة البراق الذي انطلق بالرسول برفقة جبريل إلى السموات السبع، حيث قابل الأنبياء والملائكة، ورأى الجنة والنار، وكاد أن يرى الرحمن نفسه، فكان منه قاب قوسين أو أدنى؟ هذه الأرض وحدها تجمع بين خليل الله إبراهيم، وكلمة الله عيسى، وحبيب الله محمد. كان يحس بقلبه يخفق بشدة كلما اقتربوا من المدينة القديمة، وهو يتلو: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»،

حتى وصلت الإثارة قمتها عندما وصلوا إلى باب العمود، غير بعيد عن المسجد الأقصى، حيث محطة السيارات. ودلف إلى المسجد، وصلّى ركعتين بخشوع قريباً من صخرة المعراج، ثم خرج يبحث عن مكان يقيم فيه. لم يكن يريد أي مكان، ولكنه يريد مكاناً في «راس العمود»، حيث حانوت اليهودي، وحيث رأى العقيلي سميحاً. لو كان قد جاء من نجد مباشرة إلى القدس، لما فكر في مكان للإقامة، ولوجد ضالته في أي مسجد من مساجد المدينة العتيقة، أو لبحث عن أحد يستضيفه. ولكن عمان علمته شيئاً اسمه الفندق والخان. ووجد ضالته في خان صغير ورخيص، غير بعيد عن المسجد، أخبره عنه حمود ابن شكر، وقال إن العقيلات ينزلون فيه عادة عندما يذهبون إلى القدس. لم يكن قد بقي لديه من ممتلكاته إلا «الكمر» المربوط على خاصرته تحت الثوب، والمزودة الخالية إلا من بعض تميرات، ورغيف خبز شامي جاف. ترك المزودة في الخان، وانطلق يبحث عن اليهودي. كل ما يعلمه عنه أنه تاجر حلي نساء في باب العمود، وأن اسمه الأول حزقيال، كما أخبره العقيلي في الجردة، ولا شيء غير ذلك. ولكن «البدوي يمشي ويسأل»، وهو واصله في النهاية لا محالة.

كانت القدس تعج بمختلف أنماط البشر: يهود بضفائرهم وقلنسواتهم الصغيرة أو قبعاتهم السوداء الطويلة، وفلسطينيون بكوفياتهم المرقطة، وأعراب بثيابهم الفضفاضة، ورهبان بمسوحهم السوداء وصلبانهم الكبيرة، وشيوخ بعماماتهم البيضاء، ونساء من كل نوع وكل جنس، بملابس ضافية وأُخرى منحسرة عن سيقان ملساء لماعة لم تعتد الزرع والحرث، والكثير من عساكر الإنجليز. وكانت الحوانيت في كل مكان، تبيع كل ما يمكن أن يباع، وأصحابها من كل جنس ولون: عرب ويهود وأرمن وأتراك ويونانيون، وغيرهم. ولكن أشد ما لفت انتباهه، هو ذلك العدد الهائل من اليهود ذوي القلنسوات البيضاء، وأولئك من ذوي القفاطين السوداء والجدائل الطويلة، وهم يقفون أمام حائط البراق ويهزون رؤوسهم إلى الأمام والخلف، وهم يقرأون كتاباً يمسكونه بيد واحدة، ويبكون بحرقة ويضعون

أوراقاً في شقوق الحائط. وقد أخبره بعضهم لاحقاً أن تلك الأوراق هي رغباتهم وأمنياتهم التي يريدونها أن تصل إلى الله، وأنهم يبكون حزناً على دمار الهيكل، الذي يعتقدون أن مسجد المسلمين قائم على أنقاضه. استغرب جابر حكاية الأوراق هذه، وأخذ يناجي نفسه قائلاً: «عز الله أنهم كفار... فالله في كل مكان، ولا يحتاج إلى بريد للوصول إليه، كما أن المسجد الأقصى مذكور في كتاب الله، وهو موجود منذ الأزل، ولا علاقة له بمساجد اليهود، ولكن اليهود طماعون منذ كانوا، يريدون كل شيء لهم، حتى لو لم يكن لهم. لقد فضلهم الله على العالمين، ولكنهم عبدوا عجل السامري ما أن اختفى عنهم موسى أربعين يوماً. ومع ذلك غفر الله لهم، وقادهم في تيه سيناء بنفسه، وغذاهم بالمن والسلوى، ولكنهم قوم يكفرون، فغضب عليهم، ولعنهم إلى يوم الدين». لقد كانت القدس عالماً غير العالم الذي عاشه جابر في الخب، أو جربه في عمان، فالقدس بابل الشعوب، كما بدت له في تلك اللحظة، ولكنه كان يشعر بعدم ارتياح لكثرة الكفار فيها...

وأخيراً اهتدى جابر إلى حانوت حزقيال. كان اسمه «حزقيال عزرا»، مهاجر بولندي منذ أوائل العشرينات، كان اسمه في وارسو «حاييم بولانسكي» وغيّره إلى اسم توراتي يتفق مع «أرض الميعاد» التي أتى إليها بعد أن ترك كل شيء وراءه في غيتو وارسو. أخبره بذلك تاجر فلسطيني يبيع حلي النساء أيضاً، ودله على حانوته، وكله دهشة من طبيعة تلك العلاقة التي تربط عقيلي من نجد بيهودي من بولندا، فقد كان واضحاً أن التجارة ليست هي تلك العلاقة، فقد حاول الفلسطيني أن يبيع جابر حلياً بأسعار أقل من أسعار اليهودي، ولكنه لم يكن راغباً في الشراء.

كان حزقيال يتحدث عربية مكسرة، وبلكنة ثقيلة، وخاصة عندما يقلب الحاء العربية إلى خاء تخرج من وراء الحنجرة، ولكن كلامه كان مفهوماً. رحب بجابر كثيراً مبتسماً، عندما أقبل عليه، وأخذ يعرض عليه البضاعة التي يشتريها عادة أمثاله من عقيل. ولكن جابراً فاجأه بعدم الرغبة

في الشراء، وبأنه قادم لشيء آخر. انصرف عنه اليهودي، وانشغل بزبون آخر. فجلس جابر على مقعد خشبي بدون ظهر كان يجلس عليه حزقيال عندما أقبل. ورغم تجاهل اليهودي له، كان مصمماً على معرفة كل ما يعرفه عن سميح. وأخيراً رضخ اليهودي، وأقبل على جابر بمضض وهو يقول بقرف:

ـ نعم!.. ماذا تريد يا بدوي؟..خلصنا، ورانا مصالح...

ـ أريد أن أعرف مكان البدوي التائه ذي خصلة الشعر البيضاء...

ـ آه...

صاح حزقيال بصوت مرتفع:

ـ المجنون... لا أدري... لقد انقطع عن المجيء منذ فترة...

وأحس جابر بأن الأرض تميد به، وبان الإحباط على وجهه جلياً، بينما كان حزقيال ينظر إليه وقد قرأ علامات الحزن والإحباط على وجهه، فقال برقة:

ـ لعله قريب لك تبحث عنه؟..

وهز جابر رأسه بآلية، في حين واصل حزقيال قائلاً:

ـ كان يأتي هنا كثيراً، وقد أحببته رغم عدم شرائه أي شيء، وغرابة أطواره وكلامه غير المفهوم، ولكنه اختفى فجأة كما ظهر فجأة...

وازدادت معالم الحزن على وجه جابر، فتأثر حزقيال لتأثر جابر، ثم قال وقد اتسعت عيناه، وكأنه يتذكر شيئاً فجأة:

ـ لقد أخبرني في إحدى زياراته أنه يقضي وقته ما بين الصخرة وحائط المبكى وكنيسة القيامة، وأحياناً يقضي بعض الوقت على جبل الزيتون، وخاصة عند غروب الشمس، فهو يقول إن أورشليم تكتسي سحراً لا يقاوم ساعة الغروب من على جبل الزيتون... وأحياناً يذهب إلى بيت لحم، أو

«مِئاه شِعاريم»... إبحث عنه هناك، لعلك واجده... فهو شخص نادر رغم غرابة أطواره... ولكن... من ذا الذي يعيش في أورشليم، ويطل عليه جبل صهيون، ولا يكون غريب الأطوار؟..

وتهللت أسارير جابر، وعانقه الأمل بعد أن كان اليأس محيطاً به إحاطة السوار بالمعصم، وهب من دون شعور وعانق حزقيال، ثم انطلق لا يلوي على شيء، وهو في غاية التعجب... ما الذي يدفع سميحاً للذهاب إلى مزارات الكفار ومعابدهم ومساكنهم، وهو المُسلم التقي؟.. لا شيء يهم... عليّ أن أجد سميحاً فحسب، حتى لو كان في جحر ضب، أو عش عصفور...

٥

شهر كامل أمضاه جابر في القدس، وهو يقسم وقته بين مسجد الصخرة وكنيسة القيامة وحائط البراق وبيت لحم، وكل غروب شمس يكون عند جبل الزيتون، ولكن سميحاً لا يريد أن يظهر. لم يكن يعرف ما هي «مِئاه شِعاريم» التي تحدث عنها حزقيال، ولكن أحد الفلسطينيين أخبره أنها حي يهودي بين القدس العتيقة، وتلك القدس الجديدة التي تطاول فيها اليهود بالبنيان، يسكنه قوم من اليهود المتعصبين يسمون أنفسهم «الحسيديم»، أو الأتقياء بين الأتقياء. وأصبح جابر يذهب هناك كثيراً، فهو يحس بالألفة أكثر هناك. ففي «مِئاه شِعاريم» تختفي السيقان العارية، وبارات المُنكر، ولا يؤكل أو يباع لحم الخنزير. وكان أفضل الأوقات للذهاب هناك هو يوم السبت، حيث لا حركة ولا ازدحام ولا سيارات... وكان يشعر بالأمن وهو يسمع الأذان القادم من القدس في الشرق، ولكن صوت «الشوفار» كان يرعبه أول الأمر، حتى اعتاد عليه، كما اعتاد على أصواتها وهي ترتل المزامير، وعلى رنين أجراس الكنائس في كل مكان. كان يشعر بالنفور منها أول الأمر، ولكنه لم يستطع منع نفسه من قبولها، ثم استحسانها في النهاية، وقد تخللها أذان لا يشبهُ أذان شويش في الخب على أية حال. بل أصبح

يأكل أحياناً في مطاعم «الحسيديم»، حيث يضمن عدم وجود الخنزير، والذبح وإن لم يكن بالضرورة حلالاً، وعلى أية حال، فقد أحل الله للمسلمين طعام أهل الكتاب، هكذا كان يقنع نفسه عندما أكل أول مرة في مطعم من مطاعم «مِئاه شِعاريم». ولكنه كان شديد الحرص ألا يبيت في وسط يهودي. فمن نصائح بعض العقيلات الذين كانوا يسمرون عند ابن شكر، سمع أحدهم ذات مرة يقول: «كل عند يهودي، وبات عند نصراني... طعام اليهودي أطهر، وبيت النصراني أأمن».

وبقي كلما لمح خصلة شعر بيضاء، انطلق نحو صاحبها، ولكن الخيبة تكون هي المآل. وبدأت الجنيهات الفلسطينية القليلة التي في حيازته تنفد، ولا أثر لسميح. وذات يوم كان في مطعم شعبي قريب من «باب دمشق»، يتناول طعاماً من الخبز والزيتون والجبنة البيضاء، مع كأس من الشاي على مضض، فهو لم يستسغ هذا الطعام «الماسخ» منذ البداية. دخل المطعم أحد العقيلات، وكان واضحاً أنه قادم لتوه من سفر بعيد... ربما من نجد نفسها... جلس القادم غير بعيد عن جابر، وأخذ ينفض الغبار عن «صايته» الفاخرة وهو ينادي صبي المطعم بأنفة، طالباً منه كوباً من الشاي المنعنع. تبادل الاثنان النظرات بسرعة، ثم لم يلبث جابر أن تقدم من القادم، وقال بصوت ثابت وكأنه يعرفه منذ زمن:

ـ الأخ عقيلي؟

ـ أي نعم... من خب الأسرار، والأخ؟...

ـ من خب السماوي... أكيد ما تعرف!..

ـ لا أحد يجهل خب السماوات، وعلي السماوي... أخوك جبريل الجناح....

ـ والنعم... وأخوك جابر السدرة...

ـ والنعم... وش جابك يا ابن الأجاويد؟..

ـ سالفة طويلة...

ـ وحنا عندنا غير السواليف!..

ـ سالفتي غير سالفة...

ـ كل السواليف واحد...

ـ أبحث عن سميح...

ـ ومن يكون سميح هذا؟..

ـ سالفة طويلة...

ـ عطنا إياها... وحنا ورانا غير السواليف!..

وقص عليه حكاية سميح، وهو يتوقع نظرة الاندهاش والتعجب التي رآها على محيا حمود بن شكر البريديني قبل فترة، ولكن لم يظهر أي أثر للاندهاش على وجه القادم الجديد. بل على العكس من ذلك، إذ ما أن أتم جابر الحكاية، حتى قال له:

ـ لقد رأيت الذي تتحدث عنه...

وأحس جابر أن قلبه يكاد يخرج من صدره، وأصبحت نبضاته صوت طبل يدوي بقوة وهو يقول بتلعثم:

ـ حقاً؟.. أين؟.. كيف؟.. متى؟

وبإشارة هادئة من يده، وبصوت أكثر هدوءاً، قال العقيلي:

ـ على رسلك يا أخي... على رسلك... نعم لقد رأيته وحدثته...

ويزداد وجيب قلب جابر:

ـ عند مقام الحسين في مسجد بني أُمية في دمشق الشام التي لتوي قادم منها، وفي الميدان وسوق العصر حيث أهله ومن يحبهم... هكذا قال لي...

ـ دمشق؟..

ـ نعم... دمشق...

ـ أيترك القدس من أجل دمشق؟..

ـ كل الأماكن سواء لدى سميح...

ـ أيترك المسرى والبيت، ومدينة الأنبياء ويذهب إلى حيث لا شيء؟..

ـ المسرى والبيت والأنبياء في النفوس قبل الأماكن...

ـ ولكن...

ـ لا تجعل فيها ولكن... فهي التي قضت على البشر...

ـ هو في دمشق إذن؟..

ـ نعم في دمشق... بين المئذنة والمقام... هناك رأيته، وهناك قال لي: «من يريدني لا بد أن يجدني»، عندما سألته أين سألقاه مرة أُخرى...

وألقى القادم ما تبقى من الشاي في جوفه، ثم غادر فجأة من دون تحية أو استئذان، ونظرات جابر معلقة به، وهو ينتظر عودته على أحر من الجمر. ولكن الوقت يمر ولا يعود الغائب، فينادي جابر صبي المطعم ويسأله عن الغائب الذي لتوه قد قدم، فيستغرب الصبي ويقول: «أي قادم؟.. لم يدخل أحد هنا منذ أن دخلت أنت»، «العقيلي!.. القادم الذي طلب الشاي بالنعناع، وأتيته أنت به»، «لم يحدث شيء من ذلك...»، «أواثق أنت مما تقول؟»، «بالطبع واثق... أم تظنني مجنوناً؟..»، «معاذ الله... ولكن لعلك تناولت شيئاً؟»، «أستغفر الله العظيم... لم يبق إلا ذلك، لست البدوي الوحيد هنا يا سيد!». وأخذ جابر يفكر في ما يجري... لقد رأى العقيلي وحدثه... أيعقل أن ذلك كان خيالاً؟.. ولكنه ليس مجنوناً... سامحك الله يا سميح، إنك تكاد تقذف بي إلى الجنون...

هو في دمشق إذن... ليكن ما رآه خيالاً، ولكن سميحاً وراء الأمر كله... إنه يحدثه ولا يحدثه... وعاد إلى ازدراد حبات الزيتون الأخضر، ومضغ الخبز بالجبنة البيضاء، وطلب من الغلام كأس شاي مع نعناع أخضر...

٦

وعاد جابر إلى عمان، مستعجلاً الذهاب إلى دمشق الشام قبل أن يغادرها سميح. وتحصل له حمود بن شكر من القنصل الفرنسي على تصريح بالدخول إلى سوريا ولبنان، وركب القطار إلى الشام. كان القطار شيئاً مرعباً لجابر أول الأمر، فقد فجعه صوت القطار عندما سمعه لأول مرة، وأصابته الدهشة والخوف من كل ذلك الدخان والبخار الذي ينطلق من رأسه. فهو لم يكن يتصور أن يكون هناك حديد بهذه الضخامة ويسير... حقاً إن يوم الحساب قريب، بل أقرب مما يتصور اللاهون، ولكن ما علينا... قال جابر لنفسه... كل شيء يهون من أجل سميح...

بقي جابر عدة أيام في دمشق وهو لا يفارق مسجد بني أُمية. يجلس طوال النهار في باحة المسجد، في مقابل منارة عيسى، يحضر حلقات الدرس المتصلة في الباحة، أو يدور على الأسواق القريبة، إذ لعله يلمح سميحاً بين الجموع المتزاحمة في الأسواق، أو بين المارة في تلك الأزقة الضيقة حول المسجد. وكان حضوره حلقات الدرس في المسجد الأُموي بالرغم منه، فقد كان يسمع دروساً في الدين لا تنسجم مع قناعاته، وحاول مرة أن يعارض ما يقوله شيخ الحلقة، فأخرجوه من المسجد كله وهم يغمغمون بغضب: «وهابي يحاول أن يخرب الدِّين». وفي المساء، يعود إلى المسجد من جديد، وهو يتحاشى الحلقات وروادها، وينام في الباحة أو قريباً من بوابة المسجد، فلا يستيقظ إلا مع صوت أذان الفجر وهو ينطلق من المآذن الثلاث، مختلطاً بأصوات مؤذنين تأتي همساً من الأحياء القريبة من المسجد. كانت أصوات الأذان في غاية الرقة والجمال، وليس كأصوات

المؤذنين التي تعوَّد عليها في بريدة والرياض والخبوب، أصوات جشة ليس فيها أي نوع من الرقة أو الجمال. عندما وصل دمشق لأول مرة، فكر أين يقيم. وراودته فكرة أن يمر على أبواب البيوت، فيراقب إن كان هنالك نمل يخرج من الدار أم لا، فيطرق باب صاحب النمل كما يفعلون في نجد من قديم، ولكنه عدل عن الفكرة... فالشام كله خير ونمل، ولكن نفسه لم تطاوعه في طرق أي باب يصادفه. وبهرته دمشق وأسواقها، مما لم ير له مثيلاً لا في عمان، ولا في قبة رشيد في بريدة. كل شيء جميل يباع هناك: أثاث لم ير له مثيلاً، تحف من الأبنوس المرصع باللؤلؤ؛ شراشف في غاية الجمال بنقوشها الدقيقة؛ ملابس للنساء تُشعرك بجمال الأنثى التي ستلتف حولها؛ مصاغات من الذهب والفضة وأحجار كريمة تبهر العين، وعقود خرزية ومعدنية ثقيلة لا يشتريها إلا الأعراب والفلاحون. وكانت رؤيته للترام من أعظم المفاجآت التي رآها في حياته. كل شيء في دمشق بدا مبهراً لجابر، بل حتى النساء بَدَون براقات مقارنة بنساء الخب، ومكتنزات من أثر النعمة... «الشام»، قال جابر لنفسه، «جنة الله على أرضه، ولا أظن أن الجنة سوف تكون أفضل من ذلك»، ثم يستغفر على عجل، ويعود إلى الانبهار من جديد.

وتعرف جابر إلى تاجر نجدي في سوق الخيل، يأتيه حين ينتهي من العمل في متجره في سوق «الزفتية»، حيث كان يبيع الحلي الرخيصة للأعراب والفلاحات. لم يدعه التاجر، حتى جعله يحل ضيفاً عليه، رغم رفض جابر. وأمام إصرار التاجر، لم يجد جابر بداً من القبول. كان التاجر، واسمه سليمان العويريني، يقيم بصفة دائمة في الشام، ولم يعد إلى نجد منذ أن وطأ أرض الشام قبل أكثر من خمس وعشرين سنة. كانت له زوجة وولد في نجد قبل أن يأتي إلى الشام، وكان يرسل لهما ما تيسر من النفقة مع «المشرقين»، ولكنه توقف عن ذلك منذ ما يقرب العشر سنين، ولم يفكر في العودة يوماً. وعندما لامه جابر على ذلك، ابتسم العويريني وقال:

ـ هل تعرف قصة ابن جبر؟

فأبدى جابر جهله بالقصة، رغم امتعاضه من محاولة تجاهل العويريني لسؤاله، وقال بأدب جم:

ـ وما دخل هذا بذاك؟

ـ على رسلك يا بناخي... على رسلك... هل أنت دائماً عجول؟.. ولكن، خُلق الإنسان عجولاً، هكذا قال رب الخلق ولا اعتراض على حكمه... المهم... ابن جبر هذا كان شيخاً يعيش في نجد، وكان يرفض كل دعوات أصحابه لمرافقتهم إلى الشام. فقد كانت نجد تمثل أمه التي لا يستطيع فراقها. وفي إحدى السنين، رافق جماعة من أصحابه إلى الشام على مضض. ولكن ما أن وطأت قدماه أرض الشام، حتى أدرك أي عمر أفناه عبثاً في نجد، حيث الجوع والطقس، والصحراء التي لا ترحم. وبعد عدة أيام من الرغد والشبع في الشام، طلب ابن جبر أن يزور قبور أصحابه ممن سبقوه إلى الشام وتُوفوا فيها. وفي المقبرة، لاحظ على شواهد قبور أصحابه عبارات مثل «توفي عن سبعين عاماً، عاش منها خمساً»، «توفي عن ثمانين عاماً، عاش منها عشراً»، وهكذا. فاستغرب ابن جبر الأمر، وسأل عن الحكاية، فقالوا له إن أي نجدي يأتي إلى الشام لا يحسب من عمره إلا الأيام التي قضاها في الشام. فابتسم ابن جبر وقال: «أجل إذا مت اليوم، اكتبوا على قبري: هذا قبر ابن جبر، من بطن أمه للقبر».

وضحك جابر من قلبه لأول مرة منذ زمن، وهو يحاول إخفاء ضحكته بطرف شماغه، بينما كان العويريني يقول:

ـ هل رأيت!.. هذا هو سبب عدم عودتي إلى نجد... ثم...

قال العويريني وهو يمسح دمعة فرت من عينه ويغالب الضحك:

ـ ألم يقاتل معاوية علياً من أجل الشام؟.. فهل تريدني أن أصبح أفضل من معاوية؟..

وضحك الاثنان بحبور، بينما كان العويريني يحاول أن يمنع جابر من كتم ضحكته بطرف شماغه، واصفاً إياها بالعادة النجدية القبيحة...

كان بيت العويريني يقع في أقصى حارة «أجليقين»، في محلة «الحقلة» المتفرعة من حي «الميدان»، بالقرب من المسجد الأموي وسوق الحميدية. ورغم صغر حجم المنزل ومساحته، كما كان أبو صالح يعتذر وهو يرحب به في بيته، فقد بدا في غاية الرحابة والاتساع لجابر. إذ كان مريحاً ونفهاً كأي بيت دمشقي من بيوت الطبقة الوسطى. فقسْم الرجال (السلملك)، يتكون من حوش واسع (أرض ديار)، تتوسطه فسقية مرصعة بالفسيفساء، وتصطف حولها أصص الزهور والنباتات التي لم ير جابر لها مثيلاً من قبل، وهو الفلاح ابن الفلاح. وتنتشر أشجار النارنج والكباد والليمون، وعرائش الياسمين والورد والدوالي في كل أرجاء الحوش. وعلى الجوانب تقع غرف متعددة، تتوسطها قاعة استقبال فرشت بالسجاد والمفارش القطنية المرتفعة، والمراكي الخشبية المغطاة بوسائد قطنية ناعمة. ويتوسط القاعة «وجار» أنيق تصطف دلال القهوة والشاي على جوانبه، صنعه سليمان العويريني على نمط أوجرة نجد. وقريباً من القاعة، كان هناك درج يؤدي إلى غرف نوم العائلة. وفي مقابل القاعة (الإيوان) ممر صغير يؤدي إلى القسم النسائي (الحرملك)، حيث حوش آخر أقل اتساعاً من الأول، وقاعة للنساء ومطبخ للمنزل. واستغرب جابر من سعة المنزل، رغم قلة عدد أفراد عائلة العويريني المكونة منه ومن زوجته وابنته وخادمة صغيرة، ولكن هذه هي الشام... عز الله صدق من قال: «الشام شامك، إلا ما الدهر ضامك»، هكذا كان جابر يحدث نفسه وهو يتفحص الدار التي سيعيش فيها فترة لا يعلمها إلا علام الغيوب.

وقابل جابر زوجة العويريني، التي كانت في غاية البياض، ذكَّرته بالخبز الشامي الذي يؤكل حافاً، ودقة التقاطيع، مع خال أسود كبير يتوسط خدها الأيمن، وقد اتشحت بخمار أبيض اللون، كانت تطل من ورائه خصلات شعر مسترسل خروبي فاتح على استحياء. وشعر جابر بالحرج

لأول مرة في حياته، وتصبب عرقه غزيراً بالرغم منه، عندما قابل ابنة العويريني الوحيدة وصافحها، وهو النجدي التقليدي الذي يفترض فيه ألا يعرف حياء بنات الخدور. كانت الفتاة في ربيعها السادس عشر، نجدية الملامح والقسمات والحشا، رغم عينيها اللوزيتين وشعرها الخروبي الفاتح، ولهجتها الدمشقية القحة، مع أن لهجة والدها نجدية صرفة لم تتغير مع كل هذه السنين، وكأنه خارج لتوه من «الزلفي»، بلدته القابعة بين كثبان النفود الخالدة.

وسرد جابر للعويريني قصة سميح، وضحك العويريني وهو يقول:

ـ ما هقيتك قليل عقل يا بناخي... أنت تبحث عن سراب، أو عن إبرة في قش على أفضل الأحوال... ثم...

قال العويريني مستدركاً:

ـ ثم ماذا يكون سميح الذاهل هذا؟.. طلع ولا نزل، جلف من جلوف نجد... خلك من خرابيطك، ودع الأساطير والخرافات، واعمل... فالعمل هو سر الحياة، ولا تقل لي سميح ولا ضريط...

كان جزء من نفس جابر يصدق ما يقوله العويريني، وجزء منه لا يريد أن يصدق... سميح هو سر الحياة... ولا بد من العثور على سميح لمعرفة سر الحياة. وأصبح جابر من القابعين في مسجد بني أمية وسوق العصر ومقام الحسين، ومقاهي العقيلات المنتشرة بالقرب من سوق «الزفتية» وهو يسأل كل من يراه عن نجدي بخصلة شعر بيضاء، ولكن لا أحد رآه، ومعظمهم كان يرد عليه بالقول حين السؤال: «الله يشفي...». لم يجد إنصاتاً لما يقول سوى لدى بعض دراويش المسجد، الذين أكدوا رؤية سميح، ولكنهم مثله يبحثون عنه بعد أن رأوه مرة واحدة، وتعلقوا به، ولكنه تركهم دون ميعاد.

ومرت الأشهر ثقالاً وجابر يبحث عن سميح، ولكن من دون جدوى؛ حتى كان يوم قال له فيه العويريني:

ـ أرجو يا بني ألا تفهم كلامي خطأ... ولكنك أصبحت كالدراويش وشحاذي المسجد، وهذا لا يجوز...

وأخذت جابر العزة، فقال كما سبق أن قال للعويريني:

ـ إن كان وجودي معكم يضايقكم، فأنا مستعد للمغادرة على التو...

ـ ألم أقل لك لا تفهمني خطأ!.. لقمة هنية تكفي مية... لقد مرت علينا أيام لم نكن نجد فيها اللقمة في الشام أم الخير، أيام الترك وجمال باشا، الله لا يعيدهم، ولكن الإنسان بلا عمل كسفينة بلا دفة... بل كسفينة تتقاذفها الأمواج بلا هدف... الحياة هي العمل، والعمل هو الحياة... ثم...

وتلعثم صوت العويريني، وشخص ببصره إلى الأرض وهو يقول:

ـ ثم لا تنس أننا نجديون، وقد لامني الأصحاب والجيران على مكوث شاب مثلك في بيتي، وأنت تعلم أن لديّ شابة... ومجتمع دمشق ذاته لا يرحم يا ولدي...

وأحس جابر بغصة في حلقه، وكان على قناعة بكل كلمة تفوه بها سليمان العويريني، ولكن ماذا عساه أن يفعل؟.. لقد استولى سميح على فؤاده، وشل إرادته، ولم يعد يحلم في هذه الحياة إلا بسميح... قاتلك الله يا سميح، بل سامحك الله، ألا تدرك مدى العذاب الذي تسببه لمحبيك؟...

ـ شف يا وليدي...

قال العويريني، وهو ينظر بعيداً إلى الأفق، ويرتشف كوباً من «العرقسوس» البارد في ذلك اليوم القائظ من أيام تموز الحارة، أمام متجره في سوق «العكل»، الذي يلجأ إليه عندما تقل الحركة في سوق «الزفتية» أيام الصيف الحارة، وعندما تنقطع قوافل عقيل:

ـ شف يا وليدي... أنا رجل وحيد، وقد بلغت من العمر عتياً،

وليس لي إلا هند، ابنتي الوحيدة، وأريد أن أسترها قبل أن أموت...

ـ عطاك الله طولة العمر يا عم سليمان...

ـ خل عنك المجاملات... ما بقى كثر اللي راح...

قال العويريني وهو يهز يده في الهواء:

ـ أبيك تمسك الدكان، وتتزوج هنداً، وتكون ابني الذي وددته دائماً...

ـ الله يخلّيلك ابنك صالح في نجد...

ـ ايه... الله أعلم أين هو... إذا بغاني لقاني... المهم... ما رأيك؟.. وش قلت؟

ـ ما أقول إلا الخيرة في ما اختاره الله... أنت فصّل وأنا ألبس يا عم...

قال جابر ذلك وقلبه يرقص فرحاً، فلطالما تمنى هنداً وجمالها منذ أن رآها لأول مرة، ولكن... سامح الله سميحاً...

٧

وطابت الحياة لجابر في الشام. ازدهرت تجارته، وافتتح متجراً في سوق الحرير، وأنجبت له هند «سليمان» الصغير، الذي كان نسخة من جدته لأمه، ولا سيما عينيه اللوزيتين وشعره الخروبي الفاتح، مع بياض بشرة ذكّره بسمرة ولديه في نجد. ومع هند، ذاق جابر طعم الحياة لأول مرة، وأحس بالأنثى لأول مرة. لم تكن هند أجمل من هيلة، ولكنها كانت أكثر نعومة وبضاضة، مثل زوجة مانع ابن حميدان الشويعر، التي تجرع الزبدة «عدلة» تبيبه ضيق وحرورة. وأضفت هند على حياة جابر سعادة خفية تسري كما الخمرة في العروق، بنشوة متصاعدة من دون إحساس، وبلذة متنامية مع الأيام، كما الخمرة مع الدقائق في سهرة متجلية... وما الفرق

بين الحياة والسهرة؟.. مجرد وقت ولحظات.

ومرت ست سنوات وهو لا يذكر سميحاً، ولا تخطر على باله هيلة وولداها، ولا يأتي الخب على باله، بل لم تخطر كل البلد على باله. ولولا الأخبار التي جاءت قبل فترة عن محاولة اغتيال الملك عبد العزيز في الحرم وهو يطوف، على يد مجموعة من اليمنيين، قالت الأنباء أن ولي عهد اليمن، سيف الإسلام أحمد بن الإمام يحيى هو الذي حرضهم، لما جاء ذكر البلد على لسانه. كان جابر متأكداً أن الإمام يحيى نفسه يقف وراء محاولة الاغتيال، انتقاماً لهزيمة جيشه أمام جيش عبد العزيز، قبل ذلك بعامين. وكانت كل خشيته أنه لو نجحت المحاولة، ومات عبد العزيز، لعادت أيام الحروب بين الشيوخ والأمراء، وهي أيام: «لا عادت، ولا أعادها الله»، كما كان يردد. وخلال هذه السنوات، توفي سليمان العويريني، وأصبح جابر السيد الوحيد في البيت والمتجر، وأحس بأن الحياة لذة غير متناهية. كان يعن له سميح بين الحين والآخر عندما يصلّي الجمعة في جامع الأمويين، ولكنه لا يلبث أن ينساه عندما يعود إلى هند، ويداعب سليمان الصغير.

ولكن الدنيا لا تترك حالاً على حال. فمع بداية الحرب في أوروبا، أصبح الفرنسيون أكثر قسوة، وبدأت تجارته تبور، وخاصة في سوق الحرير. لم يكن جابر وعائلته محتاجين إلى الكثير، ولكن الحياة لم تعد باللذة التي كانت. وأخذ سميح وأبو عثمان يزورانه كثيراً في أحلامه، وهما يؤنبانه على نسيان الخب ومن فيه. بل إن سميحاً أتاه ذات ليلة وأخبره أنه عاد إلى الخب باحثاً عنه، ولكنه لم يجده. فهب من نومه مذعوراً، وصورة هيلة وولديها تلوح له من وراء لهب الشمعة المتراقص. نظر إلى هند بجانبه على الفراش، وسليمان غير بعيد عنها، وأحس بمرارة تعتريه في الداخل ود لو باستطاعته بصقها إلى الخارج، ولكنها غير قابلة للبصق. أين كل تقواه وورعه حيث ترك زوجته وولديه في الخب لا يدري عنهم شيئاً، وهو يتمرغ في النعيم، أم أن الورع ركوع وسجود فقط؟ إن لم يكن العدل أساس التقوى، فلا

تقوى لأحد وإن صام وصلّى. صحيح أن إخوته في الخب لن يقصروا مع عائلته الصغيرة، كما أن أبا عثمان موجود، ولكنه هو المسؤول عنهم لا أحد غيره. كان يحدث نفسه بذلك، عندما جاء صوت المؤذن من بعيد منادياً للصلاة فأحس جابر كأنه يسمعه لأول مرة. وأخذ يبكي بحرارة، ثم نهض وتوضأ وغادر إلى المسجد القريب وهو يحسب أن الأرض كلها تجثم على صدره. وصلّى كما لم يصلِّ من قبل، ودعا الله كثيراً، واستغفره كثيراً، واستخاره كثيراً.

وعزم على العودة إلى نجد، رغم دموع هند، وتوسلات أم هند، التي كانت تقول أنه لا أحد لهم غيره بعد وفاة أبي هند، ولكنه كان قد صمم، بعد أن استخار الله عدة مرات. ووعدهما بالعودة سريعاً بعد أن يطمئن على هيلة وولديه منها، وربما أتى بهم معه ليعيش الجميع تحت سقف واحد. وحاولت هند أن تقنعه بالسفر معه، وترك سليمان مع والدتها لحين رجوعهم جميعاً، ولكنه رفض ذلك وهو يقول بسخرية: «تبين تروحين لنجد؟.. ما تتحملينها ولا دقيقة... إذا كنا حنا أهلها هجينا عنها، فكيف أنت؟!..» وحاول بعض أصدقائه من العقيلات والشوام أن يثنوه عن عزمه، فالطرق غير مأمونة، وأهله في الخب لا خوف عليهم من شيء، فمن ذا الذي يطمع في نجد كي يأتي إليها؟ ولكنه كان قد استخار الله، وعزم على الرحيل.

٨

رغم خضرة الشام، كانت صفرة النفود وحمرته ذواتا مذاق خاص، عندما وصل جابر إلى «نفود الأعراف»، المطل على خب السعير، على مسافة نصف يوم من خب السماوي، وامتدت أمام ناظريه تلك البحار اللامتناهية من الرمال الصفراء المحمرة الناعمة، وكأنها مدينة نحاس تخفي الكثير من الأسرار في باطنها. لم يتغير الخب كثيراً حين أطل عليه جابر من بُعد، وليس له أن يتغير، إذ كيف يتغير ما ليس متغيراً؟!. كل شيء بقي على ما

تركه عليه منذ أن غادر منذ أكثر من ست سنوات، ما عدا ولديه، عثمان وصالح، اللذين أصبحا صبيين ممتلئين بالقوة والحيوية، وهيلة التي لا يبهت جمالها، رغم أنها أصبحت نحيلة إلى درجة الهزال.

وكان هناك الكثير من الأخبار المثيرة في انتظاره في الخب. فقد توفي الشيخ سلمان السماوي، ومن بعده أبو عثمان قبل أقل من عامين، بعد أن أنجبت له زهرة ابنه الوحيد «عثمان». كان يعيش أفضل أيامه بعد مجيء عثمان، وكان يترقب عودة جابر مع غروب شمس كل يوم، إذ يصعد إلى «نفود سميح» ويأخذ في النظر إلى الأفق لعله يراه قادماً، كما أخبرته هيلة وهي تحدثه عن أخبار الخب في غيابه. ولكن الخبر الأكثر إثارة كان عودة سميح إلى الخب بعد مغادرة جابر بحوالى السنتين. كان يبحث عنه على جبل الزيتون وجبل قاسيون وأزقة رأس العين، فإذا به في خب السماوي من جديد. سامحك الله يا سميح... كأنك تلعب معي «عظيم لاح، وين سرى وين راح»، أو كأنك تلعب معي «غليمط» التي كنا نلعبها أطفالاً... أخذ جابر يحدث نفسه بمثل ذلك، وهو في غاية الدهشة من هذه اللعبة التي يمارسها القدر معه. فهو يبحث عن سميح، وسميح يأتيه من دون أن يجده. وكلما نسي سميحاً أو حاول أن ينساه، يأتيه من دون إرادة منه فيعود إلى البحث مجدداً. لقد أصبح سميح بالنسبة إليه نوعاً من الإدمان، كلما تعالج منه وتعافى، عاد إليه بقوة أكبر.

وعندما زار زهرة وولدها عثمان، وجد مفاجأة أُخرى بانتظاره. لقد ترك له أبو عثمان رسالة مغلفة بعناية وقد كتب عليها من الخارج: «لا تُفتح إلا بيد جابر بن صالح السدرة». تناول جابر الرسالة بيد مرتجفة، وانطلق إلى حيث كان يجلس هو وأبو عثمان على نفود سميح، وفض غلاف الرسالة وقلبه يدق بعنف، وكأنه على وشك مقابلة أبي عثمان نفسه، وأخذ يقرأ:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد: «منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أُخرى». ولدي

جابر، تستلم هذه الرسالة وأنا بين يديّ الواحد الديان مالك المُلك، غير عالم بما هو فاعل بي. أيغفر لي ويسكنني جنة وسعها السماوات والأرض، أم يحاسبني على أعمالي ويلقي بي في نار وقودها الناس والحجارة. أكتب هذه الرسالة وأنا أحس بدنو الأجل، وأنت غائب لا تعود. فقبل أن يأتي عثمان، حفظه الله، وبعد سفرك مباشرة، أحسست أن الدنيا ضاقت بي وكدت أصل إلى حافة اليأس والقنوط، والعياذ بالله. فذهبت ذات ليلة ثارت عواصفها، وتلاطم رملها، إلى المقابر وسلمت على والدي والميتين، وجلست بين قبري رفيع وعلياء الشودرية، غير بعيد عن قبر علي السماوي، والغم يكاد يقتلني. فأخذتني سِنة من النوم رأيت فيها وكأني جالس في حديقة غنّاء لم أر لها مثيلاً ولا في غوطة دمشق الشام، مسنداً ظهري إلى شجرة سدر كبيرة، وشيء كبرود الثلج يحتل صدري. وفجأة جاءت علياء وهي تبتسم، وقد ارتدت غلالة خضراء براقة، ومن ورائها رفيع يبتسم وقد ارتدى غلالة بيضاء ناصعة، ومن بعيد كان يلوح عايش، أشعث أغبر، وقد ارتدى عباءة سوداء، ويحمل في يده «عجراء» ضخمة، وقد تحول شعر رأسه إلى ثعابين تتلوى حول رأسه. ثم مدت علياء إليّ يدها بهدية ملفوفة، فتحتها فإذا بها مصحف ذهبي صغير. ثم جاء رفيع وهو يبتسم ويقول أنه يشعر بالبرد، فطلب شيئاً من ملبوسي، فأعطيته طاقية بيضاء كنت أعتمرها، فلبسها، ثم غادر هو وعلياء مشيراً إليّ بيده من بعيد وهو يقول: «قريباً نلتقي يا أبا عثمان، قريباً نلتقي، فلا تخف على طاقيتك»، بينما كان عايش يصرخ من دون صوت، وقد دخلت أفعى سوداء ضخمة في حلقه، واختلطت بأمعائه، وكان لعابه يسيل على الأرض فيتحول إلى ثعابين تسعى. نهضت من نومي بين القبور، فإذا الليل حالك سواده. ثم هُيئ إليّ أن أحدهم بخصلة شعر بيضاء يجلس أمامي وقد اكتسى كل وجهه بنور باهر، ثم لم يلبث أن اختفى وحل الظلام الدامس من جديد، وتناهى إلى سمعي عواء ذئب من بعيد. أحسست بالرعب يجتاحني، فتعوذت بالله من الشيطان الرجيم وعدت إلى المنزل مهرولاً، حيث كانت زهرة تبكي من القلق عليّ، كما هي عادتها في الأيام الأخيرة. وفي تلك الليلة، عاشرت زهرة بعد

طول أمد، وجاءني الحلم ذاته في البيت. أخبرت الشيخ سلمان بالحلم، فبشرني بغلام يأتي من صلبي، غير أني سوف أموت بعد ولادته بمدة يسيرة. فالمصحف يدل على خلود الذكر، فالحق يقول: «إنّا أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون». وأخْذ رفيع للطاقية هو دنو الأجل واقتراب الموت. أما رؤية عايش، فهي تحذير من المصير، هكذا قال الشيخ. كما قال أيضاً إن رؤيتي لعايش تعني أنه قد مات، وأنه في البرزخ يعذب، بينما رفيع وعلياء في النعيم الخالد يرفلان. لم أكترث بما قاله الشيخ حقيقة، فقد تزوجت كثيراً في أيام عقيل وابن سعود، ولم يكتب الله لي الخلود، ونحن راضون بما كتب خالق القلم وصاحب العرش واللوح المحفوظ، وأخذت تأويل الشيخ على محمل تهدئة روعي وأعصابي التي لم تعد تحتمل شيئاً تلك الأيام، خاصة وقد باتت أيامي قريبة. وبعد شهرين أخذت ظواهر الحمل تبدو على زهرة، وظهرت المعجزة بعد أن يئسنا من ظهور المعجزات. وأصارحك القول أنني شككت في زهرة أول الأمر، بل هممت بقتلها... أبَعْدَ كل هذه السنين، وكل تلك الزيجات وأنا فتى يافع، وشاب قوي، يأتيني غلام وأنا شيخ هرم؟!. وكان شكي يزداد كلما تذكرت أن زهرة لم تكن عذراء حين بنيت بها، ولكن ذلك لم يكن مهماً، فقد كانت عذراء دائماً في نظري، وما فقدت عذريتها إلا بالرغم منها. لا تستغرب يا جابر، فقد تزوجت كثيراً، ولكن لم يكتب الله لي الخلف. وكنت أخفي هذه الزيجات عن أهل الخب الذين ليس أطول من ألسنتهم، إذ لم يتركوني بحالي وأنا عازب، فكيف يكون الأمر إذا علموا بعقمي. وبينما أنا بين الشك واليقين، نمت ذات ليلة على نفود سميح، فإذا بمخلوق مجنح ناصع البياض، لا أكاد أرى طرفي جناحيه اللذين سدا المشرق والمغرب، بوجه ثور وجسم إنسان وجناحي عقاب، يأتيني ويقول: «رفقاً بزهرة... فهي من أهل الخير في الأرض والسماء، وما في بطنها هدية من رب العباد إليك، وما على خالق السموات والأرض بعسير... كانت زهرة هدية، والهدية أُهديت من أجل الهدية... والله يريد هدية في مقابل الهدية...»، ثم أعطاني حَمَلاً لم أر أجمل ولا أبيض من صوفه وهو يقول: «وهذا تعطيه لجابر... فقد جاءت الألفية،

واجتمعت الكواكب، وحانت اللحظة. وما أن تلقيت الخروف، حتى تحول إلى بيضة ضخمة لم تلبث أن فقست حين لمستها، وظهر سميح من خلالها... لا... لم يكن سميحاً... ولكنه كان سميحاً...». وأصبحت ذلك اليوم وكأن كل ما كان في صدري قد مُسح، ولم يعد إلا حب الله وحب زهرة، وصورة المخلوق والحَمَل لا تفارق خيالي، وتحولت دموع زهرة إلى ابتسامات فرح وابتهاج. وعادت ذكرى الحلم القديم، ولكني لم آبه له أيضاً، إذ ربما يكون الجنين أنثى. وخلال هذه الفترة عاد سميح إلى الخب، وسأل عنك، فأخبرته أنك ذهبت للبحث عنه، فقال لي كلاماً غير مفهوم كعادته: «من يريدني لا بد أن يريدني حقاً وإلا فإنه لن يجدني مهما بحث...». ثم سألته أين كانت غيبته، فأجاب بلغز آخر من ألغازه: «أنا في كل مكان ولست بمكان». لم أحاول أن أستفسر منه أكثر، مخافة أن يكون التفسير أكثر غموضاً من الجواب ذاته. غريب أمر هذا الفتى يا جابر... إنه لا يكبر أبداً، فقد كانت هيئته عندما عاد، كمثل هيئته عندما غادر، إلا أنه هذه المرة كان يحمل عصاً من شجر الزيتون لا تفارقه أبداً... سبحان ربك العظيم. لم يمكث سميح كثيراً بيننا، فقد اختفى فجأة بمثل ما ظهر فجأة، بعد أن صلّ معنا على الشيخ سلمان السماوي، وشارك في دفنه، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. وقبل أن يختفي، كنت أعلم أنه سيغادر من دون سابق إنذار، فسألته ذات ليلة على النفود إن كان سيعود مرة أخرى إلى الخب، فقال أنه سوف يزرع عصاه في النفود تلك الليلة، فإن أورقت في الصباح، فهو عائد لا محالة، وإن بقيت على ما هي عليه، فلا يجب عليّ التفكير بعودته. وضحكت من خزعبلات سميح في سري، فكيف تنمو عصا يابسة في ليلة واحدة، بل كيف ينمو الزيتون في رمال النفود وصحراء نجد؟ ولكن المعجزة حدثت يا جابر، رأيتها بأم عيني، فقد نبتت ثلاث وريقات خضراً، على رأس العصا، وقد كُتب على إحداها سميح، وعلى الثانية رفيع، وعلى الثالثة علي. كنت في غاية الاندهاش، فانطلقت وأخبرت أهل الخب بذلك، ولكننا لم نجد العصا عندما عدنا إليها، ولم يصدقني إلا زهرة وهيلةْ زوجتك، الأمر الذي رفع من مقام زهرة في

نظري. ومن ساعتها اتهمني أهل الخب بالخرف، ولكنك تصدقني يا جابر، أليس كذلك؟ المهم، ما أطوّل عليك، أنجبت زهرة عثمان بعد اليأس، فتأكد لي أن ما رأيت كان رؤيا ولم يكن حلماً، وأخذت أستعد للموت وأنا قرير العين، فقد جاءت هدية المولى العظيم، وحان أوان هديته التي سيأخذها. لقد منحني الله كل ما أريد، ولا ينغص عليّ راحتي إلا طيف عايش الذي يطاردني ولا أعلم له سبباً، رغم أن المخلوق المُجنح ينقض عليه ويقتله، ولكنه لا يريد أن يموت. لقد طال غيابك يا ولدي، وكان لا بد لي من كتابة هذه الرسالة والأيام تمر وأنت لا تعود. أوصيك يا ولدي بتقوى العزيز القدير، الرحمن الرحيم أولاً وآخراً، ولا تفقد الأمل من ملاقاة سميح، فقد لاقيته أنا وتحدثت إليه، وعليك أنت أن تفك طلاسمه وألغازه. وأوصيك بابني عثمان، اعتبره كأحد أولادك، فليس له بعد الله إلا أنت. وأوصيك خيراً بزهرة، فهي تختلف عن كل من عرفت من نساء، إنها ريحانة من رياحين الجنة يا جابر. حقق لها ما تريد حتى لو كانت تريد العودة إلى الحجاز، لكني لا أظن ذلك، فقد أصبح الحجاز في قلبها، ونجد في دمها. وإن كانت تريد الزواج من بعدي، فيا حبذا لو تزوجتها أنت، فهي لا تذكرك إلا بكل خير، ولعل هيلة تدرك مبررات ذلك وتعذر. وأخيراً أوصيك بنفسك خيراً، وعدم الاغترار بهذه الدنيا الفانية، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وسلام على المتقين من الأولين والآخرين، وكان الله مع الصابرين المنتظرين ليوم نعود فيه من حيث جئنا. اللهم اغفر لنا خطايانا، واحشرنا مع عبادك المستضعفين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الفقير إلى ربه، عبد الله الطامع في غفران ربه

عبد العزيز بن عثمان بن عبد العزيز السايح

وطوى جابر الرسالة، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وهو يردد: «رحمك الله يا أبا عثمان... رحمك الله... عز الله راحوا الأجاويد، وما عادت الدنيا هي الدنيا برحيلهم». وبقي في مكانه لمدة لا يعلمها، وهو

يراقب الظلام وقد أخذ ينشر رداءه الحالك على رمال هي اللانهائية ذاتها، وبدا كأن الوجود في طريقه إلى الاضمحلال والذوبان في بحيرة عدم لا قرار لها. ومن بعيد، كان يتراءى ضوء نجم ساطع في السماء، بدا كأنه يعاند الغرق في بحيرة العدم...

٩

استشاطت هيلة غضباً حين علمت بنية جابر في الزواج من زهرة، وقالت له وهي ثائرة الأنفاس:

- إذا كنت معذوراً في زواجك من الشامية، فلست معذوراً في زواجك من العبدة... ما بقي إلا عبدة، ما ندري وش أصلها أو فصلها، تصير ضرة لهيلة الجعفري!...

- هذا كلام لا يجوز يا بنت الأجاويد...

قال جابر وهو يحاول تهدئتها:

- فهي صديقتك... كما أن أبا عثمان أوصاني بها خيراً هي وولدها...

إلا أن هيلة كانت في قمة الثورة وهي تقول:

- بلا صديقتي بلا خرابيط... صديقتي تأخذ زوجي؟!.. لا بارك الله فيها ولا في ولدها... نسل عفاريت لا ندري من أين أتوا...

ثم وهي تضحك ساخرة:

- ويعني كل ما وصاك أحد على أحد تعرس عليه!... إلا قل أن خاطرك فيها...

غير أن جابراً كان حاسماً وهو يقول بلجة آمرة غاضبة:

- لقد أوصاني بها أبو عثمان رحمه الله، وزهرة من أهل الخير، وقد أحل الله للرجل أربع زوجات، فهل تعارضين ما أحل الله؟..

ـ معاذ الله أن أعارض الله... إيه... بس هذا أنتم يا الرجال، إذا بغيتوا الشيء لقيتوا ألف مبرر، وإذا ما جاز لكم رفضتوه حتى وإن قال الله وقال الرسول... وأحس جابر من كلامها أنها قد هدأت قليلاً، فضمها إليه وهو يبتسم ويقول: وعلى أية حال، تبقين أنت الأغلى وأم العيال، يا هيلة حياتي...

قال ذلك ورائحة زهرة، الأمنية التي تحققت، تحتل كل خياله. وحاولت هيلة أن تخفي ابتسامة لاحت على محياها، وهي تقول:

ـ إيه... العب عليّ، قالوا لك عني خبلة، أكيد خبلة وإلا ما قعدت لك بهالبيت... قالت هيلة بغنج ودلال، فأحس جابر بأن صفاء نفسها عاد إليها، فضمها إليه وهو يقول بصدق:

ـ يسلم لي دلال الخبية... وعلى ما قالت زهرة... الواد واد لكن الجوع قاتله...

هذه هي هيلة، تثور بسرعة وتغضب بسرعة، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى صفاء نفسها وروحها البريئة، تلك هي طبيعتها، ولا غرابة في الأمر... أليست ابنة عم سميح؟..

ووافقت زهرة على الزواج من جابر، وهي التي رفضت كل المتقدمين إليها بعد وفاة أبي عثمان، عندما علمت أن تلك كانت رغبة أبي عثمان. لم تكن رغبة أبي عثمان فقط هي السبب في موافقة زهرة على الزواج، ولكنها كانت تخفي إعجاباً بجابر منذ أن قدمت الخب لأول مرة، ولكنها كانت تخفي هذا الإعجاب عندما كانت على ذمة رجل منحها الحرية والسعادة في حياته. فقد كان جابر مماثلاً لها في السن، ممتلئاً بالصحة والشباب والوسامة، محط أنظار عذارى الخب، لا يماثله في ذلك إلا سميح الذاهل ذاته، وكأنهما توأمان في بطن واحد، وإن كان جابر أكثر سمرة. كما أن جابراً نفسه لم يكن أقل رغبة فيها من رغبتها فيه، فقد كان يحلم بأنثى مثلها، ولكنه كان يصد خواطره، ويقمع رغباته في حياة أبي عثمان.

وقسم جابر لياليه بعدل بين هيلة في منزلها، وزهرة في منزلها.

ورغم أنه في الأيام الأُولى للزواج كان ينتظر ليلة زهرة بفارغ الصبر، إلا أنها أصبحت عبئاً عليه بعد أقل من شهرين من الزواج، كما هيلة نفسها. ولكنهما لا ترحمانه، فكل ليلة عليه أن يضاجع هذه أو تلك حتى لو لم يكن لديه رغبة في ذلك، وإلا تحولت ليلته إلى ليلة ليلاء لا صباح لها، وأصبح ينام منهكاً ويستيقظ منهكاً. وتحولت علاقة الحب والصداقة بين هيلة وزهرة إلى علاقة عداء مستترة، ومجرد ابتسامات صفراء متبادلة. كان كل سكان الخب يحسدون جابر على الثروة التي يعتقدون أنه أتى بها من الشام، وعلى جمعه بين أجمل امرأتين في الخب، بالإضافة إلى الشامية، وما زالوا يذكرون تلك الكميات الكبيرة من الكليجا والحنيني والقشد والتمر والزبد وقرص عقيل التي وزعها عليهم يوم «طهر» ولداه عثمان وصالح، وعثمان السايح، فور عودته من الشام، ولا ذلك «القعود» السمين الذي عشاهم به ليلة دخوله على زهرة. ولكنه كان يردد بينه وبين نفسه: «حقك ما جاك يا ابن سدرة... من عدم الرجال صرت رجل... تبيها هنة، صارت هنات»، كلما تناهت إليه همسات أهل الخب، ثم يردد بينه وبين نفسه: «عز الله صدق اللي قال: يسقي بلاد الفسده، ولا يسقي بلاد الحسده».

ونفدت ليرات الشام الذهبية، وكثرت مطالب هيلة وزهرة في تنافس عجيب. وكلما زجرهما عن هذا الأمر أو ذاك، أخذتا في البكاء وهما تقولان بصوت واحد، كأنه متفق عليه: «طبعاً... بنت الشوام أعز منا... أخذت لحمك وشحمك، وتركت لنا عظمك...»، فلا يجد جابر بداً من الرضوخ لمطالبهما. وحاول جابر أن يعمل في الحايط، أو يطلب الرزق في الجردة، ولكنه لم يستطع. فبعد العيشة المنعمة التي عاشها في الشام، وبعد الرفاه الذي وفرته له نقود الشام، أصبح من الصعب عليه أن يقنع بما يسد الرمق من عمله في الحقل أو السوق. كما أن الحرب جعلت كل شيء كاسداً، وأصبحت العيشة ذاتها لا تطاق. فكر في الذهاب إلى الشام من جديد، ولكن الطرق كانت صعبة، كما أن دخول الشام بعد احتلال ألمانيا لفرنسا أصبح في غاية الصعوبة، فقد كانت الحكومة الفرنسية في غاية

الصرامة بالنسبة إلى الداخلين والخارجين. لم يكن قلقاً كثيراً على هند وسليمان في دمشق، فخير الشام كثير مهما قل، وقد ترك لها الكثير، ولكنه كان قلقاً من المجاعة التي أخذت تطل برأسها على بلاد نجد، خصوصاً أنه قد أصبح لديه زوجتان ملحاحتان، كانت إحداهما حاملاً. وبحمل هيلة، أخذت تتغلى أكثر، فهي التي ستنجب له ولده الثالث، غير معترفة بابن الشامية، رغم ضيق جابر بحملها الجديد، حيث كان يسير ويحدث نفسه بصوت عال: «عز الله إنك يا هيلة تحملين من الهوا الطاير...»، بينما زهرة تنعي طوال الوقت حظها العاثر الذي جعلها غير قادرة على إعطاء جابر ولداً منها، وأخاً لعثمان ولدها، وهي تردد بأسى: «إيه... نتفة حظ ولا شكبان مرجلة... إلا قام حظك، باع لك واشترى لك، بس وش نقول... المقرود تدوره القراده».

وضاقت السبل بجابر، وأصبح غير قادر على التفكير أو الحركة، فالدراهم تصنع الرجال. وجاء من يقول له أن «الأمريكان» يستأجرون العمال في الظهران لاستخراج الزيت من باطن الأرض، وأنهم وجدوا الكثير منه ولكنهم ينتظرون انتهاء الحرب حتى يتوسعوا في أعمالهم، وأنهم يدفعون ما لا يقل عن ثلاثة ريالات عربية يومياً لعمالهم. كان المبلغ كبيراً، خاصة في الأزمة التي يعيشها جابر، فوافق على السفر مع صاحبه وهو يردد: «كلب تعسعس، ولا كلب ربض». لم تستقبل زوجتاه خبر سفره بالترحاب، وأشارتا إلى نيته في الزواج من رابعة، ولكنه كان حازماً حين قال بغضب: «عز الله حريم ما همكن إلا اساتكن، الناس بجوع وانتن تغرقن الواحد ببوع... السما ما تمطر دراهم، وكل شي له سبب، ومن طاف شبع... ومن سمع كلام الحريم صار مرة». وسافر لا يلوي على شيء، بعد أن أوصى أنه إذا ولد له غلام يكون اسمه عبد العزيز، على اسم أبي عثمان رحمه الله، وإذا كان أنثى، كان اسمها مزنة، على اسم والدته رحمها الله، وكلمات فهد الأزيمع تطن في رأسه:

وين انت يا اللي تبي ظهران   ترى الوعد راس تنوره

مـن فـوق مـا يـصـنـع الـنـصـران فــرت حمــر ســاطــع نــوره
مـليت مــن مـقـعـد الحـقـران يــنــعــاف لــو مــاكــلي هــوره

١٠

كانت أول مرة يتعامل فيها جابر مع النصران و«الحمران العطران» من ذوي البشرة البيضاء من الأمريكان. ولأول مرة يرى نساء «كاسيات عاريات» من ذوات اللحم الذي لم ير له مثيلاً من قبل: لحم أبيض مشرباً بحمرة فاتحة، وشعور في لون الذهب. ورغم الشبق الذي كان يتأجج في ثناياه كلما رأى هذا اللحم، أدرك أن القيامة لا بد أن تكون قريبة.. فالكاسيات العاريات، اللواتي كان يتحدث عنهن الشيخ سلمان، وصلن إلى بلاد العرب، وأصبح النصارى هم أهل الأمر في بلاد المسلمين. ولاح في ذهنه جهجاه وابن سعود في آن. شيء في داخله يقبل بما كان جهجاه يقول، وشيء في داخله مقتنع بما يقول الملك، الذي كثرت خطبه هذه الأيام. كان قد تعامل مع الفرنسيين في الشام، ورأى نساءهم، ولكن كل ذلك كان من بعيد، فقد كانوا لا يفضلون التعامل مع «المحليين»، ولكن الأمريكان قصة مختلفة. فقد تعامل معهم مباشرة... أناس في غاية الدقة، وغاية النشاط، وغاية الصرامة، وغاية «قلة الحيا»... هكذا اعتقد جابر فيهم.

سكن مع ثلاثة رفاق من القطيف والأحساء في غرفة صغيرة في حي السلامة الجديد، أو «السعودي كامب»، على السفح الشرقي لجبل الظهران، بعيداً عن «شبك الأمريكان». لم يكن مرتاحاً من السكن مع «الرافضة»، ولكن «إذا ما طاعك الزمان طيعه»، هكذا كان يردد وهما يخرجان من الغرفة ويعودان إليها مع صفير «الصُوْر»، كما كان جابر يطلق على صفارة العمل المزعجة التي تنطلق مع شروق الشمس وغروبها في كل يوم، ما عدا يوم الجمعة، وقد عادت إلى ذهنه «بدائع الزهور» التي كان أبو عثمان يدمن قراءتها، مع عشرات غيره كانوا يتجهون في طوابير طويلة إلى العمل، سواء داخل الشركة، أو في الآبار القريبة المكتشفة حديثاً.

كانوا يطبخون عشاءهم بعد العودة من العمل، فقد شكل البعض «عزباً» يتشاركون فيها الطبخ والأكل والمصاريف. لم يكن جابر يريد مشاركة الرافضة أكلهم، فقد حذره الكثيرون من أكل طعامهم عندما علموا بنيته العمل في أرامكو، وكانوا يقولون له إن الرافضة تبصق في أي طعام يقدَّم للمسلمين، عندما لا يكون بإمكانهم فعل شيء آخر. وصار يطبخ ويأكل وحده، لا سيما أن السمك يشكل الوجبة الرئيسية لديهم، وهو لا يعترف بغير اللحم لحماً... لحم خروف أو جمل، ولا بأس بالبقر... أما السمك والدجاج... فلا... وألف لا... بل استغرب كيف يأكلون الدجاج وقد خلقه الله للبيض فقط!.. وتعرَّف إلى بعض «المسلمين» من نجد، وشاركهم عزبتهم. أما الغداء، فقد عودهم الأمريكان على حمل صناديق صغيرة يضعون فيها ما تيسر من الطعام والشراب، يتناولونه في أثناء استراحة الغداء بين الثانية عشرة والواحدة بعد الظهر، بينما الأمريكان وذوو البشرة البيضاء يتناولون طعامهم في أماكن خاصة، تمتلئ بالمراوح، التي أدهشت جابر حين رآها لأول مرة، ويخدمهم أناس من ذوي البشرة التي لوحتها أشعة الشمس، فوق ما هي ملوحة أصلاً. لم يدر جابر أول الأمر ماذا يضع في صندوقه، حتى علّمه عبد الرسول كيف يصنع الساندويش... وكان اكتشافاً خطيراً. كان الأجر الذي يحصل عليه كبيراً، رغم ساعات العمل المرهقة الطويلة، وكان جابر مسروراً بذلك، فقد بدأ المال يتدفق بين يديه... كان يحصل على أكثر مما كان يحصل عليه من متجر العويريني رحمه الله في دمشق، ولكنه اكتشف مع الأيام أن ما يحصل عليه لا يعادل عُشر ما يحصل عليه واحد من ذوي البشرة البيضاء في «السينير ستاف». لم يكن ذلك يهمه كثيراً، فقد كان مزمعاً على ترك العمل ما أن يجمع من المال يكفيه العودة إلى الخب، والسفر إلى الشام.

لم تكن ظروف المعيشة القاسية في «السعودي كامب»، ولا العمل القاسي في آبار النفط مما يضايق جابر، فقد اعتاد على ظروف أقسى من ذلك كثيراً، ولكنه كان في أشد حالات الضيق من المعاملة التي يلقونها من

رؤسائهم من الأمريكان. كانوا يحسون بالمهانة والكرامة المجروحة وهم يسمعون تعليقات الأمريكان على كسلهم وغبائهم، وألفاظ أخرى كثيرة كانت تستوجب القتل لو سمعوها من آخرين في بلادهم. ولكن «الشكوى لله»، هكذا كان يردد جابر بينه وبين نفسه، «تجي البلاوي من لا يجي لها... قال: يا من بلي، قال: يا من صبر... وما للبلاوي إلا الصبر». كما أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً للأمريكان، فهم يعيشون وراء «شبك» محصن محروس، كما أنهم مصدقون لدى الأمير الذي لا يرحم. قال له أحد رفاقه في الغرفة أن أمريكياً اشتكى عامل نظافة لديه بسرقة قلمه الذهبي، فما كان من الأمير إلا أن أمر بقطع يد العامل، وتم ذلك بسرعة ومن دون تحقق من الأمر، وفق علمه. وبعد فترة وجيزة، وجد الأمريكي قلمه في أحد قمصانه المهملة، فما كان من الأمير بعد أن علم بالأمر إلا أن قال: «أمر الله ونُفذ، ولا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، وعاد العامل إلى قريته مقطوع اليد من دون قدرة على العمل.

ومع مرور الوقت، بدأ جابر يقارن بين ظروف معيشتهم في السعودي كامب، والرفاه الذي يعيشه الأمريكان في «الشبك»، والموظفون الأصغر في حي «المنيرة»، خصوصاً أن السعودي كامب أخذ يزدحم بقاطنيه مع كل يوم جديد، مع توسع أعمال التنقيب والحاجة إلى عمال أكثر. وبدأت تنتشر بين العمال منشورات مكتوبة بخط اليد، وكتب تتحدث عن الطبقة العاملة وحقوق الطبقة العاملة، وتدعو إلى الإضراب والاحتجاج على الظروف السيئة. لم يكن جابر يأبه لمثل هذه الأشياء كثيراً، فكل همه جمع المال والعودة بأسرع ما يمكن إلى هيلة وزهرة وهند وأولاده. وكان رفاقه في الغرفة، وغيرهم في غرف أُخرى، يجتمعون في بعض الليالي، ويقرأون المنشورات والكتب جماعة، ويتناقشون في إهانات الأمريكان، والظروف القاسية التي يعيشونها في بلدهم، بينما الأمريكان يتمتعون بطيبات الحياة من دون وجه حق، فهم من يشقى ويتعب. وخلال هذه الاجتماعات، سمع جابر أسماء غريبة مثل ماركس وإنجلز ولينين وستالين، وألفاظاً لم يسمعها من قبل مثل

«ثورة» و«إضراب» و«مظاهرة». إنه لا يعرف إلا الظلم أو العدل، أما هذه الألفاظ فهو يسمعها لأول مرة. والحقيقة أنه لم يكن مكترثاً على الإطلاق بكل هذه المناقشات، خاصة أنها تدور بين الرافضة الذين لا يثق بهم، وهم يحاولون بلا كلل أن يجروه إلى مناقشاتهم، وكان يعجب كيف أن بعض «المسلمين» يشاركهم اجتماعاتهم ونقاشاتهم. وذات مساء، أتاهم حسن الشرعاني بقصيدة لشاعر اسمه «خالد الفرج» مقيم في القطيف، لم يستطع جابر إلا أن يصغي إليها، فقد كانت تتخلل شغاف القلب، وليست كتلك الكلمات الجافة التي لا يفهمها، ولا يريد أن يفهمها. أخذ عبد الرسول يقرأ القصيدة بصوت متهدج، ونبرات خاشعة، وقد تحول جابر كله إلى أذن واحدة:

أنا شاعر لكن ببؤس بلادي ... أفؤادكم يا قوم مثل فؤادي
يا قوم هل من ناظر فأريه ما ... فيها وهل من سامع فأنادي
زعماؤها متخاذلون لجهلهم ... والكل للثاني من الأضداد
والعالمون حديثهم بعلومهم ... وصف المآكل من لذيذ الزاد
قد قاوموا روح الهدى بسلاحهم ... يرمون ذا الإصلاح بالإلحاد
والعلم كل العلم فينا عمة ... وقفت لنا سداً من الأسداد
فالمصلحون خوارج من دينهم ... والجاهلون مصابح الإرشاد
وإذا ابن العصر جاء مفاخراً ... بعلاه فاخرناه بالأجداد
نحن العظاميون نفخر بالألى ... عظموا بقرطبة وفي بغداد
صعدت إلى قمم الجبال جدودنا ... فعلام صبرنا في حضيض الوادي
نمنا فقام الآخرون فأسسوا ... بالعلم مجداً شامخ الأطواد

وذات ليلة، كان رفاقه مشغولين بنقاشات حامية مع بعضهم البعض، وضيفين آخرين لم يكونا من الرافضة، بل من أعماق نجد نفسها، وهو ما أثار استغراب جابر الذي أخذ يردد مثلاً سمعه ذات مرة من أم هند: «عجيب!.. ما الذي جمع الشامي على المغربي؟». حاولوا جره إلى حلقة النقاش، ولكنه رفض كالعادة، وخرج يبحث عن نسمة مفقودة في تلك

الليلة الحارة الرطبة من ليالي آب. كانت الليلة حالكة الظلام، مع ريح مشبعة برطوبة خانقة، وليس من نور إلا بصيصاً ينبعث على استحياء من الأحياء الثلاثة المتقابلة. جلس في الظلام الدامس على صخرة ملساء على الجانب الشرقي من سفح الجبل، وأخذ يحاول البحث عن نسمة هواء شاردة، وهو غارق في التفكير في أحواله وما آلت إليه. وفجأة أحس بصوت خطوات قادمة من أعلى الجبل. تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأدرك أن القادم لا بد أن يكون أحد الحراس المنتشرين حول «الشبك». وأخذ يعد نفسه لتحقيق حول سبب وجوده في هذا المكان في هذا الوقت من الليل وهو يقول لنفسه: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.... رضينا بالهم، والهم ما هوب راضي فينا». والتفت ناحية الجبل، متوقعاً بروز الحارس في أي لحظة، ولكن لا أحد يظهر رغم صوت الخطوات. أخذته رعدة، وأحس برعب شديد، فربما يكون القادم أحد ساكني تحت الأرض من الجن، أو عفريتاً من العفاريت التي يشتهر بها الجبل. بسمل وتعوذ وحوقل عدة مرات، وأراد أن يطلق ساقيه للريح، لولا أن سمع صوتاً رفيعاً خافتاً يناديه:

ـ جابر... يا جابر... هل يخاف أحد من نفسه؟..

ازداد وجيب قلبه، وأحس بالعرق واللزوجة يجمدانه في مكانه... إنه يعرف هذا الصوت... أنه صوت سميح الذاهل... ولكن ما الذي يأتي بسميح إلى مثل هذا المكان؟ لقد نسيه تماماً منذ أن جاء إلى الظهران، ولكن ها هو يظهر هنا... ولكن أهو سميح فعلاً، أم أنه يتهيأ الأشياء... أو قد جُن؟... لا... إنه يسمعه بوضوح:

ـ جابر... يا جابر... هل نسيتني؟..

واستدار جابر، وواجه الجبل، فرأى من بُعد شخصاً بجلباب أبيض ناصع، وعصاً خضراء تلمع في يده اليمنى، وتذكر ما قاله أبو عثمان عن عصا الزيتون المخضرة، وهو يقف على صخرة بين السفح والقمة:

ـ من أنت؟..

ـ هل نسيتني بهذه السرعة؟... أنا سميح... صاحبك...

ـ سميح!؟.. كلا... لا يمكن، فسميح بعيد جداً...

ـ ومن قال لك؟

ـ بحثت عنه في كل مكان ولم أجده، وتريد أن تقنعني أنك هو هنا... في الظهران!..

ـ أنا أكون حيث أحب، وحيث أريد، وحيث أكون مطلوباً... أنا في كل مكان ولا مكان... ألم يقل لك أبو عثمان؟..

وأراد جابر أن يتقدم حيث المتحدث ليتأكد من شخصيته، ولكن المتحدث قال بحزم، ولهجة آمرة:

ـ لا تتقدم أكثر... إذا كنت غير موقن بأني سميح، فاذهب إلى حالك... إيمانك هو يقينك وبرهانك، ولا تبحث عن براهين أُخرى....

وأحس جابر بشيء كالثلج يملأ جنبات نفسه ويسري في عروقه، ولاحت منه نظرة إلى الواقف على البعد، فلاحت له ومضة من ضوء فضي كضوء البدر يلوح من رأس المتحدث، فأيقن أنه في مواجهة سميح لا محالة:

ـ لقد بحثت عنك في كل مكان مقدس يمكن أن توجد فيه، ولم أجدك... وأجدك اليوم هنا حيث الدناسة وأبناء الكفار والرافضة...

ـ القداسة للإنسان وليس للمكان... وضِع البيت للناس، ولم يوضع الناس للبيت... وحيث يكون الإنسان، أكون أنا... ولكن أين الإنسان؟..

ـ بحثت عنك في مكة والمدينة والقدس، وعلى جبل الزيتون وجبل النور، وعند الحائط وكنيسة القيامة وفي بيت لحم وعند صخرة المعراج...

ـ أنا لا يهمني المكان بقدر ما يهمني الإنسان...

ـ ولماذا أتيت إلى الظهران؟...

ـ أتيت لك... لأنقذك من السقوط...

ـ أي سقوط هذا الذي تتحدث عنه؟..

ـ سقوط الإنسان في حبائل الشيطان...

ـ ولكني مسلم ورع إن شاء الله!...

ـ الورع هو أن تكون مع الإنسان...

ـ كيف؟..

ـ أنت من يحدد... أنت من يحدد...

وغاب صوت سميح، واختفى الضوء الفضي الباهر، ولم يبق إلا تلك الأنوار الخافتة القادمة من الأحياء الثلاثة... بل من العوالم الثلاثة، بينما جابر غارق في حيرته، ونسمة باردة غريبة تملأ صدره بالهواء...

١١

لا يدري، أكانت مقابلته لسميح حقيقة أم وهماً، ولكن ما الفرق؟.. لقد تبادلا الحديث، والحديث كله راسخ في وعيه، فما الفرق بين الحقيقة والوهم هنا؟ إنهم يحدثونهم عن الجن والشياطين، وسليمان وطوفان نوح، ويقول الأولون والتالون أنهم رأوا ذلك كله، فلماذا نصدقهم ولا نصدق أنفسنا حين نرى ما نرى؟ وعادت به الذاكرة إلى مقولة سميح: «نحن نرى ما نريد أن نرى، وليس بالضرورة ما يُرى»، وتأكد من رؤية سميح، ولكنه لا يدري مغزى أقواله في حديث الجبل.

بقي مضطرباً لفترة، وقد أحس أنه مشلول الإرادة والتفكير، وأصبح يكثر من الذهاب إلى السفح الشرقي من الجبل لعله يسمع صوت سميح أو

يراه مرة أُخرى، ولكن لا فائدة. أيكون سميح عاملاً معهم في الشركة وهو لا يدري؟ ربما، ولكن أين يكون؟ أفي الشبك أم في المنيرة أم في السعودي كامب؟ لا يمكن أن يكون سميح في الشبك أو حي المنيرة، فلا بد أن يكون في السعودي كامب إن كان موجوداً. وأصبح همه في الأيام التالية التفرس في وجوه العمال ساعة انطلاق الصافرة صباحاً، وساعة انطلاقها عند المساء، وكلما واتته الفرصة للبحث في قاطني الحجرات الضيقة الرطبة في الكامب، ولكنه غير موجود، رغم تأكده من وجوده في الظهران، فقد رآه في الظهران. أيكون البُعد والظروف القاسية قد دفعت به إلى حافة الجنون؟ كلا... إنه ليس مجنوناً، ولقد رأى سميحاً، وليكن ما يكون... ولكن مثل هذه الخواطر التي اعترته في الأيام الأخيرة قد تدفعه إلى الجنون. إنه بحاجة إلى شخص يحدثه مثل أبي عثمان، ولكن هل بقي أحد مثل أبي عثمان؟!.

وذات ليلة أفاق على يد تهزه وتوقظه من نومه، وقد تصبب عرقه غزيراً في تلك الليلة الرطبة من ليالي الظهران المعتادة في مثل ذلك الوقت من السنة، وصوت كأنه قادم من بعيد يقول: «يا أخ... يا أخ... استيقظ يا أخ». أفاق من نومه فزعاً، فرأى في النور الخافت وجه «عبد الرسول الحشي»، أحد رفاقه في الغرفة، وهو يبتسم ويقول: «تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لقد كنت تعاني كابوساً مريعاً على ما يبدو». وأخذ جابر يستطلع معالم المكان من حوله وكأنه قادم من عالم آخر، ويفرك عينيه وهو يقول: «خير... خير إن شاء الله!.. ما الذي جرى؟.. أين أنا؟». فضحك عبد الرسول وهو يقول: «أين أنت!.. في جنة الخلد ربما... أنت هنا في الظهران». وبدأ جابر يعود إلى وعيه، وجلب له عبد الرسول بعض الماء فشربه وهو يقول: «ما الذي جرى؟.. لقد كنت أسقط في واد لا قرار له قبل قليل، وقد كنت أركب ظهر جرادة منذ قليل..»، فضحك عبد الرسول وهو يقول: «لا بد أنه كابوس مزعج... لقد كنت تصرخ وأنت نائم وتقول كلمات غير مفهومة مثل سميح... أبو عثمان... لا

تاكلكم الجرادة... وأشياء من هذا القبيل... أصدقني القول يا صاحبي... ما الذي يزعجك؟..». ونظر جابر إلى وجه عبد الرسول المبتسم في النور الخافت، وقد لاحت بعض ندوب الجدري التي تملأ وجهه، التي ذكرته بجرادة الحلم، وتردد في الحديث، إلا أنه كان يبحث عن إنسان يتحدث إليه وإلا جُنّ. كان جابر مستغرباً أن يطلب منه عبد الرسول التعوذ من الشيطان وهو الرافضي الكافر، وتذكر مجيئه أول مرة إلى الكامب عندما أخذ يتحين الفرص للبحث عن تلك الأذناب التي كانوا يقولون أنها للرافضة. ولما لم ير شيئاً، تأكد لديه أنهم يخفونها بعناية خشية افتضاح أمرهم. وبعد تردد لم يطل، أخبره عن قصة سميح من البداية إلى النهاية، وعن مقابلة الجبل قبل فترة، وأنهى حديثه بتساؤل بدا كأنه يوجهه إلى نفسه، وهو ينظر إلى الأتريك المعلق قريباً من الباب: «هل تصدقني يا أخ عبد... يا أخ حشي، أم أنني مجنون؟». لم يكن جابر يريد أن يقول «عبد الرسول»، وهو المسلم الورع، إذ أن ذلك من الشرك المخرج عن الملة بالنسبة إليه، ولكنه وجد بعض الراحة في الحديث إلى أي أحد ومع أي أحد. ضحك عبد الرسول وهو يقول: «المهم... هل أنت مؤمن بسميح هذا ومقابلتك إياه؟»، «نعم... نعم...»، قال جابر بسرعة واضطراب، بينما كان عبد الرسول يهز يده في الهواء وهو يقول: «خلاص... المهم هو الإيمان، فالأشياء لا معنى لها بلا إيمان.. إن كنت موقناً برؤيته، فقد رأيته، وإن خالفك في ذلك الإنس والجان أجمعين». عجيب أمر هذا الرافضي!... أخذ جابر يحدث نفسه وهو ساهم... إنه يتحدث كما سميح... أيكون سميحاً متخفياً؟.. كلا.. لا يمكن... فسميح لا يمكن أن يكون رافضياً حتى لو تخفى... ولكن حديثه يبعث الراحة في النفس، رغم أنه رافضي... ولكنه ضال والواجب هدايته. وقرر جابر أن يهدي عبد الرسول الضال...

كل ما يدريه أنه تغير كثيراً بعد حديث الجبل، وبعد تلك الليلة من الحديث مع عبد الرسول. وتوطدت العلاقة بينه وبين عبد الرسول، وكان عازماً على هداية عبد الرسول خلال ذلك. ولكنه أخذ يحس مع مرور

الوقت أن علاقته مع عبد الرسول تزداد رسوخاً وتآلفاً، ونسي تماماً أنه رافضي، ولم يبق إلا التآلف. وقد سأله ذات مرة مازحاً وهو يضحك، وإن كان ذلك يخفي أثراً من شك بعيد، عن ذَنَبه وأين يخفيه؟!! . . فما كان من عبد الرسول إلا أن خلع بنطاله الأصفر المغبر الملطخ ببقع الزيت، وكشف عن مؤخرته الهزيلة كليمونة سوداء جافة، وهو يديرها لجابر ويقول مقهقهاً: «ما عندي غير ها الفقحة. . . هل ترى فيها أثراً لذنب؟ . . » فأدار جابر وجهه إلى الناحية الأُخرى، وهو يضحك بدوره، ويضع طرف غطرته المغبرة على فمه، ثم يزيلها بسرعة وهو يذكر قول حميه العويريني عن تلك العادة النجدية القبيحة، ويقول: «غربلك الله يا عبد الرسول. . . غربلك الله. . . عز الله إنك سفلة صحيح ما تحلل ولا تحرم، ما عندك حيا ولا خجل. . . أحد يطلع ذنبه قدام الله وخلقه»، «ويش تنباني أسوي فيك»، قال عبد الرسول بلهجته القطيفية الثقيلة: «مالي غير هذه الطريقة في الإقناع. . . فأن ترى هو أن تؤمن، Seeing is Believing، كما يقول معازيبنا الأمريكان».

وانخرط جابر أكثر وأكثر في نشاطات ونقاشات رفاقه في الغرفة وخارجها. ورغم أنه أصبح يحمل مقتاً رهيباً للأمريكان يختلف عن مقته السابق للكفرة وأصحاب البشرة البيضاء، إلا أنه لم يقصر في عمله، وأصبح مثار إعجاب رؤسائه الذين وجدوا فيه صمتاً وعملاً لم يجدوهما في غيره. وخلال سنوات ثلاث، انتهت الحرب، وأخذت أعمال الشركة في التوسع، ونقل جابر إلى «رأس تنورة» للعمل في مصفاة النفط التي أخذت الشركة في إنشائها، بعد أن أصبح جابر يتقن اللغة الإنجليزية بلكنة أمريكية لا تفرقها عن لسان الأمريكان أنفسهم، وخاصة في إلغائه حرف T، وتخفيفه من حرف R، الذي ينطقه أكثر العرب بالتشديد، كما الإسبان وأهل أمريكا الجنوبية، بحيث أنك تعتقد عندما تراه لأول مرة أنه من هنود أمريكا. . . أو آل «تشيكانو». ورقي إلى رتبة «مراقب عمال»، وأصبح له الحق في الانتقال إلى حي أرقى، ولكنه فضل السكن لوحده خارج الكامب في مكان يسكنه الكثير من العمال بالقرب من «عين رحيمة»، غير بعيد عن منشآت الشركة

وسكن الأمريكان في رأس تنورة. ودخل مدرسة وأخذ يتعلم فيها القراءة والكتابة بالإنجليزية، كما وعده رئيسه المباشر أنه إذا استمر مثابراً كما هو الآن، فإنهم سيرسلونه إلى هيوستن أو أوستن في ولاية تكساس للحصول على شهادة عليا في الهندسة البترولية، أو إدارة المنشآت الصناعية.

كانت الحياة تبدو كأنها أخذت تبتسم لجابر، إلا أنه لم ينس عائلته في الخب والشام، كما أنه لم ينس زملاءه ورفاقه في السعودي كامب، وخاصة عبد الرسول. كان يزورهم، وكانوا يزورونه، وأخذ يقرأ كثيراً في تلك الكتب التي كانت تتحدث في أمور لم يفكر فيها من قبل: الحرية والاستقلال والحقوق والطبقة العاملة والوطن والأمة. لقد تغير جابر كثيراً منذ حديث الجبل وليلة الكابوس، ولكنه لا يحس أنه تغير، بقدر ما يحس أنه كان نائماً فاستيقظ. وأخذته اجتماعات الرفاق والعمل، فلم يذهب إلى الخب إلا مرة واحدة خلال هذه الفترة، بعد انتهاء الحرب مباشرة، رغم أنه كان يرسل لعائلته ما تيسر من الريالات العربية الفضية بين الفينة والأُخرى ما يساعدها على تكاليف العيش. وفي الخب، رأى ابنته الجديدة «مزنة»، وغادر وسط صياح زهرة وهيلة، اللتين عاد الصفاء إلى علاقتهما بعد غيابه، وتوسلتاه أن يأخذهم جميعاً إلى الظهران، ولكنه كان رافضاً بشدة، معللاً ذلك بأنه لا يلبث أن يعود بشكل نهائي. وفي الخب، علم من أحد العقيلات أن زوجته هنداً وأمها وابنه سليمان غادروا دمشق إلى دير الزور، حيث أهل حماته. فقد أصبحت الحياة صعبة بعد أن غادرهم، ولم يجدوا بداً من الرحيل. كما أن صالح ابن سليمان العويريني زارهم في الشام، وتنازل عن كل حق له في إرث أبيه. ضايقه الأمر في البداية، ولكنه ارتاح لقرار عائلته في الشام، إذ أنهم في دير الزور سيكونون أكثر أمناً، في ظل عائلة حماته. كما أنهم هناك في منطقة بعيدة عن الفرنسيين و«رذالتهم»، والإنجليز و«نذالتهم»، والأمريكان و«حقارتهم»، كما كان جابر يحدث نفسه. وأعجبه ما فعله صالح، وقرر أن يمد حبال الوصل معه، ومع عائلة العويريني في الزلفي وهو يقول لنفسه: «عز الله إنهم أصيلون... عز الله إنك يا صالح أصيل ابن أصيل... الله يرحمك يا أبا صالح...».

وأخذ زملاء جابر ورفاقه يتخذون من منزله في «رحيمة» مركزاً لاجتماعاتهم التي أخذت تصبح أكثر تسيساً. وقرروا في أحد هذه الاجتماعات أن ينشئوا لجنة عمالية، هدفها الوقوف في وجه الشركة وفي وجه الأمير الذي لا يرى إلا الشركة. وقرروا أن تكون اللجنة مكونة مبدئياً من خمسة أفراد، هم: جابر السدرة، وحسن الشرعاني، وعبد الرسول الحشي، وعلي عبد الحسين، وصالح الدهناوي. واتفقوا على أن يدفع أعضاء اللجنة عُشر أجورهم للإنفاق على أعمال اللجنة، وانطلقوا إلى العمل، والدعوة إلى مبادئ اللجنة.

١٢

اتسعت أعمال اللجنة، وازداد عدد أعضائها بشكل سريع، وأصبحت هاجس الأمريكان والأمير، الذي حاول أن يكتشف قيادتها وأفرادها، ولكنه لم يُفلح. وبدأت منشورات اللجنة تنتشر بشكل أكبر، خاصة بعد أن بدأوا يستخدمون الآلة الكاتبة في الطباعة، وبعد أن بدأوا يستخدمون ورق الكربون المسروق من مخازن الشركة في الاستنساخ. جُن جنون الأمير، ومن ورائه الشركة، في محاولة معرفة من يقف وراء تلك المنشورات، وزج بالكثيرين من العمال في «سجن العبيد» في الأحساء، وسجون أخرى كثيرة أنشئت حديثاً في الدمام والخبر والظهران، ولكن أحداً من قيادة اللجنة لم يُعتقل أو يتطرق إليه الشك، فقد كانوا حريصين في اجتماعاتهم، التي انتقلت إلى المزارع في القطيف والدمام، على تحري الدقة والبعد عن الشبهات. كما أنهم كانوا في العمل مثار الإعجاب في الصمت والطاعة المطلقة، وفي تفانيهم في العمل. وبلغ إعجاب رئيس جابر في العمل به، المستر «روبرت بلاكستون»، أو «بوب» كما كان يسمع أصحابه ينادونه، أنه أخذ يدعوه إلى سهرات عائلية في بيته في «سينير ستاف» رأس تنورة، ليالي الإجازات الأسبوعية، ومناسبات الكريسمس ورأس السنة وعيد الشكر.

لم يكن جابر من المدعوين الفعليين حقيقة، بقدر ما كان يساعد زوجة

رئيسه، مسز بلاكستون، إيثل بلاكستون... شقراء أربعينية، وإن بدت أصغر من ذلك كثيراً، بشعر ذهبي مسترسل تدعه دائماً ينساح بحرية على كتفيها وظهرها، وعينين ضيقتين زرقاوين تنظران إلى أعماق من تتحدث إليه، وفم واسع بشفتين ورديتين رقيقتين، تنفرجان بشكل غريب دائماً عندما تتحدث إلى جابر، وبشرة في غاية البياض مشربة بحمرة يكاد الدم يقطر منها عندما تمشي أو ترتفع درجة الحرارة في الخارج، وهي مرتفعة غالب الأحيان. كان جابر يساعد إيثل في المطبخ وخدمة المدعوين الحقيقيين من الأمريكان.

ورغم أن جابراً كان يكره تلك المجالس التي يُشرب فيها الخمر ويؤكل لحم الخنزير، وتنكشف فيها أفخاذ النساء الوردية كلحم الخنزير ذاته، وهن يلففن سيقانهن بعضها فوق بعض وهن جالسات من دون حياء أو خجل، بالإضافة إلى الإحساس بالكرامة المهدورة، إلا أنه لم يجد بداً من الحضور، حفاظاً على العمل وعلى اللجنة. وأكثر ما كان يثير اشمئزازه في بيت رئيسه، تلك الكلبة الضخمة المدللة التي يدعونها «بوفي». كانت بوفي تتمسح به كلما رأته، وتحاول أن تلعق وجهه، وهو في غاية الاشمئزار، في الوقت الذي كان المستر والمسز بلاكستون يضحكان وهما يقولان: «How lucky you are... يا لك من محظوظ يا جابر، فبوفي تحبك، وهي التي لا تحب أي أحد». ويزداد إحساسه بالمهانة والقرف لدرجة التقيؤ عندما تطلب منه المسز بلاكستون أن «يفسِّح» بوفي في أرجاء السينير ستاف طالما أنها تحبه، حيث تقضي حاجتها، وتستعيد نشاطها، وترتاح نفسيتها. ولم يكن يستطيع الرفض، فيطيع وهو في غاية الحنق، مردداً بينه وبين نفسه: «والله آخر زمن يا جابر يا ابن سدرة... تركنا عيالنا وأهلنا علشان نمشي كلب نجس... عز الله انقلبت الدنيا اللي يمشى فيها كلب...»، ثم وهو يضحك في سره بسخرية: «لا، وكلبة بعد...» كان أقصى ما يمكن أن يرفضه هو عدم احتساء الخمر وأكل الخنزير، وكان الجميع يضحكون منه وهم يصفونه بالتزمت والتعصب، وعدم إدراك اللذة التي يرفضها: «You

don't know what you are missing... أنــت لا تــدري أي شــيء تفتقد»، فيضحك معهم وهو يقول: May be fam crazy... قد أكون مجنوناً»، فيضحكون وهم يهزون رؤوسهم مؤمنين على كلامه، ثم يعودون إلى أحاديثهم الجانبية وشرابهم، وجابر يصر أسنانه ويشعر بالكره والاشمئزاز يحتلان كل جوارحه وهو يحدث نفسه: «عساه سم حية رقطا، يقطع المصارين، ويهري الحشا...».

وذات ليلة كان ساهراً عند رئيسه مع بعض الأمريكان وزوجاتهم، وأخذ الرجال يحتسون «البراندي»، وأخذت النساء يحتسين «المارتيني» وهن يقضمن الزيتون الأسباني الأخضر المستورد خصيصاً لكانتين الشركة، ويستمعون إلى موسيقى حالمة، وأغنية لفرانك سيناترا: «في زرقة المساء»، «In the blue of the evening»، وقد غاب الجميع مع الأغنية، وأخذوا يرقصون بهدوء، وتحت أنوار الكهرباء الخافتة، بينما كانت بوفي تربض بالقرب من جابر، وهو في غاية الاختناق. بقي جابر جالساً يتململ وهو ينظر إليهم، غير قادر على المغادرة. وفجأة أتته صاحبة المنزل، وجذبته من يده وأخذت تراقصه. لم يكن جابر يعرف الرقص، وما كان الرقص بالنسبة إليه إلا للبنات، ما عدا العرضة والسامري، فهي وحدها ما يمارسه الرجال، ولكنه أخذ يتحرك كما تشاء، داعساً على قدمها بين الحين والحين، فيزداد تعرقه، بينما تبتسم إيثل بدلال، وقد غارت عيناها تماماً. كان في غاية الاستغراب وهي تلصق جسدها الحار بجسده المتعرق، تحت أنظار زوجها الذي كانت عيناه الزرقاوان الصغيرتان تنظران إليهما من دون اكتراث، بل كانت ابتسامة بلهاء تحتل جانب فمه الوردي الصغير، وهو ينفث دخان غليونه بعيداً. لم يجد جابر جواباً لمثل هذا التصرف إلا مقولة قديمة سبق أن سمعها من مطوع الخب وإمام مسجده، من أن لحم الخنزير يقضي على الإحساس بالغيرة لدى الرجال، ولأجل ذلك حرمه الله. لذلك، فالمسلم غيور لأنه لا يأكل الخنزير، وسيبقى كذلك ما دام لا يأكله. ويذكر أنه ذلك اليوم ضحك كثيراً هو وأبو عثمان، في مجلسهما على

النفود، حين قال أبو عثمان: «إلا مسكت الجعري، فقطع أذانه... عجزنا نشبع تمر، ومطوعنا يحدثنا عن اللحم، ولحم الخنزير اللي ما ندري وش شكله»، ثم وهو يحاول كتم ضحكته بطرف شماغه: «ثم وين هالحريم اللي نغار عليهن؟.. لو شفت حريم الشام يا جابر، كان قلت اللي عندنا كرب ما هن حريم»، ويأخذان في الضحك من دون تحفظ، وهما ينظران حولهما خشية أن يكون أحد قريباً منهما، فينتقدهما وتقل هيبتهما. وعرف جابر نساء الشام، وتزوج إحداهن، وإن لم تكن شامية قحة، ولكن هذه المرأة التي تراقصه شيء مختلف تماماً، لم يعرفه أبو عثمان، ولا خطر على باله...

وأثارت أنفاس المسز بلاكستون الحارة على عنق جابر الشبق في جوارحه، ولكنه كان يستعيذ بالله في كل حين، ويردد المعوذتين، ولكن جوارحه تمردت عليه، ولا تريد الخضوع لأوامره. وجلس الجميع يستجمعون أنفاسهم ويرتشفون البراندي والمارتيني، وقد تهدجت أنفاس جابر وهو يحاول استجماع شتات نفسه، إلا أن نظرات صاحبة المكان لا تريد أن تدعه. وغادر الجميع. واستعد جابر للنوم في الكاراج، كعادته عندما يقضي الليلة في بيت رئيسه، إلا أن رئيسه استبقاه لشرب كأس أُخرى، والدردشة حول أمور العمل. لم يكن يستطيع العودة إلى منزله في رحيمة حتى لو أراد، فالوقت متأخر ولا وجود لوسيلة مواصلات. وحتى لو استطاع قيادة «وانيت» الشركة والذهاب، فإن «السيكيوريتي» سوف يشتبهون به ويقبضون عليه، وخاصة عندما يكون عربي السحنة متجولاً في مثل هذا الوقت. وطالت الجلسة، وكثر عدد الكؤوس التي شربها الرئيس، وهو يتحدث عن أمور لا يعرفها جابر، ولا تهمه أساساً، عن أيامه في «كاليفورنيا» و«فلوريدا»، وعن صاحباته هناك قبل الزواج، وكيف تعرف على إيثل في إحدى الحفلات في «دنفر»، وأحبها وتزوجها، وأيام شهر العسل في «كاليفورنيا» و«هاواي» و«برمودا» و«كوبا»، بينما كانت إيثل مسترخية بجانبه على السوفا الكحلية، وقد انفرجت شفتاها وهي تبتسم بتثاقل، وتهز رأسها من دون أن تتحدث، وتسترق النظر إلى جابر بين الفينة والأُخرى، ثم

غادرت إلى غرفتها وهي تحييهم مؤشرة بيدها، ونظرت نظرة أخيرة إلى جابر وهي تبتسم بشكل غريب، لم يعهده جابر في السابق. وما هي إلا دقائق حتى عادت إيثل وهي تقول لزوجها ضاحكة: «I couldn't sleep honey... لم أستطع النوم يا عزيزي وأنتما تتحدثان...»، ورمقت جابر بواحدة من نظراتها المخترقة لأعماق النفس. كانت إيثل قد خلعت رداء السهرة وارتدت قميص نوم وردياً شفافاً، ووضعت «الروب دي شامبر» الكحلي من دون أن تحاول إحكام ربطه، فتراءت تحت النور بشرتها التي ازدادت توردأ مع قميص النوم، في الوقت الذي كان نصفا ثدييها بارزين بتمرد على أي نوع من الثياب، وتعطرت بعطر نفاذ انتشر في المكان كله، أخذ بوب يستنشقه بقوة وهو يقول، وقد حدقت عيناه بالأفق باسترخاء: «آه... منذ زمن بعيد لم تضعي هذا العطر الفرنسي يا عزيزتي... لقد ذكرتني بأيام كوبا وهاواي... لم أكن أعلم أنك تحتفظين بشيء منه؟»، ولم تزد إيثل سوى أن ابتسمت بغنج، وطبعت قبلة على شفتي زوجها بسرعة وهي تقول: «لدي زجاجة صغيرة منه، أنت تعلم أن هذا العطر لا يوجد في أي مكان»، وبعد أن جلست، قالت وهي تشعل سيجارة وتمتصها بقوة، ثم تنفث دخانها باتجاه جابر: «لا أستخدمه إلا في المناسبات الخاصة»، ثم تنظر إلى زوجها وتضحك بغنج واقتضاب، وهي تضغط بيدها على فخذه. وكانت إيثل قد جددت مكياجها، وهي التي كانت تتخلص منه بأسرع ما يمكن في السهرات السابقة التي حضرها جابر، ما أن يخرج آخر الضيوف. وأدرك جابر أن المرأة تستعد للسهرة الحقيقية مع زوجها، فابتسم وهو ينظر إلى «بوب» بحسد على ذلك السعير اللذيذ الذي ينتظره في غرفة النوم، وخيال زهرة وهند يطوفان بخياله. وغادر المستر بلاكستون إلى فراشه مترنحاً، بعد أن غاب عن الوعي تقريباً، تاركاً جابر مندهشاً كيف يمكن له أن يطفئ النار التي تتأجج في أعماق إيثل وهو بهذه الحالة، ولكن ما له وما لهما، عساهما للنار التي تحرقهما.

وهمَّ جابر بالمغادرة إلى الكاراج، إلا أن إيثل منعته وطلبت منه أن

يبيت على «السوفا» في صالة الجلوس، فالجو في غاية الرطوبة في الخارج. أطاعها ممتناً، ولكنه لم يرتح على السوفا، فنام على أرض الصالة، وهو ينظر حوله خشية أن تكون بوفي موجودة، فتلعقه كما تلعق أهل البيت وهو نائم لا يحس. وعندما تأكد من أنها في بيتها في الحديقة الخلفية للمنزل، استغرق في نوم عميق. وقبيل الفجر بقليل، أحس بجسم حار لدن ينسل إلى جانبه، فانتفض بتقزز، خوفاً من أن تكون بوفي قد تسللت إلى المنزل. ولكن رائحة ذلك العطر المثير أخذت تنتشر في خياشيمه، وأنفاس حارة مشبعة برائحة المارتيني تلفح عنقه، ثم بشفتين تنقضان بنعومة على عنقه ووجهه، وصوت كالفحيح يخترق أذنيه... ومع الأنوار الخافتة، شاهد جسماً في غاية البياض يلتف حوله... كلا... لم تكن بوفي، بل صاحبة بوفي... كانت إيثل عارية تماماً، وقد تناثر شعرها الأشقر حول كتفيها، وغطى بعضاً من ثديين يرفضان الاختفاء... حاول أن يبعدها عنه، وأخذ يتعوذ ويحوقل ويقرأ المعوذتين وآية الكرسي، إلا أن ناراً محرقة اجتاحت جوارحه كلها، كما أن رائحتها لا تقاوم، وأصبح عاجزاً عن فعلٍ أي شيء إلا ما يمكن أن يفعل في تلك اللحظة. ومع خيوط الفجر الأولى، التي كانت تتسلل من وراء ستارة واجهة المنزل الزجاجية الكبيرة، كان جابر يحس بطعم تفاح جديد في فمه... تفاح لم يكن بطعم تفاح الشام الذي أعجبه ذات يوم، وإن كان الكل تفاحاً...

١٣

وعاش جابر أياماً في غاية الألم بعد تلك الليلة الساخنة مع إيثل، فقد اجتاحه تأنيب ضمير حارق، كما جهنم ذاتها. هو التقي الورع الذي يخاف الله يزني، ويقع في الخطيئة التي حرمها الله ورسوله، ويخالف شرع الله المطهر؟ لم يدر ماذا يفعل، حتى أنه فكر ذات مرة بالذهاب إلى أحد الشيوخ في الدمام والاعتراف بخطيئته، ولو أدى ذلك إلى رجمه، فهو مُحصن وإن كان في حكم العازب هنا. ولكنه عدل عن الأمر، فقد كانت صورة الحصى

منهارة عليه، والفضيحة بعد ذلك لأهله وعائلته، كافية لإبعاده عن الاعتراف لأحد الشيوخ. كان يريد أن يتحدث بالأمر إلى شخص ما، فلم يجد أفضل من عبد الرسول، رفيقه في اللجنة، وزميله في العمل، وصديقه في هذه البقعة من الأرض. ضحك عبد الرسول عندما أخبره بالقصة، وقال:

ـ حظك يا عم... أحد يطول ولا يسوي!؟..

وأخذ يردد بمرح، وهو يرقص، أهزوجة بناتية معروفة:

يـــا ليتـــنـــي لـــومـــيـــة مـــزروعـــة بـــعـــمـــان
يـــقـــشـــرني عـــبـــد الـــلـــه ويـــاكـــلـــنـــي ســـليمـــان
ســـلـــمـــان يـــاخـــو شـــيـــخـــة يـــا مـــراطـــن الـــعـــجـــمـــان
مـــا قـــصـــرت ســـبـــيـــجـــة خـــدت عـــبـــد الـــرحمـــن

ـ خلك من خرابيطك اليوم... أحر ما عندي أبرد ما عندك... أنا أتألم وأنت تميلح...

قال جابر وهو في غاية الضيق، بحيث كتم عبد الرسول ضحكته، واتخذ قناع الجِد وهو يقول:

ـ ولماذا كل هذا الألم؟.. اعتبر أن ما فعلت هو إذلال لها ولقومها من الأمريكان... يذلوننا في العمل وفي بيوتهم، ونذلهم في نسائهم... ثم...

وتوقف عبد الرسول عن الكلام ريثما يسعل ويبصق على الأرض، ويسحق عقب سيجارته في الطبق المعدني الصغير:

ـ ثم... اعتبرها يا أخي جارية...

ونظر جابر إليه باندهاش، بينما واصل عبد الرسول القول:

ـ لا تبقبق عيونك فيني... نعم جارية... أليست كافرة؟.. لو هزمت قومها في معركة وسبيتها، ألا تكون جارية لك، حلالاً لك أن

تطأها؟.. ولو كان لديك شيء من المال، لاشتريت واحدة مثلها من سوق العبيد في الدمام، وكانت حلالاً لك... ما الفرق بين الأمريكية وأي جارية تباع في سوق العبيد؟.. هون على نفسك، ولا تكن قاسياً عليها...

قال عبد الرسول جملته الأخيرة وهو يضع كفه على مرفق جابر ويربت عليه، ثم وهو يهم بالمغادرة:

ـ وعلى أية حال فعلها من هم أفضل منك... فعلها النبي داود، وفعلها سليمان ابنه كما تقول أسفار اليهود، وفعلها الملكان هاروت وماروت، ولست أفضل من جميع هؤلاء...

وغادر منزل جابر وتركه وحيداً يشرب ما تبقى من قهوة في الدلة، ويراود نفسه في إشعال سيجارة من علبة سجاير عبد الرسول التي نسيها، ويحدث نفسه بصوت عال... كم هو خبيث عبد الرسول هذا... كيف لم أفكر بالمسألة كما فعل؟.. نعم، فهي كافرة، ويجب معاملتها كالجارية... وفي ذلك إذلال للمستر بلاكستون الذي طالما أذلنا. ويرتاح لمثل هذه النتيجة، وينفرج صدره قليلاً، ولكنه لا يلبث أن ينقبض، ويعاود الحديث إلى نفسه... كلا... هذا تحايل على الشرع... ما فعلته هو الزنا بعينه... لا... ليس زنا، فالزنا لا يكون إلا مع مسلمة... بل هو الزنا بعينه، ولكنك تخادع نفسك يا ابن سدرة. واستمر في حديثه لنفسه حتى نام، وتناهشته في النوم أطياف سميح ورفيع وعايش وأبو عثمان وهيلة وأبيه صالح. فقد رآهم يتشاجرون وهو يقف وسطهم عارياً ويبكي، بينما سميح يقف كغرنوق أبيض على شجرة زيتون بعيدة وهو ينظر إليه من دون أي انطباعات واضحة على وجهه. ثم فجأة، يجد نفسه عارياً، وقد اسود لونه كأنه تحول إلى قطعة فحم، وبين يديه طبقان في أحدهما لحم خروف طازج، وفي الآخر لحم خنزير منتن تجوس خلاله ديدان بيضاء، فيمد يده إلى اللحم المنتن ويزدرده، فلا يلبث أن يستفرغ على الطبق، ويعود إلى الأكل منه بعد أن اختلط برجيعه، تاركاً اللحم الطازج من دون أن يُمس. ثم تظهر إيثل فجأة وتتبرز على طبق لحم الخنزير، فيشترك هو وبوفي في لعق مؤخرتها

وهي لا تزال تتبرز، وهي تضحك بهستيريا مرعبة. فينهض من نومه وهو يصرخ، وقد جف حلقه تماماً، وأغرقه العرق، فينظر حوله فلا يجد إلا السكون، فيتعوذ، ويتفل عدة تفلات إلى جانبه الأيسر، ثم ينقلب على جانبه الأيمن ويحاول النوم من جديد، وصوت بحارة مجهولين يأتي من ناحية البحر وهم يغنون جماعة بصوت رخيم:

شـلـنـا واتـكـلـنـا عـلى الـلـه ربي عـلـيك اتـكـالي
عـزيـت يـا مـن لـه الملـك كـريـم تـعـلـم بـحـالي
عـلـمـك بـسـود الـليالي بـشـكـي لـك عـمـا جـرى لي
مـسـكـين أنـا مـسـكـين

وعندما نهض من نومه قبيل أذان الفجر، قرر أن تكون هذه أول وآخر خطيئة في حياته، فاغتسل جيداً، وذهب إلى المسجد وصلّى بعمق ودموعه تبلل وجنتيه اللتين أحرقتهما شمس الصحراء.

١٤

حاول في الأيام التالية أن يغرق نفسه في العمل في الشركة وفي اللجنة واجتماعاتها، لعله ينسى الخطيئة التي وقع في حبائلها بالرغم منه. كان طوال الوقت يعيش صراعاً بين تبريرات عبد الرسول، وذلك الصوت الداخلي في أعماقه الذي يقول له أنه قد ارتكب الخطيئة، وغرق في الإثم. كما كان يحدث نفسه أحياناً بأن ما جرى كان بالرغم منه، فهي التي انقضت عليه من دون مبادرة منه. ولكنه كان يعاتب نفسه بالقول أنه كان بالإمكان مقاومتها، ولكن اللذة الحرام، والخوف على العمل جعلاه يرضخ لمطالب الشيطان... لعنة الله عليك يا مسز بلاكستون... ألم تجدي غيري كي تغويه... ولكنها لم تكن في وعيها، وربما هي نادمة اليوم على ما فعلت... حقاً إن الخمرة هي أم الخبائث... ألم تجعل هاروت وماروت يقتلان ويسجدان للصنم ويقعان على الزهرة؟!.. أنا المخطئ الوحيد حقاً، كان بإمكاني صدها، فهي لا تعي ما كانت تفعل، وعندما تعلم لاحقاً بما

فعلت، فلا ريب أنها سوف تكون ممتنة... ماذا لو قالت للمستر بلاكستون؟.. لا... لن تقول... بل ستقول، وتتهمني باغتصابها، فهؤلاء الناس لا يعرفون الله، ولا يعترفون بنا كبشر مثلهم... لا لن تقول، فلن تفضح نفسها، وتعترف بأنها ضاجعت عاملاً حقيراً... لو كانت مسلمة، لربما استغفرت ربها وأنابت إليه، ولكنها كافرة... وهنا عادت إليه تبريرات عبد الرسول، فانفرج صدره من جديد، ولكنه عاد وانقبض مجدداً، كأقصى ما يكون الانقباض...

حاول خلال هذه المدة أن يعتذر للمستر بلاكستون عن دعواته المتكررة إلى المنزل، مرة بدعوى المرض، ومرة بدعوى ضيوف من الخبـ، ولكن جعبته في النهاية خوت من الأعذار، فذهب مرغماً ليلة رأس السنة، وقد ألقى برأسه إلى الأرض، وهو لا يدري كيف يمكن أن يقابل المسز بلاكستون وجهاً لوجه. كانت إيثل في أكمل زينتها تلك الليلة، وقد تعطرت بذات ذاك العطر المثير للغاية، واستقبلته بجفاء ظاهر وهي تقول: «Where have you been, Jaber?.. أين أنت يا جابر كل هذه المدة... أيجب عليّ أن أركع على ركبتي كي تأتي وتساعدني؟»، واعتذر لها جابر كثيراً، وهو منكس رأسه إلى الأرض، وأدرك أنها تحمل شيئاً من الضغينة عليه، فأصابه ذلك برعب شديد. كان منزل بلاكستون مكتظاً بالضيوف الذين لبسوا قبعات ملونة بدت مضحكة لجابر، وفي أفواههم مزامير مضحكة، وكان واضحاً أنهم تناولوا كميات كبيرة من البراندي والمارتيني والجن والفودكا والتكيلا وويسكي البوربن الأمريكي، حيث اصطفت كل أنواع الخمور على البار المتحرك بين الصالة والمطبخ... أهؤلاء هم رؤساؤهم الذين يسومونهم سوء العذاب في الشركة؟... وحاول أن يخدم الضيوف من دون أن يحتك بالمسز بلاكستون، وهو منكس الرأس خشية أن يقع نظره على نظرها.

وفجأة، انطفأت الأنوار، وصاح الجميع بفرح، وسط اندهاش جابر... هل هم فرحون لانطفاء النور؟!.. ولم يستمر في دهشته كثيراً، إذ أحس في الظلام بيدين تطوقان عنقه، وشفتان تنطبعان على فمه بسرعة،

ثم ينتهي كل شيء بسرعة، كما بدأ بسرعة، ويعود النور من جديد، وقد تعانق الجميع وهم يصرخون «Happy new year... Happy new year...»، وجابر لا يفقه شيئاً مما يدور حوله. وحانت منه التفاتة إلى حيث كانت المسز بلاكستون، فوجدها تبتسم وقد استرخت شفتاها، ونعست عيناها وهي تنظر إليه، بينما كان المستر بلاكستون يدخن غليونه، ويرتشف البراندي، وهو يتحدث إلى المسز نانسي هاملتون، زوجة المستر إدوارد هاملتون، المشرف على منشآت المصفاة، حديثاً ودياً، بينما كان المستر هاملتون، يتحدث إلى المسز إيلينور أدامسون، زوجة المستر ريتشارد أدامسون، رئيس قسم المشتريات، في الوقت الذي كانت المسز مارثا سيمبسون تراقص المستر جيمس ماكدويل، كبير مهندسي المصفاة. كان كل شيء يبدو غريباً وعجيباً لجابر، وكأنه يعيش في عالم من عوالم الجن الغريبة. لقد اندهش في الشام وعمان والقدس، ورأى العجب وما لم يكن يخطر له في بال، ولكن ما يجري هنا شيء ما كان ليتصوره ولا في الأحلام... لا بد أنه لحم الخنزير... أكيد هو لحم الخنزير... وخطر سميح في ذهنه، ولكنه أزاح خياله بسرعة، واستغرق في مشاهدة عالم لم يخطر في بال شهرزاد نفسها... آه لو كان أبو عثمان حياً فيرى ما يراه، وهو الذي كان يعتقد أنه يعرف العالم تمام المعرفة... كلا... لم يعد العالم مكوناً من أنس وجن، بل هو عوالم من الأنس، وأُخرى من الجن، ولا أحد يعرف الحدود بينها...

لم يعد يحتمل دوار المكان واللحظة، فذهب إلى المطبخ، وأخذ يعد بعض الشاي لنفسه، وفتح الباب بين المطبخ وتلك الحديقة الصغيرة، وهو يستنشق هواء كانون العذب في تلك اللحظة وذلك المكان، ويفكر في هذا العالم الذي ألقت به المقادير إليه. كان غائباً مع ذاته، حين أتاه صوت المسز هاملتون المرح الحاد: «جابر... ماذا تفعل هنا وحدك؟». استدار بسرعة، وحاول أن يسيطر على خجله وانفعاله وهو يقول: «لا شيء... لا شيء سيدتي..»، «لا بد أنك عاشق، فالعاشقون هم من يغيبون عن الوجود»،

قالت المسز هاملتون ذلك وهي تضحك برقة، ثم تقترب من جابر أكثر وتنظر إليه في عينيه مباشرة: «هل أنت عاشق يا جابر؟..» لم يدر جابر ماذا يقول، وأحس بحرج شديد، وبدأ عرقه يتصبب غزيراً في تلك الليلة الكانونية وهو يقول: «كيف يعشق من يسعى إلى لقمة العيش يا سيدتي؟!..» غير أن مسز هاملتون لم تمهله طويلاً، إذ طوقت عنقه بذراعيها، ونظرت إليه مباشرة في عينيه، وهي تقول بفم ارتخت مفاصله: «OOh La La، هذا غير صحيح... أنتم الشرقيون ترضعون العشق مع حليب الأمهات... تجوعون وتموتون، ولكن لا يمكن إلا أن تعشقوا... أم هل نجعل إيثل حكماً بيننا؟». وضحكت المسز هاملتون وهي تقول ذلك، بينما كان جابر يعوم في عرقه... إذن فهي تعرف ما جرى!؟.. من الذي أخبرها؟.. ليس هو، فلا بد أنها هي إذن... وقبل أن يعوم جابر في أفكاره، جاء صوت المسز بلاكستون وهي تقول برقة مصطنعة: «نانسي!... ما الذي أتى بك هنا يا عزيزتي؟»، ومن دون ارتباك أو خجل، وهو ما أدهش جابراً، أزاحت المسز هاملتون ذراعيها من حول عنق جابر، واستدارت ناحية المسز بلاكستون، وقد طبعت بسمة واسعة على ثغرها، الذي بدأت التجاعيد الصغيرة تغزوه، وهي تقول: «لا شيء... لا شيء يا عزيزتي... لقد أفرطت في الشراب، وأحببت أن أتناول كوباً من القهوة، وكان جابر هنا يعدها...»، «حسناً... حسناً يا عزيزتي، طالما أنك قد شربت قهوتك، فلماذا لا تنضمين إلى الحفل!؟.. إنهم يفتقدونك هناك... Tedy is missing you there my dear». وغادرت المسز هاملتون، وهي تغمز للمسز بلاكستون، ثم تناهى صوت ضحكها في الصالة. لم تمهل إيثل جابراً كثيراً في حيرته وأفكاره. بل التقطت يده وجرته إلى خارج المطبخ، وأطلا على الصالة وقد خفتت أنوارها، ثم انسلت عبر ردهة ضيقة إلى حيث غرفة نومها وزوجها، وأغلقت الباب، ثم ألقت بنفسها على جابر، الذي كان يتبعها كالأبله، أو كمن شلت كل قدراته وحواسه، ولم يبق إلا الغريزة عارية...

وتوطدت علاقته بإيثل، التي أصبحت لا تستغني عنه. فقد أصبحت تطلب من زوجها إرساله إلى المنزل، بحجة قضاء هذه الحاجة أو تلك، أو تأتي إلى مكتب زوجها في الشركة وتطلب أن يرافقها جابر إلى «الكانتين». وفي أيام كثيرة كانت تطلب من جابر أن يدور بها على الأحياء العربية المحيطة بالكامب، ويقضيان بعض الوقت على شاطئ البحر، وخاصة بالقرب من «أم رحيم»، حيث تلبس إيثل المايوه وتلعب بخفة في البحر، وهي تجر جابراً كي يشاركها المتعة، ولكنه كان يرفض بشدة وهو يلتفت في الاتجاهات كلها، ويردد بينه وبين نفسه: «فضحتينا الله يفضحك...»، ويستعجل الرحيل، بينما تضحك إيثل وهي تقول: «ماذا.. ماذا قلت يا جابر؟..». لقد كانت مجنونة فعلاً؛ فقد طلبت منه ذات مرة أن يمارسا الحب على الشاطئ وفي العراء، عندما وصلا ذات مرة في جولاتهما إلى «الجعيمة» البعيدة، حيث الشمس والبحر والسماء، ولكنه رفض بحزم... أتريده أن يكشف عورته في ضوء الشمس!؟.. حقاً إنها مجنونة، وربما كان الأمريكان كلهم من المجانين. بل إنها طلبت منه ذات مرة أن يذهبا إلى منزله، فوافق بعد تردد.

وفي منزله، ضاجعته عدة مرات على الأرض العارية إلا من بساط متهالك قديم، أو على رمال الحوش المالحة، وكانت تبدو في غاية السعادة لهذه التجربة التي أحست معها أنها تمارس الحب لأول مرة في حياتها، كما كانت تردد لاحقاً، وكانت تبدو سعيدة بتلك القروح التي أحدثتها الرمال المالحة الخشنة في جسدها اللدن. كان جابر يجد كل الإثارة في تلك اللحظات مع إيثل، إلا أنه كان يشعر بالتقزز من طول شعر عانتها، وقد اندهش كثيراً عندما رأى شعر عانة أشقر لأول مرة في حياته. كانت إيثل تريد معاودة تجربة المنزل، ولكن جابراً كان يرفض بعناد، فماذا يقول الجيران عن عامل أعزب تأتي معه امرأة غريبة، وأمريكية أيضاً، كما أن صراخها وعواءها عند الوصول إلى الذروة فضيحة بحد ذاتها. وكانت إيثل تضحك

بحبور وهي ترى وجهه المتجهم وهو يرفض طلباتها في الذهاب إلى منزله وتقول: «كم أنتم معقدون أيها الشرقيون!... عاشقان يريدان ممارسة الحب، فما شأن الآخرين بهما؟!...» وفرشت بعد ذلك بساطاً بسيطاً على أرضية كراج بيتها كانت تتعاطى الحب عليه عندما يكون جابر موجوداً، أو ينام عندهم بعد إحدى السهرات كالعادة، وتكون في ذروة بهجتها عندما تكون بوفي هناك تراقب العملية وهي رابضة على الأرض، ثم لا تلبث إيثل أن تحتضنها بعد الانتهاء من المضاجعة، وتلعق بوفي وجه إيثل بحبور وبهجة. وأصبحت إيثل مهووسة به، كما أنها كانت شبقة بشكل لا يحتمل، إذ لا يكادان ينتهيان، حتى تطلب المعاودة من جديد، حتى أنه شك أن في فرجها دودة تنهشه، كما كان جابر يقول لصاحبه عبد الرسول. كان جابر ينسى نفسه وهو معها، فيغرق في أحضانها، ويعوم في لذة لم يعهد لحرارتها مثيلاً من قبل. ولكنه حين ينفصل عنها، تعود النار المحرقة تأكله من الداخل، فيلجأ إلى الصلاة، وإلى البكاء، وإلى الفضفضة لصاحبه عبد الرسول، ولكن النار لا تهدأ، ونفسه لا تريد أن ترحمه، حتى يعود إليها، فينتقل من نار إلى نار... ينسى نار الضمير وتبدأ نار السعير واللذة المحرمة...

١٦

طوال أيام علاقته بإيثل، كان سؤال محرق يلاحقه: هل يشك المستر بلاكستون فيما بينهما، أم أنه لا يدري، أم أنه يدري ويتصنع عدم المعرفة؟ فنظراته إليه في الأيام الأخيرة تدل على أن في نفسه شيئاً منه، ولكن تصرفاته معه لا توحي بأي اختلاف، فهل تهيئ له الخطيئة ذلك؟ ولكن لا... فعلاقته مع إيثل، وكثرة طلباتها إياه، لا يمكن أن تخفى على أحد. كما أنها أصبحت تلاطفه علناً، وأمام زوجها في الحفلات والسهرات التي يكون جابر موجوداً فيها، كما أنها صارت تؤنب زوجها بعصبية عندما يأمر جابر بالخدمة في هذه الحفلات، وجابر محرج لا يدري ماذا يقول، فلا يجد إلا الانصراف والمكوث في المطبخ، أو في الحديقة الخارجية ريثما يلتقط

أنفاسه وهو يرثي لنفسه وكيف أصبحت.

وخلال ربيع ذلك العام، جاءت أنباء مثيرة جعلته يغرق في الاجتماعات مع أصحابه من عمال النقابة، وينسى إيثل وآلامها. فقد أعلن اليهود دولتهم في فلسطين، وهجمت الجيوش العربية على فلسطين لإنقاذها، ولكن الهزيمة كانت في المرصاد. واعترفت أمريكا بالدولة اليهودية الجديدة «إسرائيل»، بعد خمس دقائق من إعلانها فقط. أثارت هذه الأنباء الجميع، وحمّلوا أمريكا مسؤولية «النكبة»، كما أصبح الجميع يدعونها، ومسؤولية أوضاعهم المتردية، ومع ذلك فإن الأمير يساندهم على حساب أهله وبني قومه. كتبوا الكثير من المنشورات ووزعوها في رأس تنورة وبقيق والظهران، تدعو إلى الوقوف في وجه الأمريكان والأمير، وقرروا الإضراب عن العمل والتظاهر ضد الشركة والأمير. وتدفق العمال في اليوم الموعود من رأس تنورة وبقيق بكل وسيلة نقل ممكنة، وبعضهم جاء ماشياً، وتجمعوا في الظهران وهم يطلقون الصيحات التي تلعن أمريكا والشركة، وتطالب بالمساواة في الحقوق. ووجد جابر في نفسه حماسة لم يعهدها في أي وقت من الأوقات، وأحس بسعادة غريبة، ورضى عن النفس لم يعهده منذ زمن بعيد. ورأى سميحاً بين المتظاهرين، وهو ينظر إليه ويبتسم، فحاول شق الصفوف والوصول إليه وقلبه يخفق، ولكنه ما أن وصل إلى حيث سميح، حتى تفاجأ بأن من كان يظنه سميحاً لم يكن سميح، بل أحد العمال المتظاهرين... ولكنه كان سميحاً، أنه متأكد من ذلك كما أنه متأكد من أن الشمس سوف تشرق غداً... بإذن الله...

وانقضت قوات الأمن وعبيد الأمير على التظاهرات والمتظاهرين، وأصبحوا ينقلون بالعشرات إلى السجون، والعصي تلهب ظهورهم. وسادت الفوضى، وتفرق المتظاهرون في كل حدب وصوب وهم يحاولون الهرب من العُصي والزج في السجون. ولم يدر جابر إلى أين يذهب. فكر في الذهاب إلى السعودي كامب، ولكن لا بد أنه محاصر بقوات الأمن، ثم أنه ليس ملجأ آمناً. ولم يدر بنفسه إلا وهو قابع وراء صخرة في الجانب الشرقي من

سفح الجبل، وعادت إليه ذكرى الحديث مع سميح في تلك الليلة الصيفية الرطبة، ولكن سرعان ما نسي كل شيء في ظل الرعب المحيط. كان يرى اللوريات وهي تمتلئ برفاقه وزملائه وتذهب إلى حيث المجهول، ولكن الغريب أن لا أحد اكتشف مكانه أو قبض عليه، رغم أن الجبل وسفحه مكشوفان تماماً. وبقي في موقعه لا يريم حتى جُن الليل، وبدأ الرعب يجتاحه من جن الجبل وهوامه، بعد أن اختفى الإنسان. لم يدر ماذا يفعل وإلى أين سيذهب، ثم فجأة أحس بيد تربت على ظهره... أصابه رعب قاتل، وأيقن أن أحد الجن أو أحد أفراد الأمن قد اكتشف مكانه، وهو إلى باطن الأرض أو إلى سجن العبيد محمول لا ريب. استرجع عدة مرات ثم التفت إلى الوراء وهو مستسلم لمصيره، وكانت المفاجأة الأشد... إنه سميح بعينه، وعصا الزيتون التي وصفها أبو عثمان في يده، وهي تضيء بنور أخضر هادئ في الظلام المحيط. وعقدت الدهشة لسانه، فلم يستطع قولاً. نظر إليه سميح وهو يبتسم، وأشار إلى ناقة عمانية حمراء وكأنها من نوق عنترة التي جلبها من عند الملك النعمان، وأمر جابراً أن يركب أمامه وهو يقول: «كانت الناقة معنا دائماً. ولن تتخلى عنا اليوم... هيا». كل ذلك يجري وجابر مدهوش، فهو لا يدري من أين جاء سميح ولا من أين جاءت الناقة. وتقدمه سميح، وركب على ظهر الناقة، وأشار إلى جابر أن يركب أمامه، فأطاعه وهو غير واع بذاته وما يفعل، ولا يدري كيف يمكن لهما أن يخترقا الحصار المحيط على ظهر ناقة. ولم يلبث سميح أن أخرج ريشتين بيضاوين من جيبه، غرس إحداهما في جانب الناقة الأيسر، والأخرى في الجانب الأيمن، ثم غمغم بكلمات لم يتبينها جابر، ولم تلبث الريشتان أن تحولتا إلى جناحين عظيمي الاتساع، سدا المشرق والمغرب معاً. وأخذت الناقة ترتفع في الهواء، ولم تلبث أن أخذت تسبح في السماء، حتى أنه رأى بيوت «سينير ستاف» الظهران تحته تماماً، كما رأى قوات الأمير المنتشرة في الدمام والقطيف، ثم رأس تنورة. وما هي إلا لحظات، حتى كان في حوش كوخه الرملي في رحيمة. وما أن حطت الناقة في المنزل، حتى استعاد جابر وعيه بالمحيط، وأخذ يتلفت حوله، ولكن لا وجود لسميح أو

الناقة، مجرد نجمة خضراء كانت تلمع بشدة في الأفق الشرقي من بعيد. هل كان يحلم، أم أنه «خبل»... أخذ يحدث نفسه... ولكن كيف؟... ها أنا في البيت، فأين سميح والناقة؟.. إن كانت المسألة حلماً ووهماً، فما الذي أتى بي إلى البيت؟... وتذكر قول عبد الرسول أن المهم ليس الحقيقة أو الوهم، بل الإيمان هو الذي يصنع الأشياء... ولكن كيف؟... هل يصنع الإيمان ناقة تطير؟.. ربما، ألا يطير العمانيون على سعف النخيل، كما أخبره عبد الرسول ذات مرة، فيعملون هنا ويبيتون في دورهم هناك؟ ألم يكونوا يطيرون على البساط السحري في قصص ألف ليلة وليلة التي كان أبو عثمان يدمنها؟. ولكن ذلك من السحر، وهو ليس بساحر، إن لم يكن حديث خرافة لا أساس له من الصحة... وسميح... هل كان وهماً هو الآخر؟.. لقد رآه، وتحدث إليه، وجلس أمامه على الناقة، ورأى السينير ستاف بيتاً بيتاً... كل شيء يتعلق بسميح لغز في أعقاب لغز، ولن يحل هذه الألغاز إلا سميح نفسه... وتذكر حادثة شهدها بنفسه عندما كان صغيراً. فقد كان يحاول الحصول على بعض حبات البلح قبل أن تنضج، فكان يرميها بالحجارة من بعيد من دون نتيجة. وفجأة ظهر سميح وسأله إن كان يريد رطباً، فأجاب بنعم. ومن دون طول انتظار، رأى سميحاً يرتفع عن الأرض حتى يصل إلى رأس النخلة، ويأخذ الكثير من بلحها الأخضر، ثم يعود بهدوء إلى حيث جابر الذي يجد بين يديه رطباً في غاية الحمرة، وألذ من أي رطب ذاقه في حياته. والغريب في الأمر أن «الشمراخ» الذي جنى منه سميح الرطب، لم ينقص حبة واحدة. لم يحدّث أحداً بهذه الحكاية، خوفاً من عقابه لرميه النخلة بالحجارة، ونسيها مع الزمن، ولكن ها هي تعود إلى ذاكرته بعد أن طار على الناقة... وعندما كانت عيناه تغفوان تلك الليلة، كان يتمنى لو أنه طلب من سميح أن يوصله بناقته العجيبة إلى الخب... فقد اشتاق إلى الطهارة والبراءة، بعد طول معاناة مع النجاسة والألم. فقد أصبح يشعر أن ذاته أصبحت أكثر سواداً من الحجر الأسود، بعد أن كانت أكثر بياضاً منه عندما نزل من الجنة في أول العهد. فالخطايا التي سودت الحجر، هي ذاتها التي سودت روحه، ولكن «المقسوم حاصل

والهم زيادة... المقسوم حاصل والهم زيادة»، وغفت عيناه على ذلك...

١٧

عندما استفاق في اليوم التالي، بدا له كل شيء كأنه حلم... ولكنه في بيته في رحيمة، والتظاهرات كانت حقيقة يوم أمس... أو هل كانت حقيقة؟... لبس ملابسه على عجل، وصلّى الفجر منفرداً، وانطلق إلى العمل. كان يريد التأكد من شيء واحد... هل كانت تظاهرات الأمس حقيقة أم حلماً، فقد شككته حكاية الناقة بنفسه. واستقبله «بوب» في العمل بترحاب ومودة غريبة، وأثنى على رجاحة عقله التي جعلته لا يشارك في تظاهرات «الهمج» بالأمس. إذن لقد كانت التظاهرات حقيقة، ولا بد إذن من أن يكون سميح والناقة من الحقائق، واستراح لهذا الاستنتاج. وسأل رئيسه بخبث كيف عرف أنه لم يشارك في تظاهرات الأمس، فابتسم بوب وهو يقول بصوت يتصنع الحكمة: «Easy my friend، المسألة بسيطة يا جابر... لو كنت في الظهران بالأمس، لقبضوا عليك. ولو لم يقبضوا عليك، لما كان بإمكانك قطع مسافة ستين كيلو متراً بين الظهران ورأس تنورة في ليلة واحدة، خاصة وأن قوى الأمن في كل مكان، ورأس تنورة نفسها محاصرة طوال الأمس وليلة البارحة، لا أحد يدخل ولا أحد يخرج، ثم...»، وتوقف بوب عن الحديث ريثما يشعل غليونه، «ثم، كانت كل البيوت مراقبة، ولم يرك أحد تخرج أو تدخل... هل رأيت؟... القضية قضية منطق، ومن تمسك بالمنطق لا يضل، وهذا عيبكم أيها الشرقيون... برافو جابر... لقد أثبت إخلاصك للعمل والشركة، ومن أجل ذلك سوف أوصي بسفرك إلى تكساس في أسرع وقت ممكن». قال بوب ذلك، وهو يربت على منكب جابر، بينما كان دخان غليونه يثير اشمئزاز جابر. وبينما كان جابر يهم بالمغادرة إلى مقر عمله، قال له بوب من بين أسنانه القابضة على الغليون: «By the way... إيثل اتصلت مبكراً، وهي قلقة بشأن التظاهرات، وسألت عنك وهي ترجو ألا تكون قد شاركت فيها... سأتصل بها الآن وأطمئنها، ولكن ليتك تذهب إليها بنفسك... تستطيع أن

تعتبر بقية اليوم إجازة... وأيقن جابر أن بوب يعرف كل شيء بينهما، ولكن كيف يمكن أن يكون بكل هذا الهدوء وهو يعلم أن عرضه قد هتك؟... لا بد أنه لحم الخنزير... أكيد لحم الخنزير...

١٨

كانت إيثل في غاية السعادة وهي ترى جابراً أمامها، وكانت أكثر سعادة وهي تعلم أنه لم يشارك في التظاهرات. كان جابر يود أن يخبرها بمشاركته في التظاهرات وقصة سميح والناقة، ولكنه تردد كثيراً. وعندما أخذت إيثل تتحدث عن حق اليهود في أرض الميعاد التي منحهم الله إياها، وكيف سيدخلون الحضارة والمدنية إلى المنطقة، وعن الشركة وكيف أدخلت الحضارة والمدنية إلى البلاد، وعن بربرية المتظاهرين، وتخلف السكان «المحليين»، استشاط جابر غضباً، وأخبرها أنه شارك في التظاهرات، وأنه عاد على ناقة عمانية حمراء مع سميح، وأخبرها بحماسة قصة سميح كلها. ضحكت إيثل وهي تستمع إلى حكايات جابر، وقالت بدلال واستهتار معاً: «Oh baby... أنتم الشرقيون متعلقون بالسحر والأجواء السحرية... جمل يطير، وبساط سحري يطير، ومصباح علاء الدين، وخاتم سليمان، وشخص يلتقط البلح طائراً، وعفاريت تذهب وتجيء... ذاك في أذهانكم فقط، تريدون تحقيق كل شيء، وامتلاك كل شيء ببساطة من دون عمل... just like that...»، وفرقعت إيثل بأصبعيها وهي تقول ذلك، ثم قالت وهي تقترب بوجهها من جابر: «الله والقدر، هذا هو عيبكم يا جابر... لقد تركنا الاعتماد المطلق على الله منذ زمن، فأنعم الله علينا... القدر هو ما تصنعه أنت بيديك يا جابر، وليس له علاقة بالله أو الشيطان... God helps those who help themselves... فالله لا يساعد إلا من يساعدون أنفسهم... هكذا قال الرب نفسه...»، ثم وهي تبتسم بإغراء، وتقترب بوجهها أكثر من وجه جابر: «ولكنني أحبكم رغم كل شيء... فأنتم فلتة زمانكم في العشق وفنون الحب، وهذا ما يهمني... ولكن ليتك كنت أنجليكانياً يا جابر...»، قالت إيثل ذلك، ثم

هزت يدها في الهواء باستهانة، ثم وهي تزفر بقوة: «كلا... لا أريدك انجليكانياً أو غير ذلك... أريدك أن تكون جابراً فقط... جابر الأسمر، والوجه الوسيم الصارم، والشعر الأجعد الفاحم، والبشرة القاسية، وأشياء أُخرى... أحياناً أحس أنك بطل توراتي يطل عليّ في القرن العشرين... شمشون أو ديفيد أو يوشع... لا بد أن السحر مرض معد، فقد أصبحت واقعة تحت تأثيره...»، قالت إيثل ذلك وهي تلقي برأسها إلى الوراء وتضحك، ثم تغمز جابر بعينها، وقد انفرجت شفتاها بشكل مثير، ثم تمسك بذقن جابر وتطبع عليه قبلة سريعة، وتقول بحزم: «يجب أن تسافر يا جابر إلى أمريكا... يجب أن تسافر كي تتخلص من أوهام الشرق وأساطيره، رغم حبي لها... سوف أحاول مع بوب من أجل تسفيرك هذا الصيف معي، حين أغادر في إجازة هناك... سوف ترى عالم السحر هناك، ولكنه سحر العمل وليس سحر الأوهام والأساطير»، ثم سحبته من يده إلى الكراج، وتبعتهما بوفي...

ومارس جابر معها الحب هذه المرة بكل قسوة وبغض، ولكنها كانت مسرورة بكل هذا البغض في ذلك الحب، لدرجة أن عواءها أخاف بوفي، التي انطلقت إلى زاوية بعيدة في الكراج وهي تئن كأنها ضُربت، من دون أن تعطف عليها إيثل، وهي الحريصة على مشاعرها الرقيقة، كما كانت تقول... بل إن إيثل في تلك المرة أخذت تطلب منه أشياء غريبة، إذ بعد انتهيا، أتته بسوط جلدي وطلبت منه أن يضربها بقسوة على إليتها وظهرها، وجابر في غاية الاندهاش. لم تطاوعه نفسه على ضربها بقسوة أول الأمر، ولكنها كانت تصرخ فيه أن يضربها بكل ما لديه من قوة... وأطاعها، وأخذ جلدها يتحول إلى حمرة الدم، وهي تصرخ صراخاً لا يدري أهو صراخ لذة أم ألم، فيتوقف للحظات، ولكنها تأمره أن يستمر... ثم فجأة، وبعد أن تحولت بشرتها إلى لون القرمز، انقضت عليه بقسوة، ومارست هي الحب معه هذه المرة وبعنف غريب لم يعتده منها في السابق، وفحيحها يكاد يصل إلى كل مكان، بينما كان عرقها يغرق كل ذرة في جسد جابر

النحيل... ولكن الغريب أن جابراً استمتع هو الآخر بهذا الطقس الجديد في معاشرة إيثل، وأخذ يضربها من جديد، بينما كانت بوفي قابعة في زاويتها لا تجرؤ على التقدم ولعق وجه صاحبتها كالمعتاد...

ولكن حديثه الأخير مع إيثل أثاره وجرحه من الداخل فعلاً، وطغى على إحساسه بالذنب والخطيئة، الذي لا يريد أن يتركه بعد كل معاشرة مع إيثل... أهذا هو رأيهم بنا... قال وهو يناجي نفسه... مجموعة من الكسالى والحالمين الواهمين، لا يصلحون إلا للجنس والعشق وفنون الحب؟.. نعم إن رجال الخب يفخرون بقدراتهم على الفراش، والشيخ إبراهيم نفسه كان يزهو بقدراته عندما تصله شائعات الخب عن سبب كثرة زيجاته، وأنه لا يصبر ولا ليلة واحدة عن المرأة، وكان أبو عثمان يغتاظ من بعض الشائعات التي كانت تصفه بعدم «الرجولة» لعدم زواجه. ولكن أن لا تكون فالحاً إلا في الفراش... تلك قضية أُخرى... الخب... ألا ليتني كنت قادراً على أخذها إلى الخب كي ترى الشقاء بعينها، وترى كيف نعمل ونعرق من الأذان إلى الأذان، ولكن الصحراء لا ترحم... والشمس التي تتلذذ بها إيثل ونانسي ومارثا وصويحباتهن على بركة السباحة في «الريكرييشن سنتر»، أو على شاطئ البحر، عدوة أهل الخب، بقدر ما هي صديقة عجائز البيض... ثم، ألا ترى كيف نعمل ونعرق في الشركة وآبار النفط، من أجل دريهمات معدودة لا ندري كيف نسد بها هذه الحاجة أو تلك، وهي التي تطعم بوفي، تلك النجسة، أفخر معلبات «الكانتين» القادمة من أمريكا مباشرة من أجل خاطرها وخاطر بقية كلاب الشركة... ليتك يا سميح تظهر، فتخرس ألسنة هؤلاء الكفرة... لا... قطعاً هي متحاملة على العرب والشرقيين... بل هو تحامل موروث على المسلمين منذ أن كان هناك إسلام ومسلمون... الله لا يساعد الذين لا يساعدون أنفسهم... استشهدت بكلام إنجيلهم المُحرَّف، ولم تستشهد بقول الحق: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»... وألم تر كيف كانت تتحدث عن أعداء الله من اليهود بإعجاب وتعاطف شديدين؟... صدق جل من قائل:

«ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم»... ولن أتبع ملتهم مهما حدث... إنني أكرههم، وأكره إيثل والشركة وأمريكا، ولعن الله تلك النقود التي يمنون علينا بها، رغم أنها من عرقنا ومن خيرات بلاد المسلمين. وطافت في ذهنه فجأة آيات من القرآن الكريم... «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها لا يُبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون...» أكيد أن الله أنزل هذه الآيات في الأمريكان ومن شابههم... هم من يريدون الحياة الدنيا ولا يكترثون بالآخرة... فليتمتعوا بالدنيا، وفي الآخرة نار السعير... وارتاح جابر لهذه النتيجة، وهو يتخيل مستر بلاكستون ومستر هاملتون وإيثل ونانسي ومارثا وهم جالسون على جمرة حمراء ملتهبة، وقد أخذت أدمغتهم تغلي وتفور، وهم يصرخون ويستنجدون، فلا يُسمعون أو يُنجدون... لا... عاد إلى نفسه من جديد... لن أذهب إلى أمريكا ولا إلى أي بلد من بلاد اليهود والنصارى والمتعلقين بزخرف الحياة الدنيا... سأعود إلى الخب حيث القلوب الصافية، والنيات البريئة... نعم، سوف أعود إلى الخب، واللي به نصيب، ما يضيع... واللقمة اللي ما تقسم تطيح من الأثم... توكلت على الله وتركت نفسي لقضائه وقدره، بالرغم من إيثل... ولأول مرة يحس بهدوء يغمره من الداخل منذ وقت طويل...

١٩

وعاد جابر إلى الخب... كان يريد الاستقالة، ولكن المستر بلاكستون والمستر هاملتون أقنعاه بأخذ إجازة طويلة يقرر خلالها ما يريد، وبوب يذكره بقرب السفر إلى أمريكا، فالتقرير الذي رفعه عنه إلى المستر «أوليجر»، رئيس الشركة، كان ممتازاً. ولكن جابراً كان قد قرر الذهاب بلا رجعة. وفي ليلة سفره، ضرب إيثل كثيراً، بقسوة لم يكن يعلم أنه قادر عليها، وضاجعها كثيراً، وكانت الدموع تحتل عينيها طوال الوقت. ولأول مرة في حياته، لا يشعر بالاشمئزاز من بوفي وهي تتمسح به، بل تركها هذه المرة تلعق وجهه...

الخب... دائماً هو كما هو... كل شيء يتغير إلا هو... كل شيء كما تركه... النخل والحايط، البيت، الصحراء، والشمس... عانق عثمان وصالحاً ومزنة وعثمان السايح بشوق عارم... مارس الحب بحب مع زهرة وهيلة بشبق استغرباته، ولكنهما كانت سعيدتين به... زار قبور علي ورفيع وعلياء وأبي عثمان ووالده والشيخ إبراهيم وسلمان... ذهب إلى المسجد كثيراً، وصلّ كثيراً، وبكى كثيراً... جلس على نفود سميح، وراقب الشمس حمراء تموت، والقمر الفضي يحيا في ليالي الصحراء الصافية... تابع «القميري» في هجرته، وتأمل الرطب وهو يحمر ويصفر ويُتمر... كان سعيداً... ولكن الغريب أن صورة إيثل لا تريد أن تفارق خياله... إنه يراها في وجه زهرة، وعلى فراش هيلة، وأخذ يتفحص فرجي زوجتيه الحليقين بتمعن غريب، وسط استغرابهما واستهجانهما الشديدين... إيثل... هذه الشيطانة اللعينة، إنها لا تريد أن تتركه لسعادته الصافية البريئة. ولكنه كان قد حسم الأمر... لن يعود إلى الظهران أو رأس تنورة... سيعمل في أسواق بريدة، أو يذهب إلى الشام حيث هند وسليمان، أو حتى مصر، بل وجزر الواق الواق، وأعماق النوبة والسودان... ولكنه لن يعود إلى هناك... كان في الحقيقة مذبذباً، فجزء من نفسه يدفعه إلى البقاء، وجزء يطلب منه العودة... قتلك الله يا «بوب»، كأنك تعلم خفايا النفوس. وحاول أن يشغل نفسه بأي شيء، فقام بتوسعة البيت وبناء ثلاث غرف إضافية، على أمل أن تترك زهرة وعثمان منزل أبي عثمان ويعيش الجميع في بيت واحد. وانتهت أعمال التوسعة بسرعة، وعادت نفسه تحاصره من جديد.

كل شيء أصبح يذكره بإيثل، رغم أنه يكرهها، وخاصة بعد الحديث الأخير إلا أنه لا يكرهها... جزء من نفسه يمقتها، وجزء لا يستغني عنها، وهو لا يدري في الحقيقة إن كان يكرهها أم يكره نفسه، يريدها أم هو الشيطان اللعين... لقد مرت أيام السعادة الصافية، وحلت أيام الحاجة والملل... كل يوم مثل الذي قبله، فليس للزمن أي معنى في الخب... غريب هذا الأمر... لم يشعر يوماً بالملل في الخب، حتى عندما عاد من

الشام... ولكنه اليوم يشعر بملل عجيب، وضيق نفس غريب. حتى «نفود سميح» لم يعد يمنحه ذلك الإحساس بالراحة، بل إن سميحاً نفسه أصبح ذكرى باهتة في نفسه، وبدأ في التلاشي منذ حديثه الأخير مع إيثل. لم يعد له من صاحب إلا كلاب شاردة على النفود، كانت تأتي إليه فيطعمها مما تيسر وهو يبتسم ويقول لنفسه: «كل الكلاب واحدة، وكلها نجسة... فأي حظ جنته بوفي!؟... ليس إلا القدر الذي تنكره إيثل...»، ثم يضحك وحيداً، ويعود إلى هيلة.

ذات ليلة، عجز عن معاشرة زهرة رغم المحاولة، وأخذت تعاتبه برقة على أنه لم يعد هو منذ فترة، فواتته فجأة فكرة مجنونة... تناول «عسيباً» جافاً، وعرى زهرة تماماً، وأخذ يضرب إليتها وظهرها بقسوة، وقد توتر كل شيء فيه... لم يكن يتوقع أن يكون هذا رد فعلها، وقد هم بمعاشرتها... لملمت ملابسها، وألقت العباءة على كتفها، وخرجت تصرخ وتولول: «لقد جن جابر... سحروه الأمريكان...»، ولم تتوقف إلا عند باب هيلة، التي أخذتها بالأحضان، ومسحت دموعها بغدفتها، بينما كانت زهرة تقول بسرعة وهي تنتحب: «كان يريد جلدي بالعسيب... بل أنه جلدني، وأنا لم أفعل أي شيء يغضبه... هذي آخرتها؟... هذي آخرتها؟...» وأخذت هيلة تحاول تهدئتها وهي تقول: «اللي جانا ما هوب جابر... إنه ظل جابر... أما جابر فقد ضاع...»، وتنظر إلى جابر بعينيها الواسعتين بكل حيرة. كانت كلمات هيلة كحجارة سجيل قضت عليه تماماً... ونام تلك الليلة في الحظار، وبكى على نفسه كثيراً... وعاوده حلم لحم الخنزير مرة أُخرى، إلا أن إيثل كانت تتبرز على رأسه، وتبول على صدره هذه المرة، وقد تحولت إلى أفعى بيضاء تلتف حوله، وتلعق وجهه بلسانها المشقوق، وقطرات من السم تنساب من نابيها، فيغرق فيها، ثم يستيقظ يصرخ...

٢٠

وجاءته هيلة ذات صباح، وأيقظته من نومه وهي تصرخ برعب وفزع، وتختلط الكلمات في فيها: «زهرة... زهرة قرصتها حية...»،

فهب من نومه، وهو يحاول استيعاب الخبر، وأمسك هيلة من كتفيها وهو يهزها ويقول باضطراب وسرعة: «ماذا قلت؟... كيف؟... أين؟... متى؟»...، ووسط دموعها التي أخذت في الجريان بغزارة، أخذت تروي القصة، وقد غصت بعبراتها:

ـ جاءتني باكية بعد صلاة الفجر، وهي تشكو تصرفك الأخير معها، وتقول كيف هنت عليه وأنا التي فضلته على رجال الخب أجمعين؟!... لقد تغير جابر كثيراً منذ أن جاء من عند الأمريكان... حتى في الفراش، أحس أنه ليس معي، ولا حتى معك أنت يا هيلة... هذه أمور تحسها المرأة كما تعلمين...

وكأنما أصاب كلام زهرة وتراً حساساً عند هيلة، فقد كانت تحس بالإحساس نفسه، ولكنها كانت تحاول تكذيب نفسها. وواصلت زهرة الكلام وقد خف نحيبها، ونظرت إلى هيلة بعينيها الخضراوين المبللتين وقالت بمرارة:

ـ أنا يفعل بي ذلك جابر، وبدون سبب... لم يفعله معك، وأكيد أنه لم يفعله مع الشامية... فلماذا أنا؟... ألأنني كنت أرملة ولم أكن عذراء حين تزوجني، أم لأنني كنت عبدة رقيقة، فهان عليه أمري؟... نعم هو ذاك... لأنني كنت عبدة... لست أنا من اختار أن يكون جارية تباع وتشتري، فما كتبه الله وقدره لا يمكن لمخلوق أن يتحداه، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين... ما كان العشم يا جابر... ما كان العشم...

ـ حاولت تهدئتها...

قالت هيلة:

ـ وذهبت وإياها إلى البرية المحيطة، لعل الشمس المشرقة، ونسمات الصباح الندية النادرة ترطب روحها، وتلطف من الحرارة التي تعتمل في داخلها. وجلسنا نرتاح أسفل طعس قريب من سور السماوي، وزهرة لا تزال تنتحب، وأنا أحاول تهدئتها بأن ما جرى سحابة صيف وتمر. وفجأة

صرخت زهرة، وقفزت من مكانها، ثم رأيت حية بيضاء في غاية الدقة والنعومة، لم أر مثلها في حياتي، تتسلل بسرعة من تحتها، وتختفي في جحر قريب من قليب حايطنا... ثم... ثم...

فهزها جابر من جديد بعنف وهو يقول:

ـ ثم ماذا؟... تكلمي...

ـ أخشى ألا تصدقني، وتتهمني بالخبل...

ـ لا عليك... لقد صدقنا ما لا يصدق... تكلمي...

وبعد تردد قالت هيلة:

ـ لقد خرجت الحية من فرج زهرة... أقسم بالله العظيم أنها خرجت من فرج زهرة مباشرة...

والتقطت هيلة أنفاسها المتهدجة وهي تقول برعب ظاهر:

ـ وقالت زهرة أنها ترى امرأة بيضاء تنظر إلينا من داخل القليب وهي تبتسم، وقد تدلت الحية من فمها، ثم اختفت في جوفها. امرأة لم ترها في الخب من قبل، ولم تر مثلها في أي مكان آخر... لم تستمر طويلاً، إذ سرعان ما غابت في أعماق القليب... نظرت إلى حيث أشارت زهرة، فلم أر شيئاً، ثم ذهبت ونظرت في القليب، ولكني لم أر أحداً... هل تصدقني يا جابر؟...

واعترت جابراً رعشة شديدة، وأحس بأنفاسه تختنق، وحديث الحية البيضاء يرعبه...

ـ المسكينة...

قالت هيلة:

ـ لقد لدغتها الخبيثة في فخذها. نزعتُ غدقتي بسرعة، وربطت الفخذ فوق مكان اللدغة بإحكام، ولم يكن ذلك سهلاً، فأنت تعرف كم

أصبحت سمينة منذ تزوجتها...

قالت ذلك وهي تنظر إلى جابر نظرة ذات مغزى، ثم قالت:

- وساعدتها على العودة إلى بيتها، وأسرعت في المجيء إليك وإخبارك...

قفز جابر، وهيلة في إثره إلى بيت زهرة، وهناك كانت زهرة ممددة على بساط في الحوش، وقد تحول مكان اللدغة إلى بقعة دهماء منتفخة، ووجهها إلى صفرة الكركم، وجفت شفتاها اللتان أصبحتا بلون الخروب، بينما كانت عيناها مسبلتين تماماً. أحضر جابر سكيناً بسرعة وهو يقول: «أرجو ألا نكون قد تأخرنا... الله يستر...»، وشق مكان اللدغة، حيث تدفق دم أسود غزير، وأخذ يمتص الدم بجنون، وقد تحول كله إلى قلب يخفق وهو يبصق الدم على الرمال بجانبه. كانت زهرة قد بدأت ترتجف بشدة، حين طلب جابر من هيلة أن تذهب إلى الشيخ أحمد بن سلمان السماوي، وتحثه على المجيء سريعاً، لعل لديه بعض الرقى النافعة في مثل هذه الظروف. وفي أثناء انتظار الشيخ، فتحت زهرة عينيها، ونظرت إلى جابر وظل ابتسامة يلوح على شفتيها وهي تقول:

- الحمد لله... أخيراً سأعرف معنى أن تكون حراً بالكامل... سامحك الله يا جابر، وسامحك الله يا أبا عثمان... لم تنسيا يوماً أنني كنت جارية تباع وتشترى...

وحاول جابر أن يقنعها بأنها تخذرف، إلا أنها كانت في غاية الحزم وهي تقول:

- أوصيك بولدي عثمان...

ثم وهي تنظر إلى الأفق بعيداً:

- ياله من حمام أبيض جميل، ذاك الذي يرفرف هناك... كل شيء جميل ومريح... أريد أن أركب ذلك الحصان الأبيض... ما أجمل جناحيه

وهو يعانق الشمس... ما أجمل الشمس، لم تعد محرقة، بل هي عروس يجلل رأسها نسر ذهبي، وفوقه يجلس أبي... إن أمي تمد لي يديها وتبتسم... كم أنا سعيدة... أنا قادمة يا أمي... إنها هناك تنتظرني في قلب الشمس...

ورفعت يديها إلى السماء وهي تبتسم، ثم لم تلبث نظراتها أن استقرت، وسقطت يداها إلى جانبها... وأدرك جابر أن زهرة ماتت، فالموت لا يحتاج إلى برهان... تصل رائحته إلى أعماق النفس، قبل أن تستقر العينان وتُسبلا...

٢١

ودُفنت زهرة إلى جانب أبي عثمان، بعد صلاة العصر من يوم الجمعة... لا بد أنها ممن رضي الله عنهم، أخذ أهل الخب يتهامسون، فقد ماتت يوم الجمعة، ودفنت يوم الجمعة، وغبطها شيبان الخب على موتتها تلك... يا له من خب حقير، يحسد حتى على الموت... قال جابر لنفسه، وقد بدأ يكره الخب وأهله، وحتى نفسه... وبقي إلى جانب قبرها بعد انصراف المعزين وهو يبكي بحرارة... هو سبب موتها... لو لم يضربها بالعسيب لما ماتت... لعنة الله على إيثل، هي السبب، فقد لاحقته حتى في الخب... ألم تخرج من فرج زهرة كما قالت هيلة، ورأتها زهرة في القليب، والحية تغوص في جوفها؟... بلا خرابيط وكلام فارغ، فزهرة كانت تهلوس من أثر اللدغة، ولم يكن ما شاهدته صحيحاً... ولكن ماذا بشأن ما قالته هيلة؟.. لعنة الله على الأمريكان، هم السبب... بل غفر الله لي، فأنا السبب... لم تطاوعه نفسه على لعن نفسه، بعد أن كاد، فاليوم جمعة، وفيها ساعة لا يرد فيها دعاء، وربما صادف لعنه لنفسه تلك الساعة، وحينها يكون مطروداً من رحمة الله إلى أبد الآبدين، وليس له إلا سقر مقراً ومستقراً مع إبليس وشياطين الجن والإنس...

وجاء من يقول له:

ـ كفاك حزناً... لقد ذهبت زهرة إلى النعيم ورب رحيم، فأعانك الله على الجحيم...

وجفل من الصوت غير الغريب عليه، ونظر حوله، فلم ير شيئاً، وعاد إلى النحيب... وهزته يد من الخلف، وصوت يقول:

ـ قلت لك دعك من نحيب النساء... لست السبب، فالله يسبب الأسباب، والهدف واحد... ماتت زهرة لأن إجازتها في هذه الدنيا انتهت، كما أن إجازتك على وشك الانتهاء...

نظر برعب إلى الخلف، وكان أبو عثمان يقف هناك... كما عهده دائماً... في قمة الأناقة والبساطة... ثوب أبيض ناصع، وشماغ مكوي بعناية، وعقال غليظ في غاية الإبداع، وساعته الفضية تتدلى من جيبه، وهي تلمع بشكل غريب في ظلام الليل... أحس بالرعب يجتاحه... أراد الهرب، ولكن يد أبي عثمان الغليظة أمسكته وهو يقول:

ـ الهرب لا يحل مشكلة، وإلا كنا من الهاربين جميعاً... هربت كثيراً، ولكني وجدت نفسي في النهاية كفأر في مصيدة، أو هر في زاوية مغلقة... لا تكن هراً أو فأراً... كن جابراً فحسب... كن جابراً فحسب...

وأجفله مرور ابن آوى شارد من بعيد، فالتفت إليه، ثم عاد إلى أبي عثمان، ولكنه لم يكن هناك... لقد اختفى. ثم ظهر عايش فجأة وأمامه كانت هرة سوداء تتمسح به، وحية سوداء ضخمة تلتف حول كتفيه. كان عايش يضحك ويقول: كلكم مجرم، وكلكم في الخطيئة تقعون، ولكنكم لا تلعنون إلا ابن السماء... ثم يقهقه ويتحول إلى تيس حالك السواد تقدح عيناه شرراً غريباً، وقد امتلأ فمه بلعاب كثير، كان يقطر من فمه إلى الأرض، فيتحول إلى ديدان سوداء تسعى على الرمال، بينما كانت إيثل، العارية تماماً، تعتلي ظهره وتحتضنه، وهي تحك فرجها بشبق على ظهره المقوس، وكان شعرها الذهبي يختلط بشعره الحالك السواد. ومن بعيد كان

هناك ناقة بيضاء باركة تنظر من بعيد، وهي تجتر أعشابها بهدوء، ومن ورائها يقف بعير حالك السواد، وقد أزبد فمه وانتفخت أوداجه، وكأنه في موسم الجماع وقد حرموه الناقة، أو كأنه على وشك الانتقام من أحدهم... لم يكن يعرف شكل عايش، ولكنه مستعد لأن يقسم أن الذي أمامه هو عايش. وأصابه رعب شديد هز كيانه كله، خاصة بعد أن أخذت الهرة في المواء وهي تقترب منه، والليل على وشك الاندحار. ثم فجأة انشقت الأرض بين قبر زهرة وقبر أبي عثمان، وأخذت تخرج منه مخلوقات سوداء لها صوت مرعب وتتجه إليه، بينما كان عايش يضحك بصوت كالخوار، والقطة تموء بصوت كصوت طفل يبكي، وفحيح الحية يختلط بالجميع، فلم يع نفسه إلا وهو منطلق إلى البيت، واندس في فراشه وهو يرتعش بشدة، بينما كان الخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود من الفجر، ونجمة الصباح ترسل خيوطها الزهرية في الأفق، وبدت كأنها أكبر حجماً من المعتاد...

ولم يعد لأي شيء مذاق بعد وفاة زهرة... لا زبدة هيلة، ولا تمر مزرعة الثنايا، ولا قرصان السماوي، ولا الحياة ذاتها... كل الخب أصبح بلا طعم... لقد قتل زهرة... أرق مخلوق في الخب، وأجمل من جاء إلى الخب... ألا بد من الموت كي ندرك قيمة الناس والأشياء؟.. ألا بد من أن يُصلب ابن مريم، كي ندرك قيمته؟.. ألا بد من أن نُطرد من الجنة كي ندرك قيمتها؟.. ألا بد من أن يقتل قابيل أخاه هابيل كي ندرك فظاعة الدم المسفوك؟.. كم أنت حقير أيها الإنسان... تريد أن تكون إلهاً، وأنت مجرد دودة تسعى في الغرف المظلمة... وتتحدث إيثل عن معجزة الإنسان... يا لك من حمقاء يا إيثل... وهل قضيت على الذباب من حولك كي تدعي سيادة الإنسان؟!..

وقرر أن يغادر الخب من جديد، فقد ضيَّع ما جاء يبحث عنه، وهو الذي كان بين يديه، وضيَّعه من دون أن يدرك مدى قيمته. ولكنه قبل أن يغادر، ذهب إلى المقبرة، ووقف بين قبري زهرة وأبي عثمان، وأخذ يحدق في الأرض ملياً، ثم يتحسسها بخوف... هنا كان الفج الذي انبثق من

المجهول تلك الليلة، وهناك كان يقف عايش، ومن هنا سارت تلك الكائنات السوداء... أكنت أحلم؟.. أخذ جابر يحدث نفسه... وقفل راجعاً وهو يهز رأسه ويقول: «لا بد أني كنت أحلم... لا بد أني كنت أخذرف... وإلا فإنني مجنون... ربما كنت مجنوناً... ربما كنت مجنوناً... فمن يفعل فعلي لا بد أن يكون مجنوناً... نعم... أنا مجنون... أنا مجنون... وغاب خلف النفود وهو لا يزال يحدث نفسه...

سفر اللاهين

«قال الحكماء خلق الله تعالى الخلق ليظهر وجوده ولو لم يخلق لما عُرف أنه موجود وليظهر كمال علمه وقدرته بظهور أفعاله المتقنة المحكمة لأنها لا تتأتى إلا من قادر حكيم وليُعبد فإنه يُحب عبادة العابدين ويثيبهم عليها على قدر فضله لا على قدر أفعالهم وإن كان غنياً عن عبادة خلقه لا تزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا تنقص من ملكه معصية العاصين... ويروى أن آدم عليه السلام لما خلقه الله تعالى وعرض عليه ذريته وجد فيهم الصحيح والسقيم والحسن والقبيح والأسود والأبيض فقال يا رب هلا سويت بينهم، فقال الله تعالى: إني أحب أن أُشكر. قال أبو الحسن الفتال: خلق الله تعالى الملائكة للقدرة وخلق الأشياء للعبرة وخلقك للمحنة... وقال أبو القاسم الحكيم: إن الله تعالى جعل ابن آدم بين البلوى والبلى، فما دام الروح في جسده فهو في البلوى، فإذا فارق الروح الجسد فهو في البلى فأنى السرور وهو بين البلوى والبلى... وقال بعض الحكماء: يا ابن آدم انظر إلى خطر مقامك في الدنيا إن ربك حلف فقال: لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين. وإن إبليس حلف فقال: فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين. وأنت يا مسكين بين الله تعالى وبين إبليس مطروح ساه لاه...»

(«قصص الأنبياء»، المُسمى «عروس المجالس» للثعلبي).

١

وغادر الخب عائداً إلى الشركة، فكل شيء في الخب أصبح يذكره

بزهرة، وكل شيء تآمر لخنق أنفاسه. حتى نظرات هيلة هذه الأيام، أصبحت مثل نار تخترق أعماقه، وتجعله يشعر برجفة تعتري كل ذرّة في كيانه. وبقعة الدم على رمال الحوش بقيت لعدة أيام من دون أن تزول، رغم المياه الكثيرة التي صُبت عليها. وحتى عندما زالت، بقيت بقعة دهماء واضحة لا تريد أن تزول. بل إنها اتسعت حتى أصبحت بحجم نصف الحوش وأخذ الناس يطلقون اسم «الحوش الأدهم» على بيت أبي عثمان السايح، ولم يلبث مع الأيام أن تحول إلى «حوشدهام». لم يكن لديه رغبة حقيقية في العودة إلى الشركة، ولكن لم يكن لديه خيار آخر، فأين يذهب؟... الشام؟... ليس لديه رغبة في ذلك، بل إن كرهاً غريباً لهند أخذ يتسلل إلى نفسه في أعقاب وفاة زهرة، من دون أن يكون قادراً على دفعه أو تفسيره. كما أنه كان يتمنى في أعماقه أن يُقبض عليه في رأس تنورة، إذ لعل السجن يكون جزءاً من جزاء يتمناه لنفسه عقاباً له على ما اقترفت يداه. لم تعارض هيلة هذه المرة في ذهابه، كما أنها لم تطلب منه الذهاب معه، فقد كانت هي الأُخرى بحاجة إلى الاختلاء بنفسها بعد وفاة زهرة، وتلك الأحداث العجيبة التي لم تكن تتصور أنها يمكن أن تحدث في خبهم الوادع، وكانت تصارع مزيجاً من الكره والحب كلما اختلت بجابر.

وفي الشركة، أخبره المستر بلاكستون أن الإدارة وافقت على ابتعاثه إلى تكساس، للحصول على دبلوم في إدارة المنشآت البترولية، من معهد أوستن للتقنية البترولية. لم يكن متحمساً للسفر، ولا رغبة لديه في العمل، ولا يفكر في العودة إلى الخب. تساوت لديه الأمور، فترك مقاليد الأمور لصاحب الأمر يفعل به ما يريد. سيقضي ثلاث سنوات في بلاد مجهولة، لا يحب أهلها ولا يحبونه. ثلاث سنوات بين كفار لا يعرفون الله، ولا يثقون بغير المال والعمل، ولا حياة إلا ما يعيشون. ولكنه لم يعد مهتماً، كل ما في داخله أصبح ميتاً، رغم أنه لا يزال يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. حتى الصلاة، التي كانت قرة عينه، أصبح لا يؤديها كما يجب، بل أصبح يشعر بالخجل أن يقف أمام الله وكل تلك الخطايا تحاصره، ولكنه يتعوذ ثم يقول: «من تاب، تاب الله عليه»، ولكن هل تاب فعلاً؟ إنه يشك في

نفسه وفي قدرتها على التوبة كثيراً. وصار يخاف من لحظات الصلاة، إذ كان كلما أراد السجود، وجد ذلك الدود الذي كان يخرج من فم عايش يعبث على الأرض أمامه. وكلما انتصب وهمّ بقراءة ما تيسر من القرآن، انتصب عايش أمامه وهو يضحك. وكلما جلس للتشهد الأخير، احتلت زهرة كل تفكيره، وبرزت هيلة وهي تهز رأسها مؤنّبة، ولا تختفي هذه الصور رغم أنه أصبح لا يقرأ إلا المعوذتين وآية الكرسي في صلواته كلها.

وعلم أن عبد الرسول الحشي، وعلي عبد الحسين، وحسن الشرعاني قد اعتُقلوا، بينما فر صالح الدهناوي إلى أوروبا الشرقية، ثم استقر به الحال لاجئاً في موسكو، كما عرف فيما بعد ذلك بمدة، وكان ذلك آخر العلم به. لم تقلقه تلك الأخبار، ولم يشعر بالرعب أو الخوف، بل كان يتمنى لو يُقبض عليه هو أيضاً، فرغبة الحياة ذاتها اختفت من بين جوانحه. بل أنه كان يراود نفسه في الاعتراف لإدارة الشركة بمشاركته في التظاهرات، ولكن شيئاً في داخله كان يمنعه في آخر لحظة، لعله كان بقية من حب الحياة، الذي لا يترك الإنسان حتى في اللحظات التي يمقت فيها الحياة كلها.

كان كل ما يهمه في تلك الفترة أن يبتعد عن إيثل ولا يقابلها... كان يشعر بالفزع كلما طافت في ذاكرته بالرغم منه. وبالرغم من بغضه الشديد لها، فإنه لم يكن قادراً على منع نفسه من التفكير فيها. وما يؤلمه أكثر، هو أنه يفكر فيها، ويتذكر تلك الجلسات الحميمة معها، فتستولي الشهوة على ذرات كيانة، فلا يلبث أن يبعدها، ولكن صورة الشيطانة البيضاء، كما أصبح يسميها، تعود فتحتل كل مخيلته. أحياناً كانت تأتيه أفكار جنونية... لما لا يذهب إلى بوب ويعترف له بكل علاقته مع إيثل؟!... ربما عندها سيثور بوب، ويمنعها من لقائه، وربما ألغى بعثته وزجه في السجن... وذاك أقصى المنى. ولكن... ما يدريه أن بوبي لا يعلم بما بينهما وهو راض!؟... كلا... مستحيل... هل هناك رجل في العالم بهذا الشكل، مهما كانت جنسيته أو دينه؟!... ولكن لحم الخنزير... ليس إلى هذه الدرجة... ربما إلى تلك الدرجة!...

مستحيل. . . لا أدري. . . ويفزع إلى الصلاة، ولكن الشيطانة البيضاء لا تريد تركه. . .

كانت إيثل سعيدة جداً بقرار ابتعاثه، وخاصة أنه سيرافقها حين تغادر لقضاء الصيف في بلدها. لقد حدث «المكتوب» وقابلها، كما كان جابر يعزي نفسه، وهو يتقلب بين الفرح والترح. . . فقد أعطاه المستر بلاكستون إجازة مفتوحة حتى موعد السفر، كي يستعد. . . يستعد؟. . . كيف يكون الاستعداد؟. . . وطلب منه الاستعانة بإيثل، فهي على أهبة السفر أيضاً، بعد عامين من السجن، كما كان بوبي يقول وهو يضحك. . . أي سجن هذا؟، كان جابر يقول، ليتنا كنا كلنا من المساجين. . . ويضحك وحيداً، فيفطن إلى نفسه، ويكتم الضحكة. وذهب إلى إيثل على مضض، وشيء في داخله سعيد، ولكنه يقمعه بعنف. حتى إذا ما اجتمع إلى إيثل لأول مرة بعد العودة من الخب، لم يكن هناك إلا الجذل، وغابت كل الصور الأُخرى. بل إنه منذ أن أوقف «وانيت» الشركة أمام البيت، لم يعد يرى إلا الشيطانة البيضاء، وترك الحرية لبوفي أن تلعقه في أي مكان تشاء. كانت إيثل عاتبة عليه لتجنبه لقاءها منذ أن عاد، ولكنها قالت أن ذلك أجج الشوق في جوانحها، ثم وهي تبتسم بخبث: «Playing hard to get?.. Ha?..» . . . تتمنع كي تزداد غلاوة. . . حسناً. . . فقد ازددت غلاوة فعلاً. . .»، ولم يحاول أن يناقشها فيما تقول، بل سحبها إلى الكراج مباشرة. . .

٢

ـ لقد أصبحت قاسياً جداً يا جابر هذه الأيام!. . لقد أوجعتني كثيراً آخر مرة. . . قالت له إيثل هامسة وهي تبتسم، ثم وهي تعض على شفتها السفلية، وتسبل عينيها بإغراء:

ـ ولكن ذلك كان رائعاً. . . It was wonderful. . .

قالت وهي تلقي ما تبقى في كأس المارتيني في جوفها، بينما كان جابر يحاول أن يرتشف جرعة من البراندي في الحديقة الخلفية للمنزل، وكان

بوبي يشوي بعض الستيك غير بعيد عنهما وهو يشرب آخر قطرات من البيرة في علبته. إنه يعلم عما تتحدث، وشعر بالخجل لما حدث تلك الليلة في آخر لقاء بينهما. فبعد أن انتهيا من الكراج، جلس وإياها في الصالة. صبت لنفسها كأساً من المارتيني الذي تحبه كثيراً، واسترخت على السوفا الوثيرة، وقد بدت كقطة أثقلها الطعام. نظرت إليه بعينين متثاقلتين وهي تقول بنصف ابتسامة:

ـ لِمَ لا تشرب يا جابر؟...

ـ لأنه حرام... أنا مسلم، هل نسيت ذلك؟

قال جابر منتفضاً...

ـ كلا... لم أنس... ولكن أليس حراماً عندكم ما نفعله في الفراش أيضاً؟..

قالت إيثل وهي تبتسم ابتسامة ماكرة. وفاجأه سؤالها... فعلاً... أخذ يحدث نفسه... هل الفاحشة أن تزني فقط؟... ولاحت زهرة في الأفق وهي تبتسم، ومن دون شعور، ذهب إلى البار وصب لنفسه كأساً من البراندي تجرعه بسرعة، فلن يشرب إلا ما يشرب المستر بلاكستون والمستر هاملتون. أخذه دوار لذيذ، بعد أن كادت معدته تقذف ما تجرعه، واختفت زهرة من خاطره، ولم يبق إلا هذه الشيطانة البيضاء، وتناول كأساً ثانية... وانقض عليها يقبلها بعنف في كل مكان تصل إليه شفتاه... أتته بالسوط، فضربها بعنف، وهي تطلب منه أن يتوقف، إلا أنه لا يتوقف... وتدفقت الدماء غزيرة من ظهرها، فألقى السوط جانباً، وأخذ يمسح الدم وهو في غاية الشبق... أراد أن يضاجعها هناك، ولكنها جرته إلى غرفة النوم، وهناك كانت تعوي كالذئب من دون أن يسمعها أحد إلا بوفي... ولأول مرة منذ علاقتهما تطلب منه هي أن يتوقف.. وها هو الدوار اللذيذ يستولي على رأسه من جديد، فقال وهو يرفع كأسه:

ـ لنشرب نخب أمريكا... بلد الحب والجمال... أرض الأحرار،

وبلد الشجعان... ثم أخذ يدندن النشيد الوطني الأمريكي، ثم توقف، ورفع كأسه وهو ينظر إلى بوب بعينين حمراوين كالنبق في قمة نضجه:

ـ وبلد المال والأعمال، والحياة الطيبة...

فردد بوبي: «آمين... آمين... سوف أشرب نخب ذلك، I'll drink to that...»، وفتح علبة بيرة أُخرى من البراد بجانبه، المليء بقطع ثلج أرامكو المستديرة والمخرومة، بينما كانت إيثل تقول:

ـ لقد تغيرت كثيراً يا جابر... ذلك أفضل...

الأفضل، الأسوأ... لا يهم... ليفعل الله ما يريد...

قال ذلك وهو يرى قابيل يقتل أخاه هابيل، وإبليس وهو ينكح الحية، وبيضات أربع تفقس ويخرج منها أربعة جوابر...

ـ لقد بدأت تصبح متحضراً...

قالت إيثل، وهي ترتشف آخر قطرات المارتيني في كأسها، وقد بدت كبوفي ذاتها بعد أن تتناول وجبة العشاء. أراد أن يجرها إلى الكراج، أو إلى أي مكان، فقد تحول إلى شبق مُجسد، ولكن بوب هناك، وما زال رأسه يدور. كانت هي الأُخرى قد بدأت تدور، وأخذت تقبله من دون خجل. بوب هناك، ولكنها لا تهتم:

ـ لا عليك منه...

قالت وهي تقترب بوجهها من وجهه، وتحاول إلصاق شفتيها بأي شيء متاح من جسده:

ـ هو سعيد بما يجري...

لم يفهم ماذا تعني، ولكنه لا يستطيع. وابتعدت عنه فجأة، وهي تقول:

ـ إف... ما هذه الرطوبة الشنيعة؟.. سوف أستحم، لعل الماء يخفف

من حدة الحرارة والرطوبة. وغادرت إلى الداخل، بينما كان بوب يفتح علبة أخرى من البيرة، وإيثل في الداخل تصرخ طالبة منشفة نظيفة. لم يتحرك جابر، وكان بوب مسترخياً وهو ينظر إلى جابر بلامبالاة. وحين جاءت الصرخة مرة أخرى، نظر بوب إلى جابر وهو يقول: «المناشف كلها في غرفة النوم... إسعفها بواحدة...». وبتردد ذهب جابر إلى غرفة النوم، وكانت إيثل مستلقية هناك، ولكن من دون سوط هذه المرة... أكيد أنه يعرف... قال جابر لنفسه... كل شيء يؤكد أن بوب يعلم بما بينهما... فعندما عادا من غرفة النوم، كان بوب مسترخياً على كرسيه الهزاز، وقد غارت عيناه وهو يقول: «كان حماماً رائعاً... أليس كذلك يا عزيزتي...»، «نعم... أشعر أني امرأة جديدة...»، «ذلك شيء جيد يا عزيزتي... ذلك شيء جيد...»، ونهض مغادراً الحديقة، ونظرات جابر المتعجبة تتابعه. وبعد لحظات، غادرت إيثل، وأخذت معها زجاجة المارتيني، وتركت جابراً لوحده مع الرطوبة والبراندي والستيك المحترق. وما هي إلا لحظات حتى تعالى صوت العواء... لا بد أنها إيثل... قال جابر لنفسه... وشعر بالغيرة تغلي في دمائه، وحاول أن يقمع مشاعره، فتلك زوجة مع زوجها... ولكنه لم يستطع المقاومة... إنه يشعر بشيء يأكله من الداخل... وبعد الكأس الخامسة، قفز من دون وعي إلى غرفة النوم، فوجد العجب... كانت إيثل تجلد بوب بعنف وقسوة، بالسوط ذاته، وكانت بوفي هناك تراقب ببلاهة. لم تفاجأ إيثل بجابر، ولكن بوب قال:

ـ جابر!... أي حظ سعيد!... إجلدني كما تجلد إيثل... من فضلك...

إذن فهو يعرف... قال جابر لنفسه... وتناول السوط، وأخذ يهوي به على ظهر رئيسه... وأصبح جلد بوب كدراقة طازجة قادمة لتوها من الشام... واضطجعت إيثل بجانبه، ودعت جابر إلى النوم بينهما... وكانت تجربة رهيبة...

٣

«ويروى عن النبي، صلّ الله عليه وسلم، أنه قال: ما من آدمي إلا وقد عمل خطيئة أو همّ بها إلا يحيى بن زكريا فإنه ما عمل خطيئة ولا همّ بها، ولقد قال ربِّ أرني إبليس كما هو وأعزم عليه أن لا يكتمني شيئاً سألته عنه فأوحى الله تعالى إلى إبليس أن أنت عبدي يحيى بن زكريا كما هبطت إلى الأرض ولا تكتمه شيئاً يسألك عنه، فأتاه وقال يا يحيى أنا إبليس أمرني ربي أن آتيك كما هبطت إلى الأرض، فنظر إليه يحيى فإذا على رأسه خطاطيف تطير وحقواه محفوفتان بأكوار كور ههنا وكور ههنا وفي رجليه خلاخيل فقال ما هذه الخطاطيف التي تطير على رأسك قال بها أخطف عقول بني آدم، فقال ما هذه الخلاخيل التي في رجليك قال أحركها لبني آدم حتى يغني أو يُغنى له قال فأي ساعة أنت على ابن آدم أقدر قال حين يمتلئ شبعاً ورياً قال فهل وجدت في نفسي شيئاً قال لا ولا على حال قال نعم قُدم إليك طعامك ذات ليلة وكنت قد صمت فشهيته إليك حتى أكلت أكثر من عادتك فتثاقلت عن وردك وعادتك، فقال يحيى لا جرم لا أشبع أبداً فقال إبليس لا جرم لا أنصح آدمياً أبداً...».

وألقى جابر «قصص الأنبياء» على الكرسي الخالي إلى جانبه، وأخذ ينظر إلى تلك الزرقة التي تحيط به من يمين وشمال، وفوق وتحت وهو يفكر... أوحى الله إلى إبليس؟!... وأطاع إبليس الله؟!... فكيف يكون شيطاناً؟.. إنه مطيع يوحى إليه، فكيف؟.. إرادة الله هي التي جعلته شيطاناً... إذاً لماذا يُلعن وفي الآخرة يُعذب... أستغفر الله العظيم... هذه أمور لا نعلمها ويجب أن نقبلها كما هي... ولانت في أذنه كلمات عبد الرسول... كل شيء بلا معنى من دون إيمان... لنؤمن بالحجر أو الشجر... ولكن المهم هو أن تؤمن من دون سؤالٍ... وصكت أذنيه ضحكة عبد الرسول وهو يقول: «بلا هدف أو إيمان، لِمَ لا ننتحر... فالموت والحياة سيان في غياب الإيمان»... ثم من أنت يا جابر السدرة حتى تفكر في مثل هذه الأمور، وقد غرقت في الخطيئة كما تغرق إبرة في

بحر لا قرار له. وطافت بذهنه قصة سليمان النبي حين أراد معرفة قرار البحر، فقال له ملك عظيم أن قوماً ركبوا البحر منذ أربعين عاماً، فعاب عليهم مركبهم، فحاولوا إصلاحه، فسقط منهم قدوم ما زال ساقطاً لم يبلغ القعر حتى هذه اللحظة... نعم من أنت يا جابر حتى تفكر في ما جرى وما قُدر من غابر الأزمان إلى أن يفنى الزمان والمكان... ونظر إلى المياه اللامتناهية من تحته، وأخذته رعدة وهو يفطن إلى أنه معلق بين الأرض والسماء...

وعادت به الذكرى إلى تلك الليلة التي قضاها بين بوب وإيثل، وأحس بالغثيان يجتاحه، وظلام أسود شنيع يلف كل شيء حوله، واختفت الزرقة المحيطة ولم يبق إلا الظلام الدامس. كيف سولت له نفسه القفز إلى غرفة نومهما تلك الليلة، وكيف أطاع بوب وإيثل في النوم بينهما، وضاجع إيثل وبوب يجلس على كرسي قريب وهو يراقبهما عارياً؟!.. وشعر بمعدته تكاد تخرج من حلقه وهو يتذكر بضبابية كيف مارس الخطيئة مع إيثل تلك الليلة، وبوب ينظر إليهما مبتهجاً، من دون أن يُحس بأي إحراج أو خجل، أو ذنب... لعن الله الخمرة فهي أم الكبائر، ولعن الله المرأة فهي أصل كل بلاء، ولعن الله إبليس صاحبها... وما ذنب المرأة؟... زهرة امرأة، وهيلة وهند، وأمه وأخته... قاتل الله النفس الأمارة بالسوء... وعاد إليه إحساسه المظلم صباح تلك الليلة المشؤومة، وكيف كان مشمئزاً من نفسه بحيث لو كان باستطاعته مفارقتها لفارقها، ولكنها ملتصقة به بلا انفكاك، إلا أن يشاء الله... والله لا يشاء... وأخذ يستغفر ويستعيذ، وهو يشعر بقطرات من دمع ساخن تنحدر على وجنتيه الجافتين. مسحهما بكفه العارية، وتناول الكتاب من جانبه مجدداً، وأخذ يقلب في صفحاته، ثم أخذ يقرأ:

«... إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بني آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك في زمن إدريس النبي عليه السلام وعيروهم بذلك وأنكروا عليهم وقالوا هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما

ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا قالوا سبحانك ربنا ما كان ينبغي أن نعصيك قال الله تعالى اختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأرض فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة وأعبدهم... فركب الله فيهم الشهوة التي ركبها في بني آدم وأهبطهم إلى الأرض وأمرهم أن يحكموا بين الناس بالحق ونهاهم عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر... فما مر عليهما شهر حتى افتتنا وذلك أنه اختصم إليهما ذات يوم الزهرة وكانت من أجمل النساء... فلما رأياها بقلوبهما فراوداها عن نفسها فأبت وانصرفت ثم عادت في اليوم الثاني ففعلا مثل ذلك فقالت لا إلا أن تعبد ما أعبد وتصليا لهذا الصنم وتقتلا النفس وتشربا الخمر فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء فإن الله نهانا عنها فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح من خمر وفي نفسها من الميل إليهما ما فيها فراوداها عن نفسها فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس فقالا: الصلاة لغير الله أمر عظيم وقتل النفس عظيم وأهون الثلاثة شرب الخمر فشربا الخمر فانتشيا ووقعا بالمرأة وزنيا بها فرآهما إنسان فقتلاه. قال الربيع ابن أنس وسجدا للصنم فمسخ الله الزهرة كوكباً.... فلما أمسى هاروت وماروت بعد ما قارفا الذنب همّا بالصعود إلى السماء فلم تطاوعهما أجنحتهما فعلما ما حل بهما فقصدا إلى إدريس عليه السلام فأخبراه بأمرهما وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى... ففعل إدريس ذلك فخيرهما الله بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع فهما ببابل يعذبان...».

وألقى جابر الكتاب بجانبه، وقد احمرت عيناه، واغرورقتا بدمع كثير، وأخذ ينظر إلى الزرقة اللامتناهية حوله، وهو يستغفر الله، وقد انزاح شيء من الغمة التي كانت تحتل صدره، وقد طاف خب السماوي في ذهنه، فابتسم وطعم الملوحة في فيه...

ـ هل كنت تفكر بي؟.. جفل من صوت إيثل الضاحك، التي جلست بجانبه من دون أن يشعر، وهي تحمل كأساً مملوءة شمبانيا حتى منتصفها. كانت إيثل تركب الدرجة الأولى في رحلة «ألبان أم» من لندن إلى

نيويورك، ولكنها لا تستقر في مكانها كثيراً، إذ تترك مقصورتها وتأتي للجلوس بجانب جابر وهي لا تكف عن تقبيله، والتعلق بذراعه كل حين. كانت إيثل تبدو في غاية السعادة، وتتصرف وكأنها فتاة صغيرة تلقت أول هدية في حياتها. وكان جابر يشعر بالحرج الشديد من تصرفات إيثل، ولكنها كانت تقول له وهي تضحك: «لا عليك يا حبيبي... نحن في العالم المتحضر الآن... ذاهبون إلى أمريكا حيث الحرية التي لا تجدها في أي بلد آخر... تصرف على سجيتك وكما تُحب، ما دمتَ لا تؤذي أحداً...»، ثم تضحك وترتشف جرعة من الشمبانيا، وتميل عليه وتلثمه بسرعة. وينظر جابر إلى الركاب القليلين حوله، فلا يرى أحداً يهتم. الكل ممسك بكتاب أو جريدة أو نائم. وتلاحظ إيثل عينيه المحمرتين، وبقايا الدمع في عينيه، فتجفل، وتقول بحنان كان واضحاً في نبرات صوتها:

ـ Oh my darling... آه يا عزيزي!.. هل كنت تبكي؟..

وأشاح جابر بوجهه عنها، وحاول أن ينظر من النافذة، وهو يشعر بكره شديد نحوها. ولكنها تدير رأسه إليها وهي تقول:

ـ أعلم كم تعاني، فالغربة شنيعة... أنا أعلم ذلك...

ثم وهي تمسح عينيه بمنديلها الحريري، وتحاول الابتسام وقد غامت عيناها الزرقاوان هي الأُخرى بالدمع:

ـ حاول أن تتمتع باللحظة... لقد حظيت بفرصة يحلم بها الجميع... سترى عالماً غير العالم، وستعيش حياة غير الحياة...

وأخذت كلماتها ترن في أذنه... سترى عالماً غير العالم... وستعيش حياة غير الحياة...

ـ هل تريد مشروباً؟.. أنت بحاجة إلى مشروب.

قالت إيثل وهي تمسح عينيها المبتلتين، ويفتر ثغرها عن ابتسامة واسعة:

ـ أستطيع أن آتيك به مجاناً من مقصورة الدرجة الأُولى، أما هنا فهو يكلفك مالاً...

ثم وهي تضحك:

ـ إنك ذاهب إلى أمريكا، حيث لا شيء بالمجان.. No free lunch...

ـ كلا... شكراً... لا أشعر بالرغبة في ذلك...

ـ أنت حر... It's up to you...

ثم تتناول «قصص الأنبياء»، وتقلبه بين يديها وهي تبدي إعجابها بالنقوش التي تزين الكتاب:

ـ كتاب جميل... عما يتحدث؟..

ـ قصص الأنبياء... كتاب رائع...

قال جابر بحماسة، بينما إيثل تلوي شفتيها، ثم تقول:

ـ وهل يذكر موسى ويوشع واشعيا ويوحنا ويسوع والرسل، أم أنه عن محمد ورسله فقط؟..

ـ ليس للنبي محمد، صلّى الله عليه وسلم، رسل، فهو ذاته الرسول...

قال جابر وهو يحاول كتم غضب أخذ يتأجج في داخله، ثم قال:

ـ كل الكتاب عن موسى وعيسى وما بينهما من رسل، وما قبل موسى... عليهم السلام أجمعين...

ـ جميل... جميل... ولكني بصراحة لا أحب كتب المواعظ وقصص الأنبياء والرسل والقديسين...

ثم وهي تهز سبابتها في الهواء:

ـ لا تفهمني خطأ Don't misunderstand me فأنا أنجليكانية تقية، أؤمن بالمخلص يسوع المسيح... ولكني كنت أضيق ذرعاً بتلك الحكايات عندما كنت أذهب مع أمي إلى الكنيسة أيام الأحد...

ثم وهي تضحك:

ـ الحمد لله... لا نذهب إلى الكنيسة إلا يوماً واحداً، أما أنتم فتذهبون خمس مرات... يا إلهي... Oh my God... how could you?... كيف تتحملون ذلك؟..

وشعر جابر بالحنق على هذه الشيطانة البيضاء، فهي تتحدث عن الأنبياء والرسل، وكأنها تتحدث عن بعض المعارف. وحاول العودة إلى الزرقة المحيطة، ولكن إيثل لا تريد أن تتركه وشأنه:

ـ أما زلت عازفاً عن الشراب، أم أن حديثي أغضبك... أنا آسفة جداً إذا كنت قد أغضبتك...

ومالت عليه وهي تقبله، ثم وهي ضاحكة:

ـ لا بد أن نتناول شيئاً من الشراب، وإلا أدركت أنك لا تزال غاضباً مني...

ولم تنتظر إيثل إجابته، بل قفزت إلى مقصورة الدرجة الأُولى وهي تقول:

«براندي؟.. أليس كذلك؟..»، ولم تنتظر إجابته أيضاً، ثم عادت وهي تحمل كأساً من البراندي، وقد شعشع بريقها الذهبي من بعيد...

٤

وبدأت نيويورك تبدو في الأفق... غابة من شجر زقوم حجري طافية على لجة من ماء شديد الزرقة، طلعها كرؤوس الشياطين، كما بدت لجابر لأول وهلة. ومن بعيد، كانت هناك أشياء كثيرة تتلألأ في الغابة

وحولها، لا يشبهها شيء إلا ما كان يقوله الشيخ سلمان في الخب عن صرح سليمان الممرد من قوارير، الذي بناه لتكشف بلقيس عن ساقيها المشعرتين، بينما كان الجن حولهما يتآمرون. كان كل شيء يتلألأ من بعيد، كما كان رأسه لا يزال يدور إلى حد ما، عندما أيقظته المضيفة الشقراء، وهي تحاول رسم ابتسامة على ثغرها، بينما كانت إيثل نائمة إلى جواره، ولم تفلح جهود المضيفة في إيقاظها إلا بعد لأي. شعر جابر برهبة تجتاحه... إنه مقبل على عالم ليس كالعالم، وحياة ليست كالحياة، كما قالت إيثل. بل إن كل شيء يبدو كأنه ينتمي إلى بُعد آخر، منذ أن ركب الطائرة من قاعدة الظهران إلى بيروت، ومنها إلى لندن، وها هو الآن يطل على نيويورك. كان مجرد ركوب الطائرة شيئاً غير عادي في حياته... كل هذا الكم من الحديد يطير كالطير من دون جناح خافق أو طريق صلد؟!.. ولقد خشي منذ أن بدأت الطائرة في التحليق، أن لا تكون هذه الطائرة إلا العنقاء المختفية منذ تحدت سليمان والقضاء والقدر وفشلت. كاد الرعب يقتله والطائرة بهديرها تمخر عباب سماء زرقاء، وكأنها نسر النمرود الذي حاول النمرود أن يصعد به إلى إله إبراهيم ويقتله. فهل عادت العنقاء، وهل عاد النمرود، وهل بُعث إبراهيم حياً، كما نجا من النار، وأصبحت أمريكا أرضاً للميعاد؟.. ولكن... أين ساره وهاجر، وإسماعيل وإسحق، ولوط ابن أخيه؟.. المجهول حافل بكل مستحيل، والأيام حُبلى بالجديد والقديم، والقدر يترصد الجميع. وأخذ يقرأ ما يعرف من القرآن الكريم، وإيثل بجانبه تضحك. ولم يهدأ قليلاً إلا عندما استقرت العنقاء في السماء، وكانت صفرة الرمال ثم حمرتها تبدو لجابر لأول مرة من هذا الارتفاع. وأصابته رهبة وخشوع في الوقت ذاته، وهو يرى لأول مرة في حياته التقاء زرقة السماء، بصفرة الصحراء عند ذلك الخط الأخضر في الأفق البعيد... لا بد أن بحر الظلمات وجبل قاف وعين الحياة ومرقد الشمس ومقام الخضر هناك... كان يحدث نفسه وهو مبهور بما يرى... كان يرى التوراة والزبور والإنجيل والقرآن هناك... هناك بدائع الزهور ومقر الأنبياء وماء السلسبيل ونهر الكوثر... هناك ألقت أم موسى به في اليم، وألقى أخوة يوسف به

في الجب، وهمّ إبراهيم بذبح ابنه، وبنى نوح فلكه، وقتل قابيل هابيل، وصرخت ساره وتوجعت هاجر، وعُقرت ناقة صالح، واندثرت عاد وثمود، وناجى يونس ربه في بطن الحوت، وكانت موعظة الجبل، وجاء النبي الأمي من صحراء مكة... إن لم يكن كل شيء هناك، فأين يكون؟.. هناك على ذلك الخط الأخضر بين الصفرة والزرقة... وطافت بذهنه أول رحلة فضائية له على ظهر الناقة المجنحة مع سميح... لم يشعر ليلتها بالرعب الذي يشعر به الآن، فقد كانت الناقة من لحم ودم، وكان سميح معه، كما أن ذهنه كان منشغلاً بأشياء أُخرى. أما اليوم، فهو على متن حديد لا حياة فيه، وهدير كأنه قرقعة الرعد في ليلة ممطرة من ليالي الطوفان. وخفق قلبه عندما أطل من النافذة بعد تردد ورهبة شديدين، فرأى قرية باهتة الملامح تلوح في بحر الصحراء وبين كثبان الرمل، وقد بدت لجابر أشبه «بكماة» ضائعة في كومة من رمل كان مبتلاً... لعلها خب السماوي؟... قال لنفسه، وقلبه يزداد خفقاناً... هناك هيلة وعثمان وصالح ومزنة، وعثمان السايح وإخوته ووالدته العجوز. وأحس بشيء كالوخز يجتاحه وهو يتذكر هيلة وأولاده، وشيء كسكين حادة يخترقه وهو يتذكر زهرة... زهرة التي قتلها... وشعر أن حلقه كله قد تحول إلى حنجرة ضخمة، فأطل من النافذة إلى تلك القرية الصامت أهلها، وتوقع أن يرى بقعة كبيرة من الدم تتوسط القرية تمد يدها إليه وتجره إلى أعماق الصحراء، فأبعد رأسه عن النافذة وهو يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، بينما كانت إيثل تضحك بحبور، وتبدو كأنها تشاهد فيلماً لبوب هوب في قصة مأخوذة من ألف ليلة وليلة...

لم يمكثا في بيروت أكثر من ليلتين، ملأت إيثل خلالهما حقيبة كاملة من أشياء بدت تافهة لجابر: حُلي قديمة من خرز وزجاج وصفيح، تماثيل صغيرة، منسوجات قروية، وأطباق نحاسية تزخر بالنقوش والصور، ولم تنس أن تشتري صليباً كبيراً من خشب الأرز، كانت عليه صورة للمسيح مصلوباً تكاد تكون ناطقة. أحس جابر بنفور عندما رأى الصليب مع إيثل،

ولكنه تغافل عن الأمر، فهو لا يعنيه على أية حال. وحاول أن يقنع إيثل أن المسيح لم يُصلب، ولكن شبّه لهم، ولكنها كانت تصده برفق وهي تقول: «لقد ضحى الرب بابنه الوحيد من أجل خلاصنا، وتريدني أن لا أصدق به؟!... بأفكارك هذه لن تكون في ملكوت الله...»، وتركها جابر وهو يردد: «لا يضركم من ضل بعد إذ اهتديتم... كل نفس بما كسبت رهينة... وما عليك إلا البلاغ...». وفي بيروت كان يشم رائحة هند وسليمان في الشام، سويعات ويكون عندهم، وتكاد نفسه تنازعه في الذهاب، ولا سيما حين كان يتمشى في ساحة الشهداء، وهو يسمع صيحات أصحاب السيارات في المواقف وهي تنادي الزبائن إلى الشام وعمان. ولكن شيئاً في داخله كان يمنعه، ثم لا تلبث زهرة أن تطوف بخياله، فينسى الشام والخب جميعاً، ويغادر الساحة مسرعاً إلى حيث الفندق وإيثل. أما لندن، فلا يذكر عنها الكثير، فلم تكن إيثل متحمسة للدخول في البلد، إذ ليس هناك ما يغري، كما كانت تقول، في الوقت الذي بدت فيه عالماً مختلفاً لجابر المدهوش. أقاما في فندق قريب من المطار لليلة واحدة فقط، ثم طارا إلى نيويورك. وها هو في أمريكا... إنه مبهوت لا يدري ما يفعل، يسير خلف إيثل التي كانت عارفة بكل خطوة تخطوها، بعد أن أخذت منه جوازه الأخضر الضخم، ووضعته بجانب جوازها الأزرق الصغير. وما هي إلا هنيهات حتى كان جابر في قلب الصرح، في قلب اللجة... كل شيء في نيويورك ضخم جداً: السيارات، البنايات، الشوارع، والناس أنفسهم بدوا له أطول وأضخم من كل الناس، حتى من الأمريكان في الظهران ورأس تنورة... ربما «كشوا» من حرارة الصحراء... قال ذلك لنفسه، وظِل ابتسامة يلوح على فمه. كان عليه أن يقضي ليلة في نيويورك، قبل أن يسافر غداً إلى أوستن، وتسافر إيثل إلى دنفر حيث ابنتها كاثي، وولدها بوب الصغير. كان يشعر بالرعب من مجرد التفكير في أنه سيكون وحيداً منذ الغد في هذه الغابة من الزقوم وصرح القوارير، ولكن لا بد مما ليس منه بد، ولتفعل الأقدار ما تشاء.

وخلال الليلة التي قضياها في نيويورك، أرته إيثل شيئاً لم يكن يتصور أنه يوجد في هذا العالم... وعادت كلماتها تدوي في أذنيه: سترى عالماً غير العالم، وستعيش حياة غير الحياة. أنوار تتلألأ في كل مكان، وسيارات لا نهاية لها، وأناس ليسوا كالناس في أشكالهم وأحجامهم وألوانهم... نيويورك تنتمي إلى بعد آخر، غير البعد الذي يعرفه جابر وعاش فيه. وسهرت وإياه تلك الليلة في مكان يمتلئ بالبشر ذوي الرائحة الطيبة، والأنوار الملونة الخافتة، وموسيقى صاخبة كان يبدو أن إيثل والآخرين يحبونها كثيراً. واستغربت إيثل انزعاج جابر من الموسيقى، ثم تضحك وتقول: «بالطبع... وكيف يتذوق حبيبي البدوي موسيقى الجاز!»، في الوقت الذي كان جابر يبتسم، ويترنم بأبيات:

أنــا مــن نــجــد يــكــفــيني هــواهــا	ويــبــري لــوعــتــي شــربي لماهــا
فــجــعــنــي بــالــهــوى ورقــا حمــامــة	الى غــنــت يــذكــرني غــنــاهــا
يــذكــرني وليف غــاب عــنــي	وعــيني مــنــه جــاهــا مــا كــفــاهــا

ثم يلقي بما تبقى من البراندي في جوفه، وقد أحس بحنجرته تتضخم، وطيف زهرة يلوح في خياله، فيزيحه بسرعة وهو ينظر إلى هذا العالم الذي ما كان يحلم بوجود شيء مثله في هذه الحياة... وطاف سميح بذهنه لوهلة، فابتسم وهو يحدث نفسه: «هل يمكن أن يكون سميح هنا؟!...»، وأزاح الفكرة من رأسه، بينما كانت إيثل تجذبه إلى وسط القاعة حيث كان الحضور يتقافزون ويثبون، فأخذ يقفز ويثب مثلهم، وإيثل تضحك وقد غارت عيناها الضيقتان، واختفت زرقتهما بحمرة النبيذ.

٥

كان هناك فرق زمني بين رحلة إيثل إلى دنفر ورحلته إلى أوستن، بما يقارب الساعات الست، فطلبت منه إيثل أن يبقى في الفندق حتى ما بعد الظهر، فالأجرة مدفوعة إلى ذلك الوقت، ولكنه رفض وأصر على مرافقتها إلى المطار، مما أسعد إيثل كثيراً، رغم إلحاحها عليه بالبقاء، ووصفته بالبدوي

الجنتلمان. لم يكن جابر في الحقيقة مهتماً بمرافقة إيثل، بقدر ما كان خائفاً من الضياع في صرح القوارير هذا، وفي ذلك المطار الذي يستوعب عشرة من الخبوب بكل راحة. وفي المطار، جلسا في أحد المقاهي الجانبية يحتسيان قهوة لم يستسغها جابر كثيراً، في انتظار إقلاع طائرة إيثل، بعد أن تأكد جابر من مكان إقلاع طائرته. كان يحتسي القهوة على مضض، ورائحة الهيل تدغدغ رأسه من الداخل، وسؤال يجول في خاطره كان متردداً في طرحه. لم يكن هناك فسحة من الوقت، وقد لا يرى إيثل بعد ذلك، رغم أنها وعدته أن تزوره في أوستن، ويزورها في دنفر ليتعرف على كاثي وبوب الصغير، وأعطته عنوانها ورقم تليفونها في دنفر، ومن ثم قرر المخاطرة بطرح السؤال:

ـ إيثل...

ـ Yes my darling!... نعم يا عزيزي...

قالت إيثل بلا اكتراث، وهي تلقي بقطعة من «الدونت» بالشوكولاتة في فيها، وترتشف القهوة السوداء الملتهبة...

ـ إيثل...

ـ نعم يا جابر... What's wrong with you?... if you have something to say... say it... ماذا دهاك يا جابر، إذا كان لديك ما تقوله فقله!..

قالت إيثل بحزم، ثم أتبعت ذلك ببسمة صافية، وأمسكت بكف جابر السمراء الخشنة المضطربة ودفنتها بين كفيها اللدنين الأبيضين، في لقاء دافئ بين الشرق والغرب، متحدية كل نظريات مونتيسكيو وكبلينج، ومقولات أناتول فرانس والمستشرقين...

ـ لقد كنت أود أن أسألك عن... عن...

ـ عن ماذا يا جابر؟.. كن صريحاً ومباشراً!...

ثم وهي تضحك برقة:

ـ متى ستكف عن شرقيتك القاتلة؟..

ـ الحقيقة... أنا محتار، كيف يعرف بوب عن علاقتنا ولا يهتم... بل...

وازدرد جابر ريقه وهو يقول:

ـ بل كيف يراقبنا ونحن ...You know what I mean! ... تعلمين ما أعني...

وانفجرت إيثل ضاحكة، وفكت الاشتباك الدافئ بين الغرب والشرق وهي تقول:

ـ يا لك من ساذج يا حبيبي البدوي... لقد كان بوب يشاهدنا أيضاً ونحن في الكراج أحياناً... لقد كنت أظن أنك تعلم وتتجاهل...

ثم وهي تمسح دمعة حائرة في عينها:

ـ هو كذلك... لا يستمتع إلا حين يراني مستمتعة، وهو غير قادر على إمتاعي...

وفوجئ جابر بحكاية التلصص عليهما في الكراج، رغم شكه منذ البداية أن بوب يعرف ما يجري في بيته، ولكنه لم يتصور أن المسألة تصل إلى هذا الحد. أما ما حدث في غرفة النوم تلك الليلة، فعزاها إلى الخمر وسطوته. وبوجه بدا كالأبله من فرط الدهشة، قال:

ـ لم أفهم...

ـ أنا أقول لك...

قالت إيثل وهي تشعل سيجارة، وتنفث دخانها في السماء:

ـ اكتشفت بعد زواجي من بوبي بمدة، وبعد مجيء كاثي وبوب الصغير، أنه مازوخي...

ـ كيف؟

لم يكن جابر يعرف معنى كلمة مازوخي، ولكنه تصنع المتابعة الدقيقة.

- تلك قصة طويلة لا تهمك... المهم أني اكتشفت ذلك... غضبت أول الأمر، وبدأت في إجراءات الطلاق، ولكن شركة «تكساكو» التي يعمل بها انتدبته للعمل في أرامكو، وكنت دائماً أريد أن أرى الشرق، فعدلت عن الطلاق، وقررت خوض التجربة...

ثم أخرجت سيجارة أُخرى، وأشعلتها بعصبية وهي تقول:

- وفي الظهران ثم في رأس تنورة، اكتشفت أنه يقيم علاقات مع بعض نساء الكامب... فذات يوم كنت عائدة من الكانتين، وفاجأته في ذلك الكراج، وامرأة لم يسبق لي أن رأيتها تضربه على ظهره بقوة، وبوب يتلوى... لذة أو ألماً... لا أدري... ربما معاً...

وفهم جابر معنى مازوخي...

- غضبت كثيراً، بل أحسست باشمئزاز شديد، والحاجة إلى الاستفراغ... أن يكون مازوخياً... ذلك كثير جداً... كلا... هذا لا يجوز... المعذرة يا جابر، فلم أكن أريد أن أصدمك بهذه الأشياء، ولكنك أنت من طلب...

- كل هذا ولا تريدين مني أن أُصدَم؟!..

- المهم... لجعل القصة الطويلة قصيرة... طلبت الطلاق والعودة إلى أمريكا، ولكني فكرت بعدها... وماذا بشأن كاثي وبوب الصغير؟ كما أني لن أجد أفضل من الوضع الذي أنا فيه. فاتفقت مع بوب أن نعيش كمطلقين أومنفصلين، ولكننا زوجان أمام الآخرين. وقررت أن أعيش حياتي كما أحب، ويعيش هو حياته كما يحب...

ثم وهي تبتسم، وتمسك بكف جابر من جديد:

- هل تعلم أنه أتى بك إلى منزلنا كي تمارس معي الحب وهو يراقب، ثم أجلده ويمارس هو الحب معي بعد ذلك؟.. وبالذات في تلك الليلة التي مارسنا فيها الحب لأول مرة...

وبهت جابر، وقال بانفعال:

- ما كنت لأرضى لو كنت أعلم... ما كنت لأرضى لو كنت أعلم... أستغفر الله العظيم... أستغفر الله العظيم...

وابتسمت إيثل بإغراء وهي تقول:

- وما كنت أنا لأرضى... فقد رقت لي من اللحظة الأُولى، ولم أدعه يراقب، كما كان يفعل في علاقاتي السابقة...

- وهل أنت مازوخية أيضاً؟..

قال جابر وهو يشعر بالفخر لمعرفته كلمة جديدة معقدة. رجعت إيثل بظهرها إلى الوراء، وقالت وهي تنظر بعيداً إلى لا شيء:

- كلا... ولكني حاولت أن أكون كذلك، بعد أن اكتشفت تلصص بوب على علاقتي مع الرجال في الكامب...

ثم وهي تضحك:

- لقد كانت مزحة أول الأمر، فقد كنت أريد إثارته وإغاظته في الوقت نفسه، ولم أدر أني سألتذ بالعملية بعد ذلك... ثم تطورت الأمور، وأصبحت أجد لذة في ضرب بوب قبل أن نتضاجع، وأصبح هو يجد لذة في أن أُضرب أمامه وأُضاجع، ثم يضاجعني هو بدوره... لقد أدمن هذا الطقس لاحقاً، بالإضافة إلى مازوخيته، حتى أصبح لا يقوى على ممارسة الجنس من دون ذلك...

وفي هذه اللحظة، كان مذيع المطار يعلن عن موعد إقلاع طائرة رحلة دنفر، فنهضت إيثل بتثاقل، وقبلت جابراً بشفاه باردة، ثم اتجهت إلى الطائرة، وكانت عيناها في غاية البلل...

٦

أكثر من سنة قضاها جابر في أوستن، ولم يخطر الخب أو سميح في باله، وتأمْركَ بشكل كامل: حلق اللحية والشاربين، وأصبح ذوقه أمريكياً

خالصاً في المأكل والمشرب والعادات. شيء واحد لم يمسه... لحم الخنزير. جربه مرة واحدة، عندما تذوق إحدى قطع «البيكون» مع وجبة إفطار، ولكنه أحس كأن معدته تخرج من جوفه، فألقى القطعة بعيداً، وهو يعجب كيف يستلذ من حوله بأكل هذا اللحم الكريه، رغم أن طعمه لم يكن بعيداً عن طعم لحم «الحميس» الذي كان يتلذذ بطعمه كثيراً في صبحيات أيام عيد الأضحى. وعندما حلق اللحية والشاربين بعد عدة أسابيع من وصوله إلى أوستن، طافت إيثل في خياله وابتسم. لكم طلبتْ منه أن يحلق لحيته وهما في رأس تنورة، فهي تأكل نصف وجهه وتحجب وسامته، على حد تعبيرها، ولكنه كان يرفض بعناد وإباء. وذات مرة طلب منها أن تحلق شعر عانتها، فذلك أطهر وأنظف وأجمل، ولكنها رفضت وهي تقول ضاحكة: «هذه بتلك... إحلق لحيتك، وأحلق عانتي...»، فغضب من قولها وقال وقد جحظت عيناه وانتفخت عروق وجهه، ومنع نفسه من لطمها في تلك اللحظة وهو يقول: «هل تقارنين لحيتي بشعر عانتك... يا لك من عاهرة وضيعة...». وغضبت إيثل من نعتها بالعاهرة، فطردته من المنزل بغضب وهي تقول: «عامل حقير... عربي قذر...» ولم تعد العلاقة بينهما إلا بعد عدة أيام، وبوساطة من بوب، وسط استغراب جابر آنذاك. واتفقا بعد أن اعتذرا لبعضهما البعض، أن يبقى كل على شخصيته المستقلة وأسلوبه المستقل، حين قالت إيثل وهي تضحك: «لك لحيتك ولي... تعرف ما أعني... ورغم أن المسألة لا تتعدى الشعر، وإن اختلف موقعه، فإني في غاية الأسف». فضحك جابر هو الآخر مكرهاً وقال: «لتبق الأوضاع على ما هي عليه إذن».

واتصل بإيثل في كولورادو بعد أن حلق اللحية والشاربين مباشرة، وأخبرها كم كان سخيفاً حين رفض طلبها آنذاك، فابتهجت إيثل وقالت ضاحكة: «إذن، سأحلق عانتي، حين العودة إلى رأس تنورة، كي نصبح متعادلين»، فقال ضاحكاً بدوره: «كلا... أرجوك لا تفعلي، فهي جميلة كما هي»، وضحكا على التليفون طويلاً، ولكنها أسفت على حلقه شاربيه،

وتمنت لو أنه أبقاهما فقد كانا يذكرانها بكلارك غيبل وإيرول فلين، ويتفوق عليهما بسمرته المغرية. لم يكن يعلم ساعتها من هو كلارك غيبل أو إيرول فلين، وحرص على مشاهدة أفلام لهما، جعلته يشعر بالبهجة في تشبيه إيثل له بهما. واتفقا على أن يزورها في الكريسمس القادم، أو ربما في عيد الشكر قبل ذلك، ويقضي إجازة الأعياد معها في دنفر.

كانت هيلة والأولاد يخطرون أحياناً في باله، ولكنه لم يكن مهتماً كثيراً، فما لديهم يكفيهم، كما أنه كان بين وقت وآخر يبعث بحوالة مالية إلى أخيه الأكبر عن طريق بنك «الراشد» الجديد في بريدة، ويرسل رسالة أو رسالتين في السنة يطمئنهم على أحواله بأقصر عبارة ممكنة... ثم... ما الذي يمكن أن يطرأ في الخب؟ مئات السنين مرت ولم يحدث شيء، فما الذي يمكن أن يحدث الآن؟ والغريب أن هنداً لم تخطر في باله، إلا لماماً، فقد كان واثقاً أنها بخير في الشام، وعلى الأقل أفضل حالاً من الخب وأهله. أما زهرة، فقد كانت تراوده في أحلامه خلال الأيام الأُولى، ولكنها اختفت بعد ذلك. وحتى عندما كان يتذكرها بعد ذلك، لم تكن ذكرى مؤلمة، بقدر ما كان افتقاداً لها، فقد اكتشف أنه كان يحبها بكل معنى الكلمة. انتهى عهد تأنيب الضمير ولوم النفس، فما جرى كان من الممكن أن يجري في أي لحظة في ظروف مثل ظروفهم، وبيئة مثل بيئتهم حيث تعيش العقارب والثعابين والحشرات مع الناس وكأنها جزء من حياتهم.

كل شيء في أمريكا جميل، وأخذ يستغرب كيف كان يحيا قبل أن يأتي إلى أمريكا. وأصبح له العديد من الأصدقاء الأمريكان، الذين كانوا ينادونه بجيري تحبباً، وأحياناً «جبلتار» (جبل طارق Gibraltar) من باب المزاح. بل أصبح محط أنظار النساء اللواتي يقابلهن، وكان ذلك يشعره بالزهو. وقضى أول كريسمس له في أمريكا مع إيثل وكاثي وبوب الصغير. لم يشعر بذات الشبق الذي كان يشعر به مع الشيطانة البيضاء تلك الأيام، فقد أصبح له شيطانات بيض كثر في أوستن. ولكنه فوجئ بحلق إيثل لعانتها، في الوقت الذي توقف هو فيه عن حلق عانته، وفوجئت هي حين أكد لها أنها

بالعانة أفضل كثيراً. وكانت آخر مرة يرى فيها إيثل في أمريكا، وتواعدا على اللقاء في رأس تنورة، أو حين تسمح الظروف بعودتها إلى أمريكا خلال وجوده. وقضى أسبوع الأعياد معها على مضض، بالرغم من أنه كان قادماً بكل شوق، فقد كان على إيثل أن تعود إلى رأس تنورة بعد الأعياد بعدة أيام، كما أنها كانت لا تخفي أنها تشعر بشوق إلى رمال الصحراء، خاصة في مثل تلك الأيام. شيء غريب... قال جابر لنفسه... أنا أهرب من الرمال وهي تريد عناقها!... ولكن ماذا يمكن القول... هذه هي أمريكا، وهؤلاء هم الأمريكان...

بعد رحيل إيثل بعدة أشهر، رآها ذات يوم في كافيتريا المعهد، وهو جالس يشرب القهوة بانتظار موعد الدرس المقبل. كانت تجلس وحيدة تشرب كوباً من القهوة بالحليب، وتمسك بيدها كتاباً يبدو أنها كانت مستغرقة فيه. لم يستطع تحويل ناظريه عنها، وقد أخذت دقات قلبه تتسارع بشكل مخيف... فقد كانت زهرة ذاتها: ذات الشعر والعينين والقوام، وإن كانت أصغر سناً من زهرة يوم ماتت. خفق قلبه بشدة... أَوَ عادت زهرة إلى الحياة؟... قادر على كل شيء... ناداها... فلم تجب، وأدرك أن البعث لا يكون إلا هناك، حين تطوى السموات والأرض، ويُنفخ في الصور، وتنبعث الأجساد من تحت التراب... ولكنها هي... زهرة بشحمها ولحمها... لم يستطع المقاومة، فاقترب منها وهو في غاية الاضطراب، وقال بصوت متلعثم:

ـ أرجو المعذرة...

فنظرت إليه وابتسامة عذبة تحتل وجهها كله وهي تقول:

ـ نعم...

رباه... إنها زهرة لا شك... ولكنني دفنت زهرة بيدي... ثم لو كانت قد قامت من بين الأموات، ما الذي أتى بها إلى أمريكا؟.. الزمان والمكان لا يعنيان شيئاً لله وقدرته... ولكن...

ـ نعم... هل هناك شيء؟

وأعاده صوتها إلى المكان والزمان من جديد، فقال وقد تصبب عرقاً:

ـ أرجو المعذرة... ولكنك تشبهين شخصاً أعرفه...

ـ لو كنت شاباً صغيراً، لاتهمتك بمحاولة مغازلتي... تفضل بالجلوس... إن لم يكن لديك مانع!..

قالت ذلك وقد تحول وجهها كله إلى ابتسامة. فجلس جابر وعيناه لا تفارقان وجهها... هي زهرة بعينها...

ـ أرجو المعذرة إن كنت قد ضايقتك...

ـ على الإطلاق... لقد كنت أحس بالضيق، وكنت أتوقع أن شيئاً غير مألوف سوف يحدث اليوم... لعلك تكونه!...

قالت وهي تضحك برقة، كما كانت تفعل زهرة تماماً...

ـ فأنا شرقية الجذور، والماورئيات والغيبيات جزء من تكويني...

وازداد خفقان قلبه وهو يسمعها تقول أنها شرقية الجذور... هي زهرة بعينها وقد قامت من بين الأموات. وبعد تردد نظر إليها وقال:

ـ قد أبدو سخيفاً... ولكن... هل أنت زهرة؟..

ـ زهرة!؟.. من تكون هذه؟..

ولفت انتباهه ذلك الصليب الذهبي الذي يتدلى من عنقها الطويل... كلا لا يمكن أن تكون زهرة، فزهرة مسلمة وهذه مسيحية... كما أن زهرة لا تتحدث الإنجليزية... وضحك في سره... أليس القادر على إعادتها للحياة، قادراً على تعليمها الإنجليزية؟.. بل قادراً على جعلها مسلمة أو مسيحية؟..

ـ كلا... لا شيء... ولكنك تشبهينها بشكل يكاد يكون تماهياً...

وضحكت وهي تقول:

ـ شكلك يقول أنك شرقي، رغم إنجليزيتك الجيدة، ولكن لا بد من لكنة...

ـ نعم، أنا عربي من نجد... من العربية السعودية، إن كنت سمعت عنها...

ـ أوه، نعم... أليست هي التي ملكها ابن سعود؟

ـ نعم...

ـ لقد قرأت عنه مقالاً في مجلة «لايف» قبل زمن، كما قرأت ما كتبه أمين الريحاني عنه... رجل ساحر بكل معنى... بل هو أسطورة من أساطير الصحراء... أليس كذلك؟

ـ هو كذلك...

ـ نحن لم نتعارف بعد...

قالت وهي تبتسم وتمد يدها قائلة:

ـ رزق الله... غريس رزق الله...

وحاول الاحتفاظ بيدها أطول فترة ممكنة وهو يقول:

ـ جابر... جابر السدرة...

ثم وهو يطلق يدها:

ـ ولكن اسمك... رزق الله... يبدو كأنه...

فقاطعته قبل أن يُكمل، وهي تضحك باقتضاب وتقول:

ـ أنا أمريكية من أصل لبناني... والداي، سمعان ورفقة رزق الله، هاجرا من ضيعتنا في جبل لبنان، وكان معهما أخي الكبير أدونيس، وأختي الكبرى أفروديت، أما أنا وإخوتي سليمان وجوزيف وباسكال، فقد ولدنا

هنا في أميركا، في فورت واين، إنديانا، حيث تقيم العائلة...

- إذن أنت عربية...

قال جابر بحماسة...

- إلى حد ما... ولكن من هي زهرة هذه التي خلتني إياها... إلا إذا كنت قد صنعت القصة كي تتعرف إليّ!..

قالت غريس وهي تضحك بحبور:

- وهل أنا قبيحة حتى لا تحاول التعرف إليّ فتصطنع قصة من أجل ذلك؟

واضطرب جابر وهو يقول كمراهق ضُبط وهو يعاكس بنت الجيران:

- على الإطلاق... فأنت في غاية الجمال... مثلها تماماً...

- لا بد أنك تحبها بشكل يفوق الوصف... ما أسعدها...

- قولي كنت أحبها... فهي الآن عند ربها...

وقص عليها قصة زهرة من البداية إلى النهاية، مع إغفال حكاية العسيب، وعلاقته بإيثل. وتأثرت غريس بالحكاية، ومسحت دمعة كانت تترقرق في عينها، ثم ابتسمت وهي تقول:

- قد أكون هي... فالرب الذي أعاد ابنه الوحيد إلى الحياة بعد الموت، قادر على أن يعيد زهرة... ولكني للأسف لست هي...

ثم وهي تمسح أنفها بنعومة وتبتسم بحزن:

- وربما أكون هي... ألا يؤمن البعض بتناسخ الأرواح؟.. ربما حلت روح زهرة في حال مغادرتها جسدها... ولكن ذلك مستحيل... فالتناسخ هو انتقال روح المتوفى إلى جسد كائن جديد يولد... أعتقد ذلك... I think so...

قالت وهي تضحك، ثم بعفوية تمسك بيد جابر وتقول:

ـ وعلى أية حال أنا سعيدة بظنك أنني هي...

ثم وهي تضغط بكفها على كفه:

ـ كنت أعلم أن شيئاً غريباً سوف يحدث لي اليوم...

ثم وهي تضحك:

ـ فأنا من مواليد برج الحوت، ذوي الحدس والقدرات التنبؤية الخارقة كما يقولون... كما أحسست أني أعرفك منذ زمن طويل في اللحظة التي رأيتك فيها واقفاً عند الطاولة... على فكرة... في أي برج ولدت يا جابر؟..

وابتسم جابر... إنه لا يعلم كيف ولد ولا متى... لقد وضعته أمه ذات يوم مجهول على كثيب من الرمل وليس حولها أحد. كان والده يقول إنه ولد في سنة «الجوع» أو قبلها بقليل، ولكن متى كانت تلك السنة، فكل سنوات نجد سنوات جوع، وفي أي يوم فيها، لا يدري، ولا أحد يكترث بأن يدري، حتى سألته غريس اليوم. نظر إليها، وقد علت وجهه ابتسامة صافية منذ عهود وقال:

ـ في أي برج نحن اليوم؟..

ـ نحن في أول الميزان على ما أظن...

ـ إذن، فلا بد أني ميزان...

ـ هل تعلم أن الحوت يُغرم بالميزان؟.. هكذا يقول المنجمون...

وضحك الاثنان بحبور، بينما كانت غريس تنظر إليه كأنها فعلاً تعرفه منذ عهود. وأحس جابر أن الله يعيد إليه زهرة كي يعوضها عن حياتها القاسية، ويمنحه الفرصة كي يكفّر عن ذنبه القديم. وشعر بسكينة غريبة تحتل صدره كله، بينما بقي تعانق الأيدي إلى فترة لا يعلمانها، وكان صليبها

الذهبي يتلألأ على استحياء وهو يعكس شمساً خريفية تسترق النظر من النوافذ المحيطة وهي في طريقها إلى بحر الأزلية والسرمدية. . .

٧

أصبحت غريس مثل الإدمان في دمه. . . لا يستطيع مفارقتها لحظة واحدة. ينتظر انتهاء الدرس حتى يوافيها إلى الكافتيريا، ويقضيان بقية اليوم معاً. وانتقلت إلى العيش معه في شقته، وعاش جابر أياماً خالها من أيام الجنة. . . فها هي زهرة تعود إليه، وها هو يعود إليها. ولكنها كانت تتضايق كثيراً حين يدعوها زهرة. كانت في أول علاقاتهما تجد سروراً لذلك، فقد أصبحت محل ذلك الحب الكبير. ولكنها مع الوقت أصبحت تشعر بالغيرة من تلك الميتة، كما كانت تدعوها. وعندما كان جابر يناديها «زهرتي»، كانت تثور في وجهه وتقول: «أنا غريس. . . أنا زفت. . . سمني ما شئت، ولكن لا تدعوني زهرة»، ثم تغادر إلى غرفة النوم وتبكي بحرقة. ويعود الإحساس بالذنب إلى جابر، فلم يكن قادراً على إسعاد زهرة، وهو اليوم غير قادر على إسعاد غريس. ومع الأيام تعوَّد على أن يضبط لسانه، ولكنه في غرفة النوم كان يعاشر زهرة وغريس معاً.

وتعرف على عائلة غريس في إنديانا. عائلة لبنانية قحة رغم المحيط الأمريكي. فما زالت أم غريس تعد أطباق الكبة النية والتبولة والفتوش وشقف اللحم المشوي كل يوم أحد، ولا بد للعائلة أن تجتمع ذلك اليوم، حيث يحتسي الوالد وأدونيس عرقاً لبنانياً يصنعه بنفسه، يحتفظ به الوالد في خزانة خاصة، ثم تدور فناجين القهوة التركية بعد الطعام، ويتحدث الوالد عن أيام الضيعة باسترخاء وحنين، ومبسم الأركيلة لا يفارق شفتيه. وحين جرؤَ جابر وسأله عن سبب الهجرة من لبنان رغم كل هذا الحنين، أجاب سمعان بأسى: «إنهم الترك وأيام سفربرلك والجوع. . لم نترك الجبل ولا تركنا الجبل يوماً، ولكنها الأيام». واستغرب جابر أن يكون هناك جوع في الشام ولبنان. . . «الجوع والله في نجد. . .»، حدث جابر نفسه وهو يبتسم

على استحياء، ويهز رأسه مصداقاً لما يقول سمعان، الذي ابتسم وهو ينظر إلى البعيد قائلاً: «لقد قررت الهجرة منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه الخواجا بشارة من ديترويت، وهو يحدثنا عن أن الذهب بالمجرفة في أميركا».
وضحك سمعان وهو ينظر إلى رفقة ويقول: «لقد مانعت رفقة أول الأمر في الهجرة، فقد كانت تقول إن اللقمة شحيحة فعلاً، ولكنها ميسورة. ولم توافق إلا بعد أن أقنعتها بالحرية في أميركا، والبعد عن الترك وشيوخ الضيعة»، ثم أخذ أبو غريس يسرد ذكرياته عن الأيام الأولى في أمريكا، عندما كان بائعاً متجولاً يجوب أنحاء الولاية التي كتب له الرب أن يستقر فيها، بعد أن سبقه إليها ابن خالته طانيوس في إنديانابوليس.

لم يكن يعيش في فورت واين إلا الوالدان وأدونيس وأفروديت، أما بقية الأبناء فقد تفرقوا في الولايات الأخرى. كانت أفروديت تبدو أكبر سناً من والدتها، رغم أنها لم تتعد الخامسة والثلاثين من العمر، وأقل جمالاً من غريس والصغيرة باسكال، التي كانت صورها تملأ أرجاء البيت، فقد كانت حبيبة أمها، كما كانت غريس تعلق بغضب مكتوم. لم تكن أفروديت بشعة على الإطلاق، ولكن علامات الزمن الباكر، وعدم اهتمامها بنفسها جعلها تبدو أقل جمالاً. ولعل العنوسة هي السبب في ذلك، كما أخبرته غريس. فقد كانت مسيحية ملتزمة، ولذلك لم تستطع أن تنخرط تماماً في المجتمع الأمريكي وعاداته، كما فعلت غريس وفعلت باسكال، حتى أنها تفكر في الانخراط في سلك الرهبنة، ولكن والدها يمنعها، فهو يقول إن من الممكن خدمة السيد من دون سجن النفس في دير غريب وبلد غريب. إذ رغم سنوات أمريكا الطوال، ما زال سمعان رزق الله يحن إلى الضيعة والجبل، وهو يمني النفس بالعودة يوماً ما. ورغم أن أفروديت لم تكن بشعة، إلا أنها كانت تضيق باسمها، فهو اسم ربة الحب والخصب عند الإغريق، وهي لا تعرف من الحب أو الخصب إلا اسميهما. أما أدونيس، فقد كان يعمل مع أبيه في البقالة الصغيرة التي تبيع كل ما هو شرق أوسطي من أطعمة. ورغم أنه قارب الأربعين من العمر، إلا أنه لم يتزوج بعد، حتى أن والده فكر في

إحضار ابنة أخيه أوجيني من الضيعة من أجل الاقتران به، ولكنه لم يكن متحمساً، كما لم يكن رافضاً. لم يكن الزواج هاجساً لدى أدونيس، كما لم يكن له علاقات نسائية أو أي سلوك يناقض الناموس، ولكنه لم يكن متديناً بأي حال من الأحوال، الأمر الذي دعا والده إلى الشك في رجولته، ولكنه في النهاية تركه وشأنه ما دام سلوكه لا تشوبه شائبة. قضى جابر مع عائلة رزق الله ثلاثة أيام، في عطلة نهاية أسبوع طويلة، أحس خلالها بالجو العائلي الذي افتقده، رغم إدراكه بعدم ترحيب العائلة به، إذ كانت تنظر إلى علاقته بغريس على أنها علاقة خاطئة. ولولا قوة شخصية غريس وإصرارها، ويقينهم من أنهم يعيشون في بلد لا يستنكر مثل هذه التصرفات، لربما لم تستقبله أصلاً. كما أن غريس هددت بأنها ستقطع صلتها بالعائلة إذا رفضت استقبالها وجابر، وهكذا رضخ الوالدان على مضض، وهما يستغفران الرب كثيراً، ويصليان من أجل هداية خرافهم الضالة، في الوقت الذي يلعنان فيه اليوم الذي أجبرهم على الاستقرار في بلد لا يعرف من المسيح إلا اسمه.

وبدأت علامات الحمل تظهر على غريس، وأحس جابر بالذنب يحتويه... لن يكون له ولد غير شرعي... سيتزوج غريس. ولكن المفاجأة أن غريس رفضت، فلا يمكن أن تجتمع زوجتان لرجل واحد... آدم وحواء كانا زوجاً وزوجة، ولم يكن لآدم زوجات أُخريات... هكذا أراد الرب منذ الأزل، ولو كان يريد له زوجات أُخريات، لخلق من كل ضلوعه إناثاً يُحِطْن به. وابتسم جابر في سره وهو يحدث نفسه... وماذا لو عرفت عن هند أيضاً؟.. حاول إقناعها بأن الزواج حتى لو كان ضد قناعاتها، فهو أفضل من العلاقة التي بينهما، فعلى الأقل لن يكون ما في بطنها نغلاً. ولكنها ثارت في وجهه وهي تقول: «وهل تزوج آدم وحواء بورقة؟.. وهل تذهب العصافير إلى شيخ أو خوري أو حاخام، أو حتى جورو، لتستطيع أن تتعاشر؟... أنا أريدك وأنت تريدني، وهذا هو الزواج...». كان منطقها غريباً، فهي لا ترضى الزواج على أُخرى، ولكنها لا تمانع في العلاقة بينهما. بل إن والدتها كانت معارضة مثل هذا الزواج وهي تقول:

«الخطيئة لا تُمحى بخطيئة أُخرى، كما النار لا تطفىء النار... ما تفعلانه خطيئة، وما يريده جابر خطيئة أكبر... رحماك يا يسوع... رحماك يا عذراء... أجبرتنا الهجرة أن نفعل ما لا يمكن أن نفعل...» والغريب أن أفروديت كانت هي الوحيدة التي تحمست لزواج غريس وجابر، رغم تدينها الشديد. فقد كانت تقول وهي ساهمة كعادتها: «من يدري... ربما كانت السماء وراء هذا الزواج الخاطىء، كما كانت وراء زواج داود الخاطىء من بتشابع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي، كي يأتي سليمان... ما نحن إلا أدوات في يد الرب يفعل بنا ما يشاء... رحماك يا يسوع، رحماك يا سيدة السموات...».

ورغم معارضة غريس ووالديها، أصر على الزواج، حتى لو كان زواجه مدنياً في البلدية على الأقل، وهدد غريس بتركها إن هي لم تجبه ما يريد. ووافقت غريس على مضض، فقد كانت بالفعل تخشى البعد عن جابر. وعقد لهما الشيخ «عبد ربه الطائع»، إمام مسجد صغير في هيوستن، وعندها أحس جابر بالراحة تشمله. كانت غريس تريد الزواج أمام الخوري أيضاً، ورغم امتعاض جابر إلا أنه وافقها على مضض، فما دام الشيخ قد عقد لهما، فهذا هو المهم. بل أنه مازح غريس وهو يقول ضاحكاً: «ولِمَ لا نعقد أمام حاخام أيضاً، طالما ضاعت الطاسة؟..» لم تفهم غريس معنى «ضاعت الطاسة»، فحتى لو كانت تجيد العربية تماماً، لربما ضاع منها المعنى أيضاً. ولكنها لم تهتم وهي تعلق: «لا... خفيف دم... Very funny». وكم كانت فرحته عظيمة عندما رفض الخوري تزويجهما، فقد كان جابر متزوجاً من امرأة أُخرى، ولا يجوز أن يتزوج عليها.

٨

وحانت لحظة الولادة. وفي مستشفى «تشلدرن أوف ذي لورد» «Childern of the Lord»، وضعت غريس مولودها، الذي كان ذكراً، والساعة تدق تمام الثانية عشرة منتصف الليل. وعندما رآه جابر أصيب بالذعر والدهشة والمفاجأة، وكل أنواع المشاعر... لقد كان المولود هو ذاته

سميح الذاهل، وذات الخصلة الفضية تتلألأ في مقدمة رأسه. كانت غريس في غاية السرور وهي تنظر إلى مولودها وتحتضنه بحنان وهي تقول:

ـ يا له من طفل جميل... أليس كذلك يا جابر؟

ـ نعم... نعم...

قال جابر ساهماً، بينما واصلت غريس:

ـ ماذا سنسميه؟.. ما رأيك بسامي أو سام؟.. اسم على مسمى...

ـ كلا...

قال جابر:

ـ سنسميه سميحاً...

وهزت غريس رأسها وقد لوت فمها، ثم لم تلبث ان ابتسمت وهي تقول:

ـ سميح... سميح... اسم جميل، ما معناه؟

ـ ستعرفين لاحقاً...

ـ حسناً... أتعلم يا جابر؟... سيكون لابننا هذا شأن، فقد ولد على مفترق طرق زمني يتنازعه السبت والأحد... وهو مولود في يوم اجتماع الكواكب السبعة في آخر يوم من برج الجوزاء، وأول أيام السرطان... لقد جمع الربيع والصيف معاً... الخضرة والنضج...

ثم وهي تنظر إلى جابر وتبتسم بوهن:

ـ لقد خرج مني بيسر من دون أن يصرخ، بل كان مبتسماً بشكل غريب، حتى أن الطبيب استغرب ذلك...

ثم تنظر إلى السقف وتغمض عينيها وهي تقول:

ـ أحياناً أحس أني درزية، أو حتى بوذية أو هندوسية أكثر من كوني

مارونية... بل أحياناً أحس أني هؤلاء كلهم وأكثر...

ثم تنظر إلى جابر تارة وإلى الوليد بجانبها تارة أُخرى، وتعود إلى جابر وهي تقول:

ـ ما الفرق يا جابر؟..

وبهت جابر من سؤالها وهو الغارق في هواجسه:

ـ ماذا؟.. لا أدري عما تتحدثين...

ـ أقصد ما الفرق بين الأديان... وأيها هو الصحيح...

ـ الإسلام بلا ريب... أليس هو آخر الأديان، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين؟

ـ أنت تقول الإسلام، وأنا أقول المسيحية، وجارتنا إستر تقول باليهودية... نقول ذلك لأننا ولدنا ونشأنا على ذلك، ولكن أينا صاحب الدين الصحيح؟..

وأخذ جابر ينظر إليها ببرود من دون أن يعني كلامها له شيئاً. ولم تكن غريس تنتظر إجابة، فقد كانت كمن يحدث نفسه وهي تقول:

ـ أعتقد أن الأديان كلها صحيحة يا جابر، إذا كان المؤمن صادقاً في إيمانه... وبوهن حاولت غريس أن تستند إلى سريرها وجابر يساعدها، وقد برقت عيناها بحماسة غريبة وهي تقول بصوت جاف:

ـ إنها مثل التحية... ففي الشرق لا بد من التقبيل للتعبير عن التحية، وهنا في الغرب تكفي المصافحة، وفي بعض البلاد يحكون الأنوف أو يمدون الألسن للتعبير عن المودة... تختلف الطقوس والشعائر، ولكنها كلها تعبير عن المودة والتحية... أليس كذلك يا جابر؟..

وأجاب جابر بهزة من رأسه من دون اكتراث، وهو يفكر فيما يقول، ولكن غريس لم تمهله وهي تقول:

ـ الكل يعبر عن حبه للخالق من خلال طقوس معينة ومختلفة، ولكن الجوهر واحد مهما اختلفت الطقوس... أليس كذلك؟..

ولم يحر جابر جواباً، وهو غير المكترث أساساً، بينما كانت الممرضة تدخل لنقل الوليد إلى غرفة المواليد، وغريس منهكة تماماً، فطلبت من جابر كوباً من الماء، ثم لم تلبث أن أغفت وعلى ثغرها ابتسامة محيرة، أين منها ابتسامة الموناليزا... وقبل أن يغادر جابر المستشفى، وقف طويلاً أمام الحاجز الزجاجي لغرفة المواليد الجدد، وهو ينظر إلى وليده وخصلة الشعر الفضية وقد غاب في عالم آخر...

٩

في الليلة التي ولد فيها سميح، ابن جابر صالح السدرة وغريس سمعان رزق الله، كان جابر عائداً إلى المنزل والنور يكاد ينبثق في الأفق، وقد انتشى تماماً، إذ احتفل مع أصدقائه بمولد سميح، وأفرط في الشراب والضحك، رغم أن السميحين كانا يحتلان ذهنه طوال الوقت. كان طوال السهرة والطريق يفكر بسميح الجديد وهذا الشبه الشديد الذي يكاد يكون تطابقاً بين سميح الجديد وسميح القديم، وكيف سماه سميحاً من دون أدنى تفكير، ويحدث نفسه طوال الوقت... لعله يجتمع وسميح في جد بعيد، ولذلك كان سميح الثاني نسخة من سميح الأول؟!.. ولكن محال... فجد السماوي الكبير جاء من الوشم، وجد السدرة الكبير جاء من بادية الحجاز منذ دهور بعيدة، ولا علاقة بين العائلتين قبل ذلك... هل تكون علياء الشودرية، جدة سميح الذاهل وهيلة الجعفرية، هي نقطة الالتقاء؟.. ربما... ولكن هل يكون التشابه تطابقاً؟.. لو كان سميح الذاهل موجوداً في أمريكا، لربما اتهمه بغريس، ولكنه غير موجود... بل موجود، ألم يقل هو ذاته ذلك؟.. مستحيل... فلا سميح ولا غريس يمكن أن يفعلاها... يكاد رأسه ينفجر، وود لو كان أبو عثمان موجوداً كي يبثه حيرته وتساؤلاته، فلا ريب أنه كان يملك جواباً ما... ورن في أذنه قول

غريس: «سيكون لابننا هذا شأن»... كيف تعرف؟.. أنها تتمنى لا أكثر، وما حكاية الأبراج هذه إلا خزعبلات وشعوذة ما أنزل الله بها من سلطان. ولا يدري لماذا تذكر أفروديت رزق الله، تلك الليلة، وعاد قولها يجوب نواحي رأسه: «قد تكون السماء وراء هذا الزواج الخاطئ، كما كانت وراء زواج داود من بتشابع»... لا يدري... ربما كان للشيطان دور في الموضوع، أليس الشيطان أداة من أدوات السماء؟.. وعادت قصة يحيى بن زكريا مع الشيطان تحتل كل رأسه، وسؤال يؤرقه على استحياء... هل كان سميح الذاهل شيطاناً أم ملاكاً، أم أنه كان مجرد وهم من أوهام الصحراء؟.. وعاتبته نفسه على هذا التساؤل، واستغفر الله كثيراً وهو يحاول دس المفتاح في باب شقته الغارقة في صمت السحر...

وعندما ألقى بنفسه على السرير، وأخذت عيناه تغفيان، ورأسه يمور بالأسئلة، أحس بوجود أنفاس أُخرى معه في الغرفة. أحس بالرعب، فهب من سريره يريد إشعال النور، ولكن صوتاً عميقاً كأنه قادم من أعماق الزمان ردعه بحزم وحنان وهو يقول: «كلا... كلا يا جابر... ابق مكانك». وأصابه رعب شديد، وأخذت يداه ترتجفان وقد تبلل جسده بالعرق تماماً. وجاء الصوت من جديد: «لا تخف يا جابر، فأنا رسول سميح إليك... سميح الذي نسيته... إنه يقول لك إن كنت نسيتني فأنا لم أنسك، وإن كنت استغنيت عني، فأنا بحاجة إليك...». وحاول جابر النظر إلى مصدر الصوت إلى الجانب الأيمن من السرير، ولكنه لم ير شيئاً، ثم أتاه الصوت من الجانب الأيسر وهو يقول: «يقول لك سميح مبارك ما جاءك... حافظ عليه كما تحافظ على الجوهرة المكنونة... فهو ليس ابنك رغم أنه ابنك... وهو ليس لك رغم أنه منك...». وأخذ جابر يستعيد بعضاً من رباطة جأشه وهو يقول:

ـ ولِمَ لم يأت سميح بنفسه؟

وجاء الصوت من الأعلى هذه المرة:

ـ إنه لا يستطيع... لقد خطفه مردة من الجن إلى الأرض السابعة، وقيدوه بسلاسل من نحاس أحمر في كهف مظلم لا نهاية له، يقع تحت عرش الشيطان مباشرة، في أعماق بحر الصرير...

ـ وهل تستطيع السلاسل أن تقيد سميحاً؟

ـ إنها سلاسل مطلسمة من أيام النبي سليمان، احتفظ بها المردة بعد موته في جب سري في جزيرة الغرانيق الخضر، في أعماق بحر الزمان...

ـ وكيف يعلم بما يجري وهو مقيد في كهف في أسفل الأرض؟

ـ ذاك هو سميح... قد يموت جسده، ولكن روحه حرة تطوف أرجاء الزمان والمكان... ومثله جده عايش... ولكن لكل شيء نقيضاً، ولكل شيء قريناً...

ـ أو قد مات سميح؟

قال جابر ملتاعاً، ولم يلبث أن جاءه الصوت من كل ناحية هذه المرة وهو يقول:

ـ سميح لا يموت وإن مات... هو مأسور فقط، ولا يلبث أن يعود...

ـ كيف يعود وهو محاط بمردة الجن؟..

ـ لن يفك أسره إلا ابنك سميح... فسميح السدرة هو سميح السماوي، وسميح السماوي هو سميح السدرة...

ـ لم أفهم...

ـ ليس من الضروري أن تفهم... المهم أن تحافظ على ابنك وأمه، فالمردة علموا بميلاده عندما سطعت نجمة الصباح ليلة مولده، وهم يخططون لخطفه هو الآخر، كي لا يبقى أمل في فك أسر سميح...

ـ وكيف يستطيع ابني فك أسر سميح وسط كل أولئك المردة، وهو البشري الضعيف؟

ـ كما استطاع ابن داود أن يسيطر على الريح والجن والحيوان...

ـ ولكن ذلك كان نبياً!...

ـ المخلوقات كلها أنبياء بشكل من الأشكال... ألم يحدثها الله منذ الأزل؟.. ولكن هناك من يعي وهناك من لا يعي...

ـ كلامك محير... من أنت؟

ـ قلت لك، أنا رسول سميح إليك...

ثم فجأة انفرج السقف عن فتحة انهمر منها نور ساطع، ورأى جابر شيئاً كحمامة بيضاء، بوجه خُيل إليه أنه وجه زهرة، أو غريس، لا فرق، ترفرف صاعدة، ثم لم تلبث الفرجة أن التأمت وصوت يرن في أذنيه كالموسيقى وهو يقول: «اقتربت الساعة وحان الفرج... اقتربت الساعة وحان الفرج...»، في الوقت الذي عاد فيه الرعب يجتاح كل خلية حية في جسد جابر...

١٠

عندما أفاق في ظهيرة اليوم التالي، كان رأسه ثقيلاً إلى درجة أنه كان يشكل عبئاً على جسده الهزيل. أخذ حماماً بارداً، ثم ذهب إلى المطبخ لإعداد كوب من القهوة السوداء، وخطر ما حدث البارحة في باله، فأحس بمعدته تتلوى، ورعشة قوية تعتريه، والعرق يرشح غزيراً من مسام جسده... هل ما رأى كان حلماً أم حقيقة؟ عاد أدراجه إلى غرفة النوم، وأخذ يتفقد المقعد على الشمال، وينظر إلى سقف الغرفة الذي انشق ليلة البارحة، ولكن لا أثر للشق ولا أثر لذلك البرود الذي كان ينبعث من المقعد عندما كان الصوت يأتي من هناك. لا ريب أن ما رأى كان حلماً، أو وهماً من أثر البراندي وانشغال البال، ولكنه يتذكر التفاصيل كلها. بيد أنه أحس بقلبه يدق بعنف وهو يذكر حديث الصوت عن ابنه سميح. فسميح ابن سميح وليس ابنه.

وهو ابن جابر وليس ابنه... لغز من الألغاز كسميح نفسه.

وذهب إلى المستشفى، وكانت غريس ترضع سميحاً، الذي كانت خصلة شعره الفضية تغطي ثدي أمه بحنان. نظر إلى سميح طويلاً، وهو غارق في أفكاره، لا يسمع غريس التي كانت تتحدث طوال الوقت، حتى أعاده صوت غريس وهي تردد:

ـ جابر... جابر... هل أنت معي؟..

ـ نعم... نعم...

قال بتلعثم:

ـ لم تقل لي... ما رأيك فيما قلت؟..

ـ أنا آسف يا عزيزتي، لم أستمع جيداً.

ـ الحلم... الحلم الذي رأيته البارحة...

ودق قلب جابر بعنف وهو يقول:

ـ حلم!.. أي حلم هذا؟..

ـ لا... أنت لم تكن معي إطلاقاً... المهم... بعد أن أرضعت سميح ليلة البارحة، حاولت النوم فلم أستطع حتى بدأ النور يبزغ في الأفق. وبينما أنا بين اليقظة والمنام، رأيت كأن السقف انشق عن سماء في غاية النصوع. كان كل شيء يوحي بالسكينة والهدوء. وفجأة، هبطت حمامة بيضاء من شق السقف، واستقرت عند رأسي، ثم أحسست أنني في غير المكان والزمان، والسكينة تلف كل شيء... شيء أشبه بحالة حرية مطلقة، وسعادة غامرة، وراحة لم أعرف لها مثيلاً من قبل. ثم فجأة، ظهر نور فضي من حيث لا أدري، وصوت وقور أسمعه في داخلي من دون أُذنيّ يقول بلغة لا أعرفها وإن كانت مفهومة: «غريس... اسمعي يا بنت سمعان، انتبهي لنفسك ووليدك، فهو ليس ملكك»، ثم اختفى الصوت،

وجاء صوت آخر من بعيد وهو يردد: «اقتربت الساعة وحان الفرج... اقتربت الساعة وحان الفرج...»، ثم وجدت نفسي في سريري، والحمامة تغادر الغرفة ويلتئم السقف. صحوت من نومي فزعة بعض الشيء، ولكن لم تلبث سكينة خالصة أن حلت في صدري، وكان النور قد أخذ في الانتشار. نهضت من السرير، وسميح الصغير يحتل قلبي كله، واتجهت إلى غرفة المواليد، وكان سميح هناك مستغرقاً في نومه، وهو يمص إبهامه بهدوء... لا أدري يا جابر، فأنا محتارة... فلا ريب أنه حلم، ولكنه لا يبدو حلماً... لقد كان أقرب إلى الحقيقة، ولكنه حلم... أليس كذلك؟..

لم يحر جابر جواباً، فقد كان في غاية الدهشة والحيرة... الحمامة ذاتها التي رآها في حلمه، أو هُيىء له، أو لا يدري ما هي، تظهر لهما معاً!؟.. وقص على غريس حلمه ليلة البارحة، كما أخبرها بأيام سميح في الخب، وحديث الجبل معه، ورحلتهما على الجمل الطائر. كانت غريس تستمع بإنصات كامل، وعيناها تبرقان بين الحين والآخر، وهي تستمع لأحداث خالتها قد انتهت مع انتهاء زمن الأنبياء والمرسلين، وقصص الكتاب المقدس. وساد الصمت بعد انتهاء جابر من حديثه، ثم قالت غريس بصوت خفيض: «سواء كانت هذه الأحداث أحلاماً أو أوهاماً أو وقائع، فلا بد أنها تعني شيئاً... لا ريب أن القدر يعد ابننا سميحاً لشيء ما... فلتحفظه الأرض والسماء»، وساد الصمت من جديد...

١١

كانت عودة غريس وسميح إلى البيت واحدة من لحظات السعادة الصافية لجابر، فهو يحس أنه أب لأول مرة في حياته، رغم عثمان وصالح وسليمان ومزنة، فابنه سميح يختلف عن جميع أبنائه الآخرين. فمع مرور الأيام، اكتشف جابر أن سميحاً يختلف عن الأطفال الذين عرفهم في حياته. فلم يكن يبكي ويصرخ مثل بقية الأطفال، بل كان دائم الابتسام.

وكانت عيناه الواسعتان تشعان بنور غريب يكاد يخترق جسد من يجلس إلى جانبه ويداعبه. بل هُيىء لجابر أن ابنه هذا قادر على الحديث، ولكنه لا يريد أن يتحدث. ولكن جابراً أبعد هذه الخذاريف، كما يسميها، عن ذهنه وأرجع أوهامه إلى تعلقه بسميح الجديد وأمه. ولكن غريس أكدت «خذاريف» جابر حين كانت تردد أن ابنها ليس ككل الأطفال، فهو لا يبكي ولا يتناول من الحليب إلا أقل القليل، ومع ذلك فهو ينمو في اليوم الواحد ما ينموه بقية الأطفال في أسبوع أو أكثر. وحدثته ذات مرة بحديث غريب أخافه، وأعاد إلى ذاكرته ما حدث ليلة مولده في غرفة النوم. قالت غريس:

- صحوت ذات ليلة لأرضع سميحاً في الميعاد الذي حددته لذلك، فأنت تعلم أنه لا يصرخ كبقية الأطفال وإن جاع، واتجهت إلى غرفته. وفي ظلام الغرفة، كانت خصلة شعره الفضية تنير سريره كما ينير البدر ما حوله في ليلة التمام. كان المنظر جميلاً أصابني بالرهبة والسكينة في ذات الوقت، فبقيت مسمرة أمام سريره، وكان هو بدوره ينظر إليَّ ويبتسم، أو هيئ إليَّ ذلك. لا أدري كم مر من الوقت وأنا واقفة أمام سرير سميح أنظر إليه وينظر إليَّ، حتى كانت المفاجأة التي أفقدتني الوعي... لقد تكلم سميح... أقسم بالله أنه تكلم... وحق يسوع ومحمد وكل النبيين والصحابة والقديسين أنه تكلم... قام من رقدته، واستوى قاعداً على سريره، وأمسك بيدي، وأخذ يربت عليها وهو يبتسم ويقول: «أبشري يا أماه... لقد اقتربت الساعة وحان الفرج، وآبت الجموع إلى أصلها...»، ثم عاد إلى ضجعته الأُولى وغط في نوم عميق، من دون أن يتناول وجبته تلك الليلة. أخذ قلبي يخفق بشدة، ورأسي يدور ويدور، حتى سقطتُ على الأرض مغشياً عليَّ، ولم أفق إلا ونور الفجر الباكر يغمر المكان، فنظرت إلى سميح ووجدته يغط في نومه العميق. أردت الخروج وإيقاظك لأخبرك بما جرى، ولكن سميحاً أفاق فجأة وأخذ يصرخ ويبكي لأول مرة منذ أن خرج من رحمي. ألقمته ثديي، فشرب ذلك الصباح من الحليب ما لم يشربه من قبل، وكانت دموع غزيرة تبلل عينيه ووجنتيه. مسحت دموعه، ووضعته

في سريره بعد أن شبع، وخرجت وأنا في حالة من الذهول والتوهان...

- ولماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟..

قال جابر...

- خشيت ألا تصدقني...

قالت غريس:

- ولكنك تصدقني... أليس كذلك يا جابر؟..

لم يحر جابر جواباً، فقد كان مشتت الذهن فعلاً، وشيء من الرعب يجتاح جوانبه... فالقصة لا يمكن أن تصدق... طفل يتكلم!!!... ولكن غريس لا تكذب... فأي شيء يصدق وأي شيء يكذب: هل يصدق العقل، ويكذب غريس الصادقة، أم يكذب العقل ويصدق غريس؟.. كلا الأمرين مستحيل، فلا العقل كاذب، ولا غريس كاذبة، ولكن من يصدق منهما...

- ما رأيك يا جابر... هل تظنني كنت أحلم تلك الليلة؟..

- ربما... ربما يا عزيزتي...

قال جابر ذلك بفرح صبياني، فالحلم قد يكون الموفق بين صدق العقل وصدق غريس. وأحس بالراحة لهذا التفسير الذي أراحه كثيراً. ولكن غريس لا تريد له أن يسكن أو يهدأ:

- ربما كنت أحلم... ولكني وجدت نفسي ملقاة أمام سرير سميح فجر ذلك اليوم، وكل ما حدث كان واضحاً وكأنه حُفر في ذهني حفراً!..

- لعلك ذهبت إلى غرفته لإرضاعه كالعادة فعلاً، ولكنك كنت مرهقة فسقطت على الأرض وحلمت وهيئ إليك أن ذلك كان حقاً.

- ربما... ربما...

رددت غريس وهي تحاول إقناع نفسها، ولكن نظراتها كانت توحي بعكس ذلك، كما أن جابراً في داخله لم يكن موقناً بما يقول. . . هل يعقل أن يكون كل ما يجري مجرد سلسلة من الأحلام؟!. . منذ أن كان في الخبر، وفي الظهران ورأس تنورة، وهنا في أمريكا، تتكرر الأشياء التي لا تصدق. . . فهل كل ما يجري حلم ووهم؟. . لوكانت القضية متعلقة بحادثة واحدة، أو به هو شخصياً فقط، لربما كان الأمر حلماً، ولكن هل ما يجري لغريس، منذ أن جاء سميح، وهم وحلم أيضاً؟. . أين أنت يا أبا عثمان. . . كم أحتاجك وأنت بعيد عني في عالم لا أدري معالمه. . . قال جابر ذلك لنفسه، ثم نهض وهو يتنهد بصوت مسموع، وغادر إلى غرفة سميح، بينما تبعته غريس، وأخذ الاثنان ينظران إلى ابنهما وهما صامتان صمت الزمن الساكن. . .

١٢

في أول عيد للشكر بعد مولد سميح، اجتمعت عائلة رزق الله بكامل أفرادها في فورت واين: جاء جابر وغريس ومعهما سميح من هيوستن. وجاء الأخوان سليمان وجوزيف من ديترويت. وجاءت باسكال وصديقها من يوجين، وحتى ابن الخالة طانيوس جاء من إنديانا بوليس. اجتمع الجميع على ديك رومي ضخم مساء ذلك الخميس، اشتركت الأم والأختان غريس وباسكال في حشوه وطهوه طوال النهار، ولم تخل المائدة بالطبع من أطباق لبنانية أصرت الأم على وجودها، رغم أنها لا تتمشى مع لحم الرومي و«الغريفي» و«الماش بوتايتو»، ولكن الأم كانت تقول إن المائدة لا تكون مائدة من دون التبولة والكبة والخضار الطازجة على الأقل. كما أصرت على أن تكون الأغاني المذاعة من الفونوغراف الذي اشتروه حديثاً، كلها لأسمهان وليلى مراد ومحمد عبد الوهاب، وأعدت بعض أغاني أم كلثوم، لاختيار واحدة منها على العشاء. وكانت تتمنى لو كان لديها أسطوانة لأغاني ايفيت فضالي، ولكنها لم تجد رغم المحاولة، وسط نظرات باسكال المتذمرة، وتأففها الذي لا ينقطع، فقد كانت تأمل في سماع «As Time Goes By»،

لفرانك سيناترا على العشاء، ولكنها ما لبثت أن رضخت للأمر، وهي تقول لأمها ساخرة: «O.K. mama, you'r the boss here»، وتنظر إلى أبيها وهي تبتسم، وكأنها تستفزه، فيبتسم الوالد بدوره، ويرتشف شيئاً من العرق الأبيض، ثم يقول وهو يهز سبابته في وجهها: «ما عمرك راح تكبري أبداً يا باسكال... راح تظلي صغيرة وعفريتة طول عمرك»، ويضحك الاثنان معاً بحبور، ثم ينظر الأب إلى الأم، وقد بدا في حالة استرخاء كاملة، ويسألها عن اسطوانات عبده الحامولي وسلامة حجازي وزكريا أحمد التي يحتفظ بها، ويقترح بعضاً منها بدلاً من هذه الأغاني الحديثة التي اختارتها زوجته، التي لا تمت إلى الطرب الحقيقي بصلة. فأخبرته الأم بأنها أعارتها إلى بعض المعارف من اللبنانيين في البلدة، فثارت ثائرة الأب، وكادت أن تحصل مشادة زوجية تنغص المناسبة، ولكن العاصفة هدأت بعد تدخل الجميع، والأم تحمد الله في داخلها على أنه لم يعرف الحقيقة كاملة، وهي أنها قد باعت الأسطوانات لبائع روبابيكيا متجول، ولكنها تراهن على نسيان زوجها، الذي أصبحت ذاكرته أكثر ضعفاً في الأيام الأخيرة، ولا يتذكر مثل هذه الأمور إلا في المناسبات.

وكان جابر ينظر إلى هذه الحركة ويبتسم، فكم يود لو أنه كان قادراً على إضافة المرقوق والمطازيز والجريش والقرصان إلى هذه المائدة، ولكنه صرف النظر عن ذلك، فليس هناك من يمكن أن يعد تلك المأكولات في هذا المكان، كما أن المرقوق والقرصان لا يمكن أن يتناسبا مع «الماش بوتايتو» وذاك «الغريفي»، الذي لم يستسغه على الإطلاق. وأحس في تلك اللحظة بحنين جارف للخب وهيلة وأولاده، في الوقت الذي لفه فيه إحساس رهيب بالذنب، لم يدم إلا لحظة أو بعضها، لم يلبث أن بددته ضحكة باسكال الصافية الآتية من المطبخ، وهي تعلق على طريقة أمها البدائية في حشو الرومي، في الوقت الذي أخذ صوت يغني في داخل جابر: «ألا يا صبا نجد، متى هجت من نجد. لقد زادني مسراك وجد على وجد...».

لم يكن اجتماع العائلة من أجل «الثانكس غيفينغ» (عيد الشكر) فقط، بقدر ما كان بهدف رؤية ابن غريس، كما كان الجميع يدعون سميحاً. ففي العادة كان البعض يتخلف عن اجتماع عيد الشكر، حيث يعلمون أنهم سيجتمعون قريباً في عيد الميلاد، ولكن الجميع أتى هذه المرة لرؤية ابن غريس. كان سميح قد أكمل خمسة أشهر من عمره، ولكن من يراه كان يعتقد أنه أتم سنتين من العمر. فقد أخذ يسير على قدميه متعثراً، مستنداً إلى أطراف أصابع رجليه، مما جعل له مشية مميزة من البداية. لم يتغير فيه الشيء الكثير، سوى أن عينيه ازداد بريقهما واتساعهما، كما أن خصلة الشعر الفضية ضاقت مساحتها، ولكنها ما زالت تلوح في مقدمة رأسه ببريق يشد انتباه كل من يراه لأول مرة. أُعجب الجميع بسميح وهدوئه غير المعتاد بالنسبة إلى الأطفال في سنه، وخاصة تلك البسمة الغامضة التي لا تفارق فاه. وكان أكثر الموجودين تعلقاً بسميح خالته أفروديت، التي كانت لا تكف عن تقبيله والنظر إليه، وإجلاسه في حجرها طوال الوقت وهي تردد: «اسم الله عليك... اسم يسوع والعذرا عليك... اسم الصليب...»، ثم تجمع أصابعها الخمسة وترسم إشارة الصليب على صدره. وحاولت باسكال ممازحة شقيقتها، فجذبت سميحاً، وأخذت تقلد دعوات أختها، ثم ترسم شارة الصليب على صدره بثلاث أصابع، فثارت ثائرة أفرودويت ووالدتها، واستعادتا سميحاً من أحضانها، وأعادتا رسم الشارة بالأصابع الخمسة، بينما كانت باسكال لا تزال تضحك وهي تقول بعربية مكسرة: «الديني عم بتتغير، وأميركا عم بتصنع قنابل وصواريخ، وانتو لساتكو بتتخانقو على مين الصح: أبو خمس أصابع، والا أبو ثلاثة». كان جابر يشعر ببعض الحرج، بل والغضب، من حركات خالتي سميح وجدته، فولده مسلم، كما كان سميح الذاهل نفسه مسلماً، ويجب أن يبقى مسلماً بعيداً عن هذه الطقوس الوثنية، ولكنه كان يكتم غيظه، ويُسر لغريس بامتعاضه التي كانت تضحك باقتضاب، وتطبع قبلة سريعة على وجنته وهي تقول: «لا عليك، لن نمكث عندهم كل العمر... دع المسكينة أفروديت تستمتع ببعض السعادة، فأنا لم أرها سعيدة كل هذه السعادة منذ كنا صغاراً... وعلى أية حال فالإيمان في

القلب يا عزيزي وليس في الطقوس». ويصمت جابر على مضض، وهو ينتظر بفارغ الصبر مرور الأيام الثلاثة التي قررا أن يمضياها في فورت واين.

وعلى مائدة الطعام كادت أن تحدث مشكلة تعصف بالاحتفال. فبينما كان الجميع مشغولين بتمزيق الديك الرومي، وهم يضحكون بسرور، وخاصة باسكال المرحة، قالت أم غريس، موجهة حديثها لغريس:

ـ لم تقولي لي يا غريس، هل عمدتم سميحاً؟..

ثم نظرت إلى جابر نظرة سريعة، وعادت إلى صحن التبولة أمامها. أحس جابر بالغضب يجتاح كل خلية من خلاياه، ولكنه كتم غضبه، وحاول أن يكون هادئاً وهو يقول:

ـ ولكنه مسلم يا حماتي، والمسلمون لا يعمدون...

ـ ما أعرفه أن من لا يعمد يبقى كافراً... هكذا علمونا أهلنا...

قالت أم غريس وهي ترتشف بعض النبيذ من كأسها بهدوء...

ـ وما أعرفه إن ابن المسلم مسلم... وغير المسلم كافر... هكذا علمونا أهلنا...

قال جابر بغضب مكتوم، وهو ينظر إلى حماته، وكأس النبيذ ترتجف في يده.

لم تستطع أم غريس أن تضبط انفعالاتها، وقالت بصوت حاد ومرتفع بعض الشيء غريب عليها:

ـ هل يعني كلامك أننا من الكفرة؟!..

ـ وهل يعني كلامك أنني كافر؟!..

ونخرت أم غريس وهي تنهض من على كرسيها وتلقي المنديل القطني في وجه جابر وهي تغمغم: «سامح الله غريس التي أدخلت إلى عائلتنا هذا

الجاهل»، وغادرت المكان وهي تنظر إلى زوجها الذي كان يحتسي كأساً من العرق بهدوء، غير آبه لما يدور حوله. وثار جابر عندما سمعها تصفه بالجاهل، وأراد أن يغادر المائدة والمكان كله، ولكن غريس جذبته من سترته، وأجبرته على التسمر في مقعده وهي تقول: «لا عليك من أمي، فهي طيبة وغضبها مجرد زوبعة في فنجان... سوف ترى، أرجوك لا تفسد عشاءنا الأخير في هذا المكان». فجلس جابر مجبراً، وأعاصير الدنيا تغلي في داخله. وساد صمت قصير، حاولت باسكال تبديده وهي تتحدث عن آخر الرقصات في كاليفورنيا، وآخر أخبار ريتا هيوارث وليليان روسل، وجديد فرانك سيناترا وكلارك جيبل. وتحدث جوزيف عن الازدهار الاقتصادي الذي تشهده أميركا، بينما كان سليمان يؤكد أن ذلك مجرد بداية، وأن أميركا مقبلة على ازدهار لم يعرفه التاريخ من قبل. وكان صديق باسكال يتحدث عن سيناتور جديد، له أطروحات فاشية غريبة عن الليبرالية الأمريكية، اسمه جوزف مكارثي، وخوفه من أثر هذا السيناتور في المستقبل، في حين كانت أفروديت تحتضن سميحاً، وتحاول أن تطعمه بعض «الماش بوتايتو»، وشفتاها تتمتمان ببعض الصلوات الصامتة. ولم تمض دقائق، حتى كانت أم غريس قد عادت، واحتلت مقعدها من جديد، موجهة عينيها الذابلتين إلى جابر وهي تقول:

- أرجو المعذرة يا بني، فما أنا إلا عجوز قد هرمت... شأن سميح راجع لك أنت وغريس، وليحفظه رب الجميع، مسلماً كان أو مسيحياً...

وأحس جابر أن النار التي في جوفه استحالت برداً وسلاماً، فنظر إلى حماته بحب صاف، وابتسامة نقية تحتل ثغره، بينما كانت العجوز تمسح دمعة لم تستطع منعها من الخروج، في الوقت الذي كانت غريس تنظر إلى جابر بحنان، وضحكات باسكال تخترق أرجاء المكان، بينما أخذت أم كلثوم تحتل المكان كله وهي تشدو:

علی بلد المحبوب وديني   زاد وجدي والبعد كاويني
يا حبيبي أنا قلبي معاك   طول ليلي سهران وياك

١٣

وتخرّج جابر. . . حصل على دبلوم في الإدارة بامتياز، وأخذ يستعد للعودة إلى الظهران. كان مصير غريس يقلقه، فهي لن تستطيع العيش معه في الظهران بسهولة، ولذلك كان قراره أن تبقى وسميح في أمريكا لفترة حتى يستطيع تدبير أموره ومن ثم استقدامهما. ولكن غريس رفضت، وأصرت على مرافقته. حاول أن يثنيها بالمبالغة في وصف الأوضاع هناك، وما يمكن أن تفتقده من وسائل الراحة، إلا أنها كانت مصرة على مرافقته من البداية. كانت مصرة على العيش في جو من البساطة والنقاء والأمن الطبيعي، كما كانت تقول، ولا بد لسميح من جو نقي وبسيط وآمن كي ينمو ويترعرع فيه، بعيداً عن تعقيدات الحياة الأمريكية وصعوباتها التي قد تخنق فطرته، كما كانت تقول، ثم تعقب ضاحكة: «أريد أن يعيش سميح حيث كان يعيش سميح». كم أنت مخطئ يا جابر. . . قال جابر لنفسه. . . أكان من الضروري أن تحدثها عن سميح الذاهل وأبي عثمان السايح. . . إيه. . . الخيرة فيما اختاره الله.

وفي ليلة السفر، كان جابر ينام منفرداً في غرفة النوم، حيث كانت غريس تنام بجانب وحيدها في غرفته، كما هي عادتها في الأيام الأخيرة، منذ أن أكدت لجابر قبل فترة أنها رأت ذات ليلة مخلوقات غريبة تحوم حول سرير سميح. مخلوقات لها جسم فأر، وذيل خنزير، وعينا بوم، وأنياب ضبع، وأنف كلب. ومنذ ذلك اليوم، وهي تعلق في عنق سميح قرآناً صغيراً، وآية الكرسي والمعوذتين، وصليباً صغيراً، ونجمة داود أيضاً. لم تكن تريد أن يكون هناك مجال لأي احتمال سيىء مهما يكن صغيراً، وجمعت في سلوك واحد بين البراغماتية الأمريكية التي تربت عليها، وبين الروحانية الشرقية التي ورثتها. لم يكن جابر راضياً عن سلوك زوجته مؤخراً، وهذه البارانويا التي استولت عليها، ولكنه لم يكن يريد إغضابها أو جرح مشاعرها، فتركها على سجيتها. بل إنه علق ذات مرة على غريس،

وهو يرى سميحاً الصغير ينوء بما يحمله عنقه، قائلاً وهو يضحك: «ولماذا لا تلبسينه شعار بوذا وكونفوشيوس والهندوس؟»، فردت عليه غريس بجدية أنها كانت تفعل ولكنها لا تعرف شعارات هؤلاء، فكتم جابر ضحكته وعاد إلى تأمل سميح وخصلة الشعر الفضية وقد غاب بعيداً.

كان جابر مستغرقاً في نومه، ولم يشعر إلا ويد باردة برود الثلج تهزه بهدوء وهي تقول بصوت كالهمس قادم من بعيد:

ـ جابر... يا ابن خب السموات... انهض... انهض...

ونهض جابر مرعوباً، فلم ير إلا الظلام محيطاً. وفجأة انشق السقف، ونفذ منه عمود من نور أبيض فضي، يربط الأرض بالسماء، وعلى رأس العمود كانت حمامة بيضاء ترفرف، وندف من ثلج أبيض كانت تتساقط على السرير، وصوت هامس غير غريب يقول:

ـ جابر... هل نسيتني؟..

ـ ومن تكون؟..

ـ يا لضعف ذاكرتك أيها الإنسان... أنا رسول سميح إليك... هل نسيت؟..

كان الصوت صوت سميح ذاته، فأخذ قلب جابر يدق بعنف، بينما الصوت يقول:

ـ يقول لك سميح ابتعد عن بيروت... حذار من بيروت... في بيروت يقطن عايش، وتكثر الأفاعي، وتنتشر الفئران...

ـ لماذا؟.. عايش مات...

ـ عايش لا يموت... إذا كان عايش قد مات، فإن عايشاً لم يمت...

ـ لم أفهم...

ـ سوف تفهم...

ـ أفصح...

ـ قد أفصحت...

ـ أوضح...

ـ أنت من يوضح...

ـ ما هذا اللغز؟..

ـ أنت من يجعله لغزاً...

ـ زدني...

ـ لا مزيد... قد نقلت الرسالة... قد نقلت الرسالة...

وغابت الحمامة بمثل ماجاءت، وتوقفت ندف الثلج، والتأمت الفرجة على نفسها، وغاب جابر عن الوعي عندما نهض في الصباح، كان كل شيء محفوراً في ذاكرته كالنقش في الحجر، ولم يحاول هذه المرة أن يتبين أن ما رآه كان حلماً أم حقيقة، ولكنه كان مصمماً على عدم العروج على بيروت في طريق العودة مهما كان الثمن. أخبر غريس بقراره بعدم المرور ببيروت، فثارت وغضبت، وهي قلما تثور وتغضب. أنها تريد رؤية أرض الآباء ومثوى عظام الأجداد، والأرض التي استقبلت جسد جبران لأول مرة، والأرز الذي بنى به سليمان هيكله، والضيعة التي لا يفتأ والدها يتحدث عنها بحنين أين منه حنين آدم لفردوسه المفقود، وبسكنتا والشخروب وصنين، التي لا يفتأ صديقهم القديم ميخائيل نعيمة يتحدث عنها، فلم يجد جابر بداً من إطاعتها. حدثته نفسه بإخبارها بحدث البارحة، ولكنه خشي عليها، فقد أصبحت الرعب مجسداً منذ أن رأت تلك المخلوقات الغريبة تحوم حول سرير سميح الصغير.

وفي بيروت، نزلوا في فندق بسيط وأنيق من تلك الفنادق المطلة على

ساحة الشهداء، وجابر يتذكر آخر مرة كان فيها في بيروت، حين أقام وإيثل في فندق فخم يطل على الروشة مباشرة، ولكنه اليوم أسعد كثيراً. كانت غريس السعادة مجسدة، فأخذت تنتقل مثل الفراشة في كل مكان، ولم يكن سميح يفارقها لحظة واحدة. جابت السهل والجبل، وانتقلت بين أحراج الأرز والصنوبر، وذهبت عدة مرات إلى ضيعة أهلها في الجبل، ونحر آل رزق الله خرافاً كثيرة إكراماً لها، وشربت الكثير من عرق الضيعة البلدي، رغم أنها لا تحب الكحول عادة. مرت أيام بيروت في غاية السعادة، وهدأت مخاوف جابر وهو يرى سعادة غريس، وأكد لنفسه أن ما رآه مجرد حلم مزعج، أو من تهيؤاته التي كثرت منذ أن قدم سميح الصغير إلى الحياة.

وقبل السفر إلى الظهران بيوم واحد، نهضت غريس باكراً. وقد عزمت على زيارة الضيعة ووداع أهلها قبل السفر. كانت تبدو ذلك اليوم في غاية السعادة، وكان وجهها أقرب ما يكون إلى وجوه الملائكة التي تبدو في صور الكنائس والكاتدرائيات والأديرة، وخاصة عندما لفت رأسها بمنديل أبيض ناصع، بدا كأنه هالة نورانية تحيط برأسها. قبلت جابر بحنان، وتواعدا على اللقاء مساء على العشاء الأخير في بيروت، في مطعم صغير على البحر غير بعيد عن الروشة نفسها. وانطلقت هي وسميح، بعد أن ألبسته حلة زرقاء بلون السماء، وقد تحول وجهها كله إلى ابتسامة صافية. لا يدري جابر ماذا أصابه في تلك اللحظة، فقد أحس بالاختناق، وصوت داخلي يدعوه إلى اللحاق بهما ومنعهما من الذهاب إلى الضيعة، ولكن ذلك الإحساس اختفى بسرعة كما حل، وتعوذ جابر من وسوسات الشيطان الرجيم وهمزاته، ومن هواجس نفسه الأمارة بالسوء، وعاد الهدوء يحتل جنبات نفسه.

وجاء المساء. . .وجلس جابر في بهو الفندق الصغير، يقلب مجلة بملل انتظاراً لغريس وسميح، ولكن الوقت يمر ولا أثر لهما. لم يقلق جابر كثيراً، فلا بد أن «البوسطة» قد تأخرت في المجيء من الضيعة، وهما قادمان

بعد قليل. أخذ يقلب صفحات المجلة، واستغرق في قراءة تحقيق صحفي عن أعمال الفدائيين في قناة السويس، والقلق الذي يسببونه للإنجليز في مصر. إنها العاشرة ليلاً، ولا أثر لغريس وسميح... وأخذ القلق يستبد بجابر، فنهض واستفسر من المسؤول في الفندق عن مواعيد حافلات الجبل، فأخبره ألا مواعيد لها، ولكنها تتوقف عادة في السابعة مساء، سواء في الذهاب إلى هناك، أو المجيء من هناك. وتحول القلق لدى جابر إلى خوف، وعاد إليه حلم ليلة السفر من أمريكا... أيكون تحذير سميح صحيحاً؟... كلا... كلا... لا تدع الأوهام تسيطر عليك يا ابن سدرة... قال لنفسه... لا بد أنها تأخرت في الضيعة، وأصروا عليها قضاء الليلة الأخيرة معهم... وعلى أية حال، فالطائرة لن تقلع قبل مساء الغد، وحتماً سوف تكون غريس وسميح هنا ما أن تشرق الشمس، وتعود الحركة. وحاول جابر أن ينام، مقنعاً نفسه بذلك.

وأشرقت الشمس، ولم يطرق النوم عين جابر، الذي هب على عجل وجلس في البهو يحتسي فناجين القهوة الواحد تلو الآخر، والوقت يمر، والقلق يتزايد، ولا أثر لغريس. لم يستطع صبراً، استقل أول سيارة أجرة صادفته، وانطلق إلى الضيعة. وهناك تحول قلقه إلى رعب قاتل... لقد جاءت غريس وسميح إلى الضيعة فعلاً، ولكنهما غادرا في آخر «بوسطة» تمر بالضيعة أصيل ذلك اليوم. ولكنها لم تصل إلى بيروت، فأين هي، وأين سميح؟ وأصبح جابر كالمجنون لا يدري ما يفعل، وأين يبحث عنها. وجاء طفل صغير من أطفال الضيعة، وقال كلاماً جعل جابر يشعر بالرعب يشل قدرته على الحركة. لقد رأى الست غريس وابنها سميح وهما يركبان «البوسطة» إلى بيروت، وكانت الحافلة خالية من الركاب تقريباً في ذلك الوقت المتأخر، ما عدا بضعة أفراد لا يتجاوزن عدد أصابع اليد الواحدة. وكان بين الركاب شخصان غريبان لم يرهما من قبل في الضيعة: أحدهما داكن البشرة، خشن شعر الرأس كان يجلس في الكرسي الأخير شمال الحافلة، والآخر فاتح البشرة، ناعم شعر الرأس، بخصلة شعر فضية، يجلس

في المقعد الأخير يمين الحافلة. وجفل جابر عندما سمع هذه الأوصاف، فهي أوصاف عايش وسميح.

مر جابر بجميع مراكز «الدرك» في الطريق بين الضيعة وبيروت، وفي بيروت نفسها، ولكن لا أثر لأي شيء. عاد إلى الفندق في المساء منهوك القوى، ممنياً النفس برؤية من يحب هناك، ولكن لا أثر. ذهب إلى غرفته وهو يفكر ما العمل، وهناك وجد رسالة أصابته بالفزع حقاً. كانت ورقة ملقاة على السرير وقد كُتب عليه سطر واحد: «ألم أحذرك من المجيء إلى بيروت». ألقى الورقة على السرير، وانطلق إلى البهو وهو يسأل المسؤول بجنون عمن دخل غرفته في غيابه، فأتاه جواب زاد من فزعه... لا أحد. وعاد إلى الغرفة وقد تحول إلى قلق مجسد، ولم يجد الورقة التي تركها لتوه، بل وجد ورقة أُخرى كُتب فيها: «انس غريس وسميح الصغير، فهما في أمان حتى تحين اللحظة ويسمح الزمان»، وانخرط جابر في بكاء مرير، وحسرة في النفس لا تلتئم...

١٤

مكث جابر في بيروت بعد اختفاء غريس وسميح الصغير عشرة أيام، ولم يدع فيها مكاناً إلا بحث فيه: في المستشفيات، وفي مراكز الشرطة، وفي مواقف الحافلات، ولكن لا أثر لها أو لابنها. ويئس من إمكانية العثور عليهما، خاصة بعد آخر رسالة وجدها ملقاة على سريره تقول: «لم تسمع التحذير، ولا اكترثت بالنصح، لا تقلق، غريس وابنها بخير، فعد إلى بلدك وانتظر مع المنتظرين...».

وعاد إلى الظهران كسير الخاطر والنفس، وكانت هناك أخبار سيئة أُخرى صدمته بعنف بمجرد الوصول. أخبره مستر هاملتون أن روبرت بلاكستون انتحر بعد سفره بسنة تقريباً. «اتصلت إيثل بي ذات صباح»، قال المستر هاملتون، وهي تصرخ: «لقد مات بوب... لقد مات...»، فذهبت مسرعاً إلى هناك، وكان بوب متدلياً من سقف الكراج بحبل غليظ. ووجدنا

في جيب قميصه رسالة قصيرة تقول: «عزيزتي إيثل... لم أعد أعرف من أنا، فلعلي أكتشف من أنا هناك... أرجو أن تعتذري لكاثي وبوب الصغير، وتحاولي أن تشرحي لهما الموقف... المحب: بوب». شعر جابر بالأسى فعلاً لمصير مستر بلاكستون، وخففت هذه الحادثة بعضاً مما كان يعانيه من فقد غريس وسميح الصغير، وإن كانت جعلته يفكر كثيراً في لماذا انتحر بوب في الكراج؟ ألذلك علاقة بما كان منه مع إيثل، أو تلك الأسرار التي ذكرتها إيثل في المطار؟ ولكنه على كل الأحوال كان على أحر من الجمر لمعرفة ما حل بإيثل. قال له المستر هاملتون أن إيثل غادرت مع جثمان زوجها إلى أمريكا، ورافقتهما نانسي زوجته، التي لم تحتمل الصدمة، فكانت بحاجة إلى إجازة طويلة عند أهلها في فيرمونت. ولم يعرف أحد مصير إيثل أو ما فعلت لعدة أشهر، حتى تلقت مارثا سيمبسون رسالة منها تفيد بأنها أودعت مكافأة الشركة في البنك باسم كاثي وبوب الصغير، وانتظمت في سلك الرهبنة في كاتدرائية معزولة في أعماق جبال روكي، وتطلب منها الاعتناء ببوفي العزيزة، التي تعيش آخر أيامها.

سبحان الله... أخذ جابر يفكر... إيثل راهبة؟!.. لم يكن يتصور يوماً أنها ذات دين، فإذا بها راهبة. وطاف في ذهنه آخر مكالمة بينهما في أمريكا، وحديث العانة واللحية... ماذا تفعل بعانتها اليوم يا ترى؟... ابتسم جابر وهذه الخاطرة تمر بذهنه، وما لبثت غريس أن احتلت مساحة تفكيره كلها، فعاد وجهه إلى العبوس من جديد، وقرر أن يأخذ إجازة في أقرب فرصة ويعاود البحث عنها في بيروت... لن يفرط بحقه في الحب هذه المرة مهما كان الثمن. أحب زهرة فماتت، وأحب هنداً فضاعت، وأحب إيثل بشكل ما فانتهت... كلا... لن يترك غريس تضيع منه كما ضاع كل شيء، ولن يترك سميحاً بعد أن أنجبه...

وفي تلك الليلة شرب كثيراً، وأخذ يحادث غريس وزهرة كثيراً، فقد كانتا تجلسان عن يمينه وعن شماله، وقد ارتدتا ثوباً واحداً ناصع البياض، وهما تنظران إلى بعضهما البعض من دون أن تتكلما، وظل بسمة واحدة

يحتل شفاههما. لم يكن يدري أيهما زهرة وأيهما غريس، ولكنه كان يعلم أنهما زهرة وغريس رغم كونهما شيئاً واحداً. وكانت هند تقف بعيداً عن الباب وهي تقضم تفاحة حمراء، تمد يدها بها إليه بين الحين والآخر، وهي تبتسم ابتسامة غريبة، لا يشبهها إلا ابتسامة الموناليزا الغامضة، وإن كانت ابتسامة هند مرعبة رغم أنها لم تكن مرعبة. وفي المطبخ المكشوف، كانت هيلة تعد شيئاً ما، وهي تنوح بصوت كالهديل:

تلعب بقلبي وانا اطيعك   وانت سبب كل ما جاني
أنا اللي اشريك ما ابيعك   لو كثروا فيك الاثمان
صارت لغيري منافيعك   عقب الغلا كيف تنساني

بينما كانت إيثل تظهر وتختفي كالبرق، وقد تدثرت بعباءة فاحمة السواد، وأمسكت بحبل يتدلى منه شخص ما... لا، لم يكن شخص ما، بل كان بوب بلحمه وعظمه، وكانت إيثل تغني وكأنها ترتل شيئاً من سفر المزامير:

If you love me,let me know
If you don't, let me go...

وأحس جابر بالدموع الساخنة تبلل وجنتيه، وشيء في داخله يتحدث... من قال إن القلب لا يحب إلا واحدة... إنه يحب الجميع، وفي القلب متسع لأكثر من امرأة، وأكثر من حب، فالقلب هو الكون وهو الوجود، وفي الوجود متسع للجميع. وفجأة، اختفى الجميع فجأة، واختفى المنزل كله، وساد ظلام حالك، وأحس جابر أنه في دوامة تدور بسرعة، جاذبة إياه إلى أعماق لا قرار لها. وتوقفت الدوامة فجأة كما ابتدأت، ووجد جابر نفسه في مكان ليس بمكان، فلم يكن هناك حدود ولا أبعاد... مجرد فضاء لا نهاية له، وسكون لا صوت فيه إلا صوت نسمات الحياة تدخل وتخرج، معلنة استمرار الحياة. استمر الظلام لفترة لا يعلم جابر مداها، فحتى الزمان اختفى في هذا البعد الذي وجد نفسه فيه. وبدون سابق إنذار، بدأ بصيص من نور زيتوني أخضر يظهر من بعيد، وأحس كأنه دخل نفقاً طويلاً، وشيء يدفعه في داخل النفق باتجاه النور. كان مدفوعاً

في النفق بسرعة رهيبة، وعلى جانبي النفق، كانت صور كثيرة تمر عليه بسرعة غريبة، ولكنه كان قادراً على تمييز الصور: ها هو يرى نفسه وليداً وقد خرج من بطن أمه على ذلك النفود ذات يوم، وها هو والده يضحك مستبشراً بمجيئه، وها هو يلعب مع سميح وبقية صبية الخب «عظيم لاح، وين سرى وين راح»، ها هو يجلس مع أبي عثمان وهما يتحدثان حديثاً لا يسمعه، وهناك جهجاه وهو يموت، وها هي هند تحمل سليماناً، وخالته شكرية تبتسم، وهناك ها هو عار وهو يجلد إيثل التي تصرخ من دون صوت، وتظهر غريس وسميح، وتلوح بيروت والضيعة، ويطوف طائراً على جمل حول الظهران ورأس تنورة... كل حياته بتفاصيلها مرت عليه صوراً واضحاً وهو مدفوع بقوة إلى مصدر النور. أحاسيس ومشاعر كثيرة تعاقبت على صدره: فرح، ألم، حزن، سعادة، قلق، خوف، غثيان، حيرة، ضياع، حب، بغض، شهوة، ندم، يأس، أمل، ضحك، بكاء، رقة، قسوة، يقين، عبث، طمع، قناعة، حتى وجد نفسه وقد خرج من الطرف الآخر للنفق. وأخذ النور ينتشر حتى تحول كل شيء إلى اللون الأخضر، وكأنه سقط في بركة من زيت زيتون مضيء. بركة كأنها تلك الجوهرة الخضراء التي خلق منها الفاطر العالم كله. كل شيء ساكن وجميل، وأحس جابر براحة وسكون في النفس لم يحس بهما من قبل. وأخذ يتقلب في بركة النور تلك وهو يشعر بالسعادة والفرح. لا، لم يكن مجرد شعور بالفرح والسعادة، بل هو شعور أعمق من ذلك كثيراً، وهو لا يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن شعوره في تلك اللحظة، بمثل ما أنك لا تجد كلمة مناسبة للتعبير عن لذة الجنس لطفل صغير، فتلجأ إلى التشبيه، ولكن التشبيه لا يغني عن الحقيقة شيئاً. وبينما هو يعانق أمواج النور في البركة، ظهر في الأعلى بدر فضي، مجرد النظر إليه يجلب طمأنينة في الداخل من حيث تدري ولا تدري. كان البدر من دون ملامح محددة، ولكنه كان مبتسماً طوال الوقت. ثم أخذ البدر يأخذ ملامح محددة... رباه... إنه سميح... ولكنه لا يلبث أن يتغير... رباه إنه سميح الصغير... كلا... بل هو غريس... إنه زهرة هذه المرة... يا إلهي، ها هو أبو عثمان يظهر باسماً،

وبجانبه إيثل... ماذا يجري؟.. ما الذي جمع الشرق والغرب معاً؟.. وها هما هيلة وهند تطلان من هناك وتشيران إليه وهما تضحكان. وبينما هو غارق في تأمل البدر، بدأت دوامة من النور تثور من قاع البركة، ووجوه كثيرة تظهر وتختفي، ثم لم تلبث الدوامة أن ألقت به في النفق، وعاد إلى الظلمة من جديد، وغابت الوجوه جميعاً، ولم يبق إلا خيال البدر الفضي مبتسماً...

سفر الحنين

في تلك الأيام، لم يكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع

لم يكن هناك أسد ولا كلب شرس ولا ذئب

لم يكن هناك خوف ولا رعب

لم يكن للإنسان من منافس

في تلك الأيام كانت «شوبور» أرض الشرق، أرض الوفرة وشرائع العدل

وسومر أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرائع الملكية

و«أوري» أرض الشمال، الأرض التي يجد فيها كل حاجته

و«مارتو» أرض الغرب، أرض الدعة والأمن

وكان العالم أجمع يعيش في انسجام تام

وبلسان واحد يسبّح الكل بحمد انليل

(أسطورة سومرية)

«فعند ذلك يوحي الله إلى الأرض بأن تخرج بركتها للناس وخيرها كما كانت في الأول حتى قيل إن عشرة من الناس يجتمعون على عنقود من العنب وعلى رمانة واحدة فيأكلون منها ويبقى من المأكول أكثر مما أكلوا منه

وعلى هذا فقس جميع الأشياء التي تؤكل ويكثر العدل حتى أن الحية تكون بيد الطفل فلا تؤذيه ويلعب بها ولا تضره ويكون الأسد مع الشاة فلا يفترسها ويكون الذئب مع الغنم فلا يؤذيها وهو إلى جانبها حتى أن الحي يمر على الميت فيقول له ليتك كنت حياً ورأيت هذه الأيام..»

(«بدائع الزهور» لابن أياس).

١

عندما عاد إلى الخب، فوجئ بولده عبد العزيز، الذي ولِد بعد مغادرته ببضعة أشهر. لم يخبروه بولادة عبد العزيز، فقد كانوا يريدون أن يفاجئوه به. ورغم أنه لم يغب عن الخب أكثر من ثلاث سنين وبضعة أشهر، فقد بدت هيلة كأنها عجوز تجاوزت الستين، رغم أنها لم تبلغ الأربعين بعد. ذهب جمالها، وذهب كل بريق للحياة في عينيها، وأصبح المصحف لا يفارق يديها، وجل نهارها تقضيه بين قبري رفيع وعلياء، أو زهرة وأبي عثمان. ورغم علمها بحرمة زيارة القبور للنساء، فإنها لم تستطع منع نفسها من فعل ذلك، وتجلس في ذات المكان الذي انشق عن تلك الكائنات الغريبة السوداء، بُعيد وفاة زهرة. لم يكن ولده الجديد المكتشف، عبد العزيز، أكبر من ولده سميح إلا ببضعة أشهر لا تصل إلى السنة، ولكنه كان على النقيض منه تماماً. فقد كان شديد السمرة، أجعد الشعر، صغير العينين، نحيفاً لدرجة الهزال، كان أشبه ما يكون بعايش نفسه بحسب الوصف. وابتسم جابر بمرارة عندما رأى ولده عبد العزيز لأول مرة، وهو يقول لنفسه: «سبحان من له الحمد على الدوام... أكُتب عليَّ أن أنجب سميحاً وعايشاً معاً؟.. حكمتك يا صاحب الحكمة». لم يشعر بأي ود نحو هذا الولد الجديد، ولكنه حاول أن يحبه، ولم يفرق بينه وبين الآخرين في المعاملة، فهو ابنه مهما كانت الظروف. ورغم أن عبد العزيز كان الأقل وسامة بين أبنائه، إلا أنه كان الأكثر حركة، رغم أنه لم يتجاوز ربيعه الخامس على أفضل تقدير. فلا عثمان ولا صالح، أكثر أولاده شبهاً به،

رغم وسامتهما الظاهرة، كانا بمثل حيوية عبد العزيز وحركته التي لا تهدأ، عندما كانا في سنه، فهو لا يكاد يسكن حتى يلقيه النعاس أرضاً بالرغم منه. وبدأ يقلقه عزلة عثمان وانطواؤه على نفسه، وعدم ميله إلى الحركة وتكوين النفس. ورغم أنه تجاوز العشرين عاماً من العمر، فلم يكن له صاحب إلا عثمان بن أبي عثمان، الذي كان الأكثر نشاطاً في متابعة أعمال حايط السماوي. فبعد أن ترك أخواه الخب، واستقرا في الرياض، لم يعد هناك من يرعى الحايط ويقوم بأعماله. والحقيقة أن الكثيرين من أهل الخب تركوا الزراعة أو كادوا، فقد كان مردودها قليلاً جداً، بالمقارنة بما يمكن أن يُجنى من العمل في التجارة، أو الحصول على وظيفة حكومية ثابتة المرتب، أو الالتحاق بأرامكو. ورغم الفارق في السن بينهما، كان عثمان السايح يبدو أكبر سناً، وأكثر حركة، وإن كان الحزن مرسوماً على وجهه، الذي كان مزيجاً من وجهي أمه وأبيه. فقد كانت تقاطيع وجهه أقرب إلى أبيه، ولكن ملمحه العام يوحي بزهرة. أما صالح، فقد كان ميالاً إلى اللهو مع شلة من أصحابه، حيث لا يعود إلى البيت إلا للنوم، وأحياناً كان لا يعود باليومين والثلاثة، وعندما كان يُسأل عن مكانه، كان يقول إنهم في «كشتة» هنا أو هناك. كانت هيلة قلقة عليه، وخائفة من غيباته، فهو ما زال صغير السن في نظرها، ولكنها اعتادت على الأمر، وأصبحت لا تعاتبه إلا بالنظر، والدعوة إلى الله أن يهديه.

أما مزنة، فقد كان جسدها ينبئ بأنوثة مبكرة، وجمال لا يقارن إلا بجمال أمها عندما كانت مضرب المثل في الجمال، يوم كان الخب خباً. لا يدري جابر بالضبط كم عمر مزنة، ولكنها لا يمكن أن تتجاوز السنين العشر بأي حال من الأحوال، ولكن من ينظر إليها، يعتقد أنها تجاوزت ربيعها السادس عشر على الأقل. «غريب أمر النساء»، أخذ جابر يحدث نفسه، «فهن ينضجن قبل الأوان، ويشخن قبل الأوان، ولا شك أن لله حكمة في ذلك». وتذكر شيئاً كان قد قرأه منذ زمن حول هذا الموضوع، وربما كان أبو عثمان قد قاله، أو الشيخ سلمان السماوي، رحمهما الله. لا

يذكر بالضبط إن كان قد قرأ أو سمع، من أن الله خلق آدم من طين، وخلق حواء من ضلع آدم، أي من لحم، ولذلك فإن المرأة يقل جمالها كلما تقدمت في السن، والرجل يزداد وسامة كلما تقدم في العمر. فاللحم يفسد مع الزمن، بينما الطين يزداد تماسكاً. وابتسم جابر وهو يقول لنفسه: «ولكنهم لم يكونوا يعرفون الثلاجات في ذلك الوقت»، ثم طرد هذه الفكرة من رأسه وأخذ يستغفر الله عدة مرات.

مكث في الخبر ما يقارب الشهر، لم يتركه التفكير بغريس وسميح الصغير لحظة واحدة، رغم سعادته الناقصة برؤية هيلة والأولاد. ولاحظت هيلة شروده الدائم، فأيقنت أنه قد «أعرس» مرة أُخرى في بلاد النصارى. فاتحته في الأمر وهما يشربان القهوة ذات صباح، ولكنه أنكر وحاول أن يقلب الأمر إلى مزاح ودعابة. ولكن هيلة تأكدت أن هناك سراً يخفيه جابر، عندما لم يجامعها إلا مرة واحدة منذ أن عاد من «الخارج»، رغم محاولتها التزين والتعطر على قدر ما تستطيع. وحتى عندما غادرت معه إلى الظهران، برفقة صالح وعبد العزيز ومزنة، لم يمارس معها «حقوقه» الزوجية إلا مرتين، طوال فترة إقامتها التي لم تدم أكثر من ستة أشهر، رغم أنه كان في غاية دماثة الأخلاق معها، ولم يخل بواجباته الأبوية والزوجية الأُخرى بأي شكل من الأشكال. لم تستطع هيلة تحمل الحياة في الظهران، ولا تلك الحياة الاجتماعية الجديدة التي لم تعتدها، خاصة أولئك الثقلاء من الأمريكان الذين يدعوهم زوجها أحياناً مع زوجاتهم، فهم يتحدثون بلغة لا تفهمها، ويشربون ما حرمه الله، وتكشف نساؤهم عن عورة حرم الله كشفها. وأكثر ما كان يثير غيرة هيلة، هو عندما ترى جابراً يحدث إحداهن، أو يضحك وإياها، وهو يشرب ما يشربون، فتتذكر تلك الأفعى البيضاء التي لدغت زهرة، وتتذكر حديث زهرة لحظة احتضارها عن تلك المرأة البيضاء التي رأتها تختفي في القليب. وكان مما يثير هيلة أكثر، أنه بعد انتهاء تلك السهرات التي يضحك فيها جابر كثيراً، ويتحدث كثيراً مع نساء الأمريكان، كان يواصل الشرب وحيداً، ثم يأخذ في الحديث إلى نفسه، وبعدها ينخرط

في بكاء ونشيج يقطعان القلب فعلاً. حاولت في بداية الأمر أن تعرف ماذا حل به، ولكنه لا يريد أن يقول لها شيئاً، وإن كانت عيناه تودان قول الكثير، ففيهما كانت ترى الكثير. وبعد أن يثمل جابر تماماً، كان يلقي بنفسه في أقرب مكان من البيت، ثم يعلو شخيره، وقطرات من الدمع لا تزال تنساب من عينيه.

ولم تعد هيلة ترى جابراً كثيراً، فهو في العمل طوال أيام العمل الأسبوعية، وفي سهرات طويلة مع أصحابه في الإجازة الأسبوعية. وحتى أيام العمل، كان لا يعود إلى البيت بعد انتهاء الدوام، بل كان يتغدى ويتعشى في كافتيريا الكامب، ولا يعود إلا كي ينام ثم يذهب إلى العمل في الصباح. هي مرة واحدة أو مرتان أخذها والأولاد إلى «هاف بمبي»، ولكنها لم تستسغ منظر نساء الأمريكان وهن مضطجعات على الشاطىء شبه عاريات، ونظراتهن الملتهبة إلى جابر وجسده شبه العاري أيضاً. لم تجد هيلة مبرراً لمكوثها مع جابر في الظهران، فقد أخذت تشعر أنهما يعيشان في بعدين مختلفين، فلم يعد هو جابراً الذي عرفته في الأيام الخوالي، بل أصبح إنساناً آخر منذ سفره إلى الخارج، بل ومنذ تلك اللحظة التي ذهب فيها للعمل مع النصارى من الأمريكان. وتذكرت يوم وفاة زهرة، وما فعله معها جابر ليلة الوفاة، فأحست بمقت شديد تجاهه، وترحمت على زهرة كثيراً. ولم يكن لهيلة ملجأ في غربتها، ومن غربتها، إلا الدموع والمصحف، تلجأ إليهما عندما تحس بأن نفسها أصبحت صندوقاً معدنياً ينقبض على بعضه، وشاخت خلال تلك الشهور الستة ما لم تشخه خلال سنوات طوال، فقد غزا الشيب معظم شعرها، وتغضنت بشرتها، وخاصة تحت العينين وحولهما. وأخيراً قررت العودة إلى الخب، فالبعد عن جابر أقرب من القرب إليه. وكان ما يثنيها عن اتخاذ القرار سابقاً هو تعليم صالح. فقد ألحق جابر صالحاً بمدرسة أرامكو، التي سوف تمنحه بعثة إلى الخارج، ومن ثم العمل في أرامكو بعد العودة. كان مستقبل صالح بالذات هاجسها، ولكنها عزمت على الرحيل عندما اكتشفت أن صالحاً لا يذهب إلى المدرسة

أكثر الأحيان، ويقضي الوقت مع بنات الأمريكان، أو مع أصدقاء جدد كونهم بسرعة عجيبة، في الخبر وأماكن لا تعرف ما هي. أنها لا تريد له الانحراف، أو أن يصبح ليس هو، كما أصبح أبوه جابر. والمشكلة أن جابراً كان يبدو سعيداً بتصرفات صالح، إذ كان يقول لها، كلما فتحت موضوعه أمامه: «دعيه يتعلم من أفضل مدرسة... مدرسة الحياة»، ولكنها لا تريده أن يتعلم من مدرسة الحياة هذه، «فحياتهم غير حياتنا، ومدرستهم غير مدرستنا»، هكذا كانت تقول دائماً، ولا يقابلها جابر إلا ببسمة بلهاء، وهزة عابثة من رأسه، وهو ينظر إليها نظرات باردة لم تفقه معناها. وحاول جابر أن يثنيها عن عزمها، مرة بالقول أنها سوف تعتاد الحياة الجديدة، ومرة بوعدها بالسكن في الدمام أو الخبر أو حتى الثقبة، إذا كان الجو الاجتماعي في الظهران لا يناسبها، ولكنها كانت قد قررت وعزمت، وهي لا ترجع عن قرار اتخذته، فرأسها «ناشفة»، كما كان جابر يقول حين تثور المشاكل بينهما، رغم أن رأسه كان أنشف من رأسها. فلم يعد هناك ما يغريها بالبقاء، فزوجها ليس زوجها، وصالح سوف يتعلم في أي مدرسة، فبريدة لا تخلو من المدارس، والشيوخ في المساجد أكثر من حصى المسجد، كما أن ولدها عثمان وعثمان السايح، اللذين قررا البقاء في الخب، يحتاجانها أكثر من حاجة جابر لها. وأهم من ذلك كله مزنة، فهي لا تريد لها أن تنمو في مجتمع «قليل الحيا والدين»، مثل مجتمع الظهران. وغادرت غير آسفة، وهي تحس أنها مثل طفل ضائع أعادوه إلى أحشاء أمه الدافئة...

كان جابر خلال هذه الفترة مهموماً بمصير غريس وسميح الغائب. فرغم تلك الرسالة الغريبة التي تلقاها في بيروت، إلا أنه غير قادر على الهدوء والانتظار. ما الذي جرى لهما؟ كان هذا السؤال يطارد جابراً في نومه ويقظته، وقد شغله فعلاً عن الاهتمام بهيلة والأولاد. أرسل الرسائل إلى عائلة رزق الله في أمريكا، وأرسلت له الرسائل، ولكن لا أحد يعرف ما الذي حل بغريس وولدها. حتى أن جوزيف رزق الله جاء إلى بيروت خصيصاً للبحث عن أخته، وقابل جابراً هناك، ولكن كأن غريس وسميحاً

لم يخلقا من الأساس، لا شيء يدل على أنهما كانا في بيروت أو في أي مكان آخر في لبنان. والغريب أن جابراً فوجئ عندما كان يبحث عن زوجته وابنه مع جوزيف، أنه لم يكن هناك دليل على دخولها لبنان أو نزولها في أحد الفنادق. فعندما راجعا دائرة الجوازات، كاد جابر أن يموت في مكانه، فلم يكن هناك أي ذكر لاسم غريس أو سميح في كشوفات الدخول، اسمه هو فقط. وفي الفندق حدث الشيء نفسه، فلم يكن في السجلات إلا اسمه هو. وفي الضيعة لم يتعرف عليه أحد، ونفى الجميع أن تكون غريس قد أتت إلى الضيعة... كلا... إنه ليس بمجنون... كان جابر يحدث نفسه طوال الوقت... لقد أتوا إلى بيروت، واختفت غريس وسميح الغائب هناك... ماذا يجري إذن؟ إنه يكاد يجن، أو هو قد جن فعلاً. وبدأت نظرات الشك تلوح في عيني جوزيف... أيكون جابر قد فعل فعلاً شنيعاً لغريس وسميح؟ ولكن لا أثر ولا حس أو خبر عنهما حتى في أمريكا. فإن لم يكونا قد دخلا لبنان، فلا بد أنهما في أمريكا، أحياء أو أمواتاً، ولكن ليس هناك أي دليل على وجودهما هناك... ليسا في أمريكا وليسا في لبنان، أين يكونان إذن؟ وغادر جوزيف لبنان، وقد فقد الأمل في العثور على شقيقته وابنها، والشك يملأ صدره من ناحية جابر. واستمرت المراسلات بين جابر وآل رزق الله لعدة أشهر بعد ذلك، ثم انقطع الوصل بشكل نهائي، وبقيت غريس وابنها سراً مغلقاً لأقرب الناس إليها. بقي شيء واحد كان جابر متأكداً منه، أنه عرف غريس، وتزوجها، وأنجب منها، ووجود عائلتها أكبر دليل على ذلك. ولكن حتى هذا اليقين تبدد جزئياً بعد ذلك.

فذات يوم، بينما كان جابر يقلب أوراقه القديمة، وقعت يده على صورة تجمعه بغريس وسميح، وبقية أفراد عائلة رزق الله، أُخذت عندما اجتمعوا ذلك اليوم في «الثانكس غيفينغ». أمسك جابر الصورة وأخذ يتأملها بحنان، ثم فجأة هب من مكانه وكأن عقرباً لدغته... لم يكن شكل غريس أو سميح في الصورة كما يذكرهما... لقد كانت غريس نسخة طبق الأصل من زهرة، ولكنها هنا أشبه ما تكون بأختها باسكال ذات الشعر

الذهبي والعينين الزرقاوين، التي لا تشبه زهرة بأي شكل من الأشكال. فقد كانت غريس، كما يذكرها، ذات شعر بين الأحمر والأشقر، وعينين خضراوين، مثل زهرة تماماً. وسميح الغائب كان نسخة من سميح الذاهل، ولكنه هنا أشبه ما يكون بخاله سليمان، بشعر خروبي ليس فيه أي شعرة بيضاء أو فضية... رباه... ليس من المعقول أن يتخيل شكل امرأة عاش معها ردحاً من الزمن، وولد هو من صلبه. وفرك عينيه، وأخذ يتأمل الصورة مرة أُخرى... كل الوجوه كما يتذكرها... سمعان، رفقة، أدونيس، أفروديت، سليمان، جوزيف، باسكال... إلا وجه غريس وسميح الصغير... وأخذ يشك في نفسه، وفي قواه العقلية، لدرجة أنه بدأ يفكر فيما قاله جوزيف في بيروت من أنه قد يكون قد ارتكب عملاً شنيعاً، في لحظة لم تسجل في ذاكرته. وعادت به الذاكرة إلى ليلة مولد سميح الغائب، وكيف حامت الشكوك في صدره عندما رأى ابنه سميحاً نسخة طبق الأصل عن سميح الذاهل، ولكن الصورة التي رآها أخيراً تثبت أنه لم يكن يشبه سميحاً... ما الذي يجري، لا بد أنه مجنون، ولكنه غير مجنون، فهو يتعامل مع الآخرين ويتعاملون معه من دون أدنى بادرة توحي بجنونه. وحاول أن يستجمع تفاصيل ذاكرته، فعاد إلى اليوم الذي قابل فيه غريس لأول مرة في الكافتيريا... إنه يذكر ذلك اليوم كأنه البارحة... كانت غريس زهرة قلباً وقالباً، ولكن صورتها الآن تقول غير ذلك. أيمكن أن يكون ذلك خيالاً وأوهاماً وتهيؤات؟.. قد تكون الحياة كلها مجرد حلم وأوهام وتهيؤات. ولكن، هل كان الخب تهيؤات؟ هل كان أبو عثمان تهيؤات؟ هل كانت أيام علي وعايش ورفيع وعلياء وسميح وابن شكر والعويريني مجرد تهيؤات؟ هل كانت هيلة وهند وإيثل تهيؤات؟ هل هو نفسه مجرد وهم وتهيؤات؟ وحاول أن يغرق ذاته في الحياة، أو أن يُغرِق الحياة في ذاته، وتلاشى في غيبوبة شراب أصبح لا يصبر عنه...

٢

وجد جابر نفسه، بعد مدة وجيزة من عودته، ممزقاً من الداخل، فوق

ما هو ممزق. فقد بدأ عمال الشركة إضراباً شارك فيه ما يقارب العشرين ألف عامل، يطالبون فيه بحق التنظيم النقابي، وزيادة الأجور، وإلغاء التمييز بين موظفي الشركة، وتوفير منازل لائقة للعمال، ودفع أجور النقل، واعتماد اللغة العربية في المدارس. وكان واضحاً أن «اللجنة العمالية»، التي أعاد العمال تأسيسها في العام السابق، كانت تقف وراء الإضراب. لم توافق الشركة على تنفيذ مطالب المضربين، وساندتها في ذلك اللجنة الملكية الخاصة، واعتقل اثنا عشر عضواً من اللجنة العمالية. وأعلنت الأحكام العرفية في مناطق الشركة، وتحولت إلى ثكنة عسكرية تعج بالجنود والخويا والجيش الحافي. ولكن الشركة في النهاية لم تجد بدأً من التفاوض مع اللجنة، وقبلت أكثر المطالب: زيادة الأجور بنسبة ١٢ ـ ٢٠ في المئة، وتزويد العمال بملابس العمل والغذاء، وتوفير وسائل النقل، ومنحهم درجات تأهيلية أعلى. كما أطلق سراح المعتقلين، وكان من بينهم عبد الرسول الحشي وعلي عبد الحسين، وكثير من صحب جابر القدامى في اللجنة الأُولى.

كان هناك شعوران يتجاذبان جابر: فهو من ناحية متعاطف مع العمال وصحبه القدامى في اللجنة العمالية، وهو من ناحية أُخرى لا يريد فقدان جميع تلك الامتيازات التي حصل عليها بصفته أحد الموظفين الكبار الموثوق فيهم في الشركة... قلبه مع العمال، ولكن عقله مع نفسه. ومما زاد من تمزق جابر الداخلي، تعيينه عضواً في لجنة من «لجان الاتصال»، التي شكلتها الشركة لدراسة مطالب العمال، والكشف عن العناصر المريبة والنشطة من العمال. لقد تحول أخيراً إلى جاسوس على زملائه العمال... هكذا كان يحدث نفسه بأسى واحتقار عظيم للذات. ولكنه استمر في عمله رغم كل شيء، فلديه أطفال لا بد أن يربيهم، ولن يجد أفضل من الوضع الذي هو فيه، ولكن احتقار الذات بقي راسخاً لا يريم.

ولم يكد الإضراب ينتهي، ونفس جابر تهدأ قليلاً من صراعها، حتى

جاءت الأخبار بوفاة الملك عبد العزيز في الطائف... وانهالت الذكريات دفعة واحدة على ذهن جابر... خب السماوي، أبو عثمان، جهجاه، الإخوان، السبلة، الشام، هند، زهرة، إيثل، غريس، سميح الذاهل، سميح الغائب... أيكون عبد العزيز وكل ذلك وهماً وتهيؤات؟.. وابتسم بمرارة وهذه الخاطرة تمر في ذهنه... لم تكن وفاة الملك عبد العزيز مجرد ذهاب ملك ومجيء آخر، بقدر ما كانت علامة فاصلة بين مرحلة ومرحلة أُخرى في حياة جابر السدرة. لم يكن عبد العزيز مجرد ملك لدى جابر، بقدر ما كان ذاكرة بأكملها. قد تسمع بالملوك من بعيد، وتتصور أبهة الملك وأساطير السلطان التي تحيط بهم، ولكن عبد العزيز لم يكن ملكاً بهذا المعنى، وهو لا يزال يذكر قوله ذات مرة في مجلس كان فيه أبو عثمان: «لست إلا عبد العزيز بن عبد الرحمن، قالوا لي أنك ملك». فقد رآه جابر وعاشره وقاتل معه، فكان أكثر حميمية من ملك تسمع به من بعيد. أن تعرف الناس شخصياً يجعلك أكثر حميمية تجاههم، حتى لو كانوا أعداءك، فكيف عندما يكون الشخص من طراز لا يتكرر مثل عبد العزيز السعود. بكى جابر على الملك عبد العزيز كثيراً، ولم يكن يدري أعلى عبد العزيز كان يبكي، أم على مرحلة من حياته انتهت، وأُخرى في جوف المجهول لا يدري كيف تكون.

وأخذ الأمريكان في الشركة يحللون الوضع بعد وفاة «الأسطورة»، كما كانوا يطلقون على «ابن سعود». كان الجميع متفقين على أنه لا يمكن لأحد أن يملأ الفراغ الذي تركه ابن سعود، فهو من الرجال العظام القلائل في التاريخ، ومؤسس دولة من لا شيء تقريباً، وليس مجرد ملك عابر. وأخذوا يتحدثون عن إمكانية استمرار هذه الامبراطورية الشاسعة التي أسسها ابن سعود، وخاصة أن الملك الجديد، وإن بدا نسخة من أبيه شكلاً، إلا أنه لا يتمتع بمزاياه وحنكته السياسية، في امبراطورية تحتاج إلى قدرات فائقة للحفاظ عليها مترابطة الأطراف. لقد كان سعود، كما كانوا يصفونه آنذاك، مجرد نسخة كاريكاتورية من أبيه المهيب، وخاصة عندما قام في بداية عهده

بطرد مستشار أبيه، عبد الله فيلبي، الذي كان ينتقد فساد البلاط الملكي جهاراً. كان الجميع في الشركة من الأمريكان، متفقين على أن الابن الثاني للملك الراحل، ولي العهد الجديد، أكثر قدرة من أخيه على الحفاظ على تركة عبد العزيز، وكان أقرب إلى ذهنيتهم، ولكنه لا يمكن أن يتجاوز أخاه، الملك الجديد، وإلا خالف وصية أبيه وهو على فراش الموت، حين كان يقلب النظر بين ابنيه، ويوصيهما ببعضهما البعض. وانقسم من يعرفهم من الأمريكيين إلى قسمين: فقسم كان يرى أن مملكة عبد العزيز لن تستمر كثيراً بعد وفاته، وخاصة في ظل الأوضاع السياسية الجديدة في الشرق الأوسط بعد قيام دولة إسرائيل، والحركة العسكرية في مصر. وكان هذا الفريق يرى أنه حتى لو لم تؤثر هذه الأوضاع على مملكة ابن سعود، فإن العناصر والتكتلات التي قمعها عبد العزيز في حياته، وتلك التي استطاع السيطرة عليها بحنكته السياسية، لا بد من أن تنطلق من عقالها، وتعود الفوضى والصراع إلى جزيرة العرب من جديد. أما القسم الآخر، وإن كان يتفق مع رأي القسم الأول، فإنه يرى أن الولايات المتحدة والعالم الحر عموماً، لن يدعا الفوضى تعود إلى جزيرة العرب، وخاصة في ظل هذه الحرب الباردة بين العالم الحر وبلاد الستار الحديدي، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. كما أنهم لن يدعوا التيارات الانقلابية الجديدة تطيح المملكة الحليفة، كما كانوا يقولون. كان جابر يستمع إلى هذه النقاشات والتحليلات، وهو يضع يده على قلبه، فهو لا يريد للمشروع الذي سالت فيه دماء الجميع أن ينهار، وتعود صراعات الأمراء والشيوخ القديمة إلى الظهور، كما أنه غير مرتاح لأن يجير المشروع لجهة غير أهله، وأن يكون تحت حماية أناس غير أبنائه، يتركونه متى ما فرغت أهدافهم منه، كما العلاقة مع فتاة شارع تنتهي بمجرد انتهاء الاتصال الجنسي. نعم لقد مات عبد العزيز، وليس هناك من خلفائه من هو قادر على أن يكون عبدالعزيز ثانياً، ولكن الخشية هي من ترك عبد العزيز كلية. كان التوجس والترقب هما السائدان في تلك الأيام، وكانت الأيام حبلى، وكل يتكهن بجنس المولود على هواه، ولكن يبقى الزمن هو الكاهن الأكبر...

٤

وعادت التظاهرات والإضرابات من جديد، وعلى أشد ما يكون الوضع، وقد أصبح جابر عضواً في مجلس إدارة الشركة. كانت شعبية جمال عبد الناصر قد ارتفعت بعد اندحار العدوان الثلاثي على السويس، عقب تأميم القناة، وانتشر الفكر الثوري بين العمال خاصة، وهم الذين يتعاملون مع الأمريكيين كل يوم، ويعانون ضروب التمييز، ويرون عساكر أمريكا في قاعدة الظهران. فعندما قام الملك الجديد، الملك سعود الأول، بأول زيارة له للظهران منذ توليه العرش، استقبلته تظاهرات حاشدة، كانت ترفع شعارات مناهضة للامبريالية والاستعمار، وإجلاء القوات الأمريكية من قاعدة الظهران، وتطالب بالاعتراف الرسمي بلجنة العمال، كممثل ومتحدث رسمي باسم العمال، وزيادة الأجور وتقليص يوم العمل، ووقف التسريح الاعتباطي للعمال، ومساواة العمال الوطنيين بالأجانب في الحقوق والواجبات. وكان رد فعل الملك أن أصدر مرسوماً يمنع الإضرابات والتظاهرات، بدأت بعدها حملة اعتقالات واسعة. وكان رد فعل اللجنة المركزية للعمال الدعوة إلى إضراب عام، وطرح مطالب أكثر جذرية: وضع دستور وحرية العمل للأحزاب والتنظيمات الوطنية، وحق التنظيم النقابي، وإلغاء المرسوم الملكي بمنع التظاهرات والإضرابات، والحد من تدخل شركة أرامكو في الشؤون الداخلية للبلد، وإغلاق قاعدة الظهران، وإطلاق سراح المعتقلين. ولكن رد فعل الشركة والأمير كان قوياً وشرساً هذه المرة، فقد قُمع الإضراب، واعتقل مئات العمال، وأرسل بعضهم إلى «سجن العبيد» الرهيب في الأحساء، وفر كثيرون من زعماء العمال إلى خارج البلاد نجاة بأنفسهم، وهناك أسسوا تنظيمات سياسية أكثر عمقاً وجذرية من اللجنة العمالية، التي كانت العجينة التي انبثقت منها جميع تلك التنظيمات والأحزاب السياسية، والتي وجدت طريقاً لها إلى داخل البلاد لاحقاً. كانت كل القرائن تشير إلى فترة عصيبة قادمة، ولم يعد سميح يظهر لجابر في هذه الفترة، رغم أنه بأشد الحاجة إليه، فأحس بضياع رهيب، ولم يعد قادراً على

تحمل نفسه ذاتها، التي أصبحت بالنسبة إليه، كجيفة مهملة، برائحة نتنة تنشر الموت في كل مكان، عافتها حتى عقبان السماء.

٥

وأصبحت الظهران، بل المنطقة الشرقية كلها، ثقيلة على نفس جابر بعد وفاة عبد الرسول الحشي في سجن العبيد في الأحساء، الذي كان معتقلاً فيه منذ أحداث ١٩٥٦. لم يعد يطيق رؤية الأمريكان، الذين كان مضطراً إلى التعامل معهم من شروق الشمس حتى غروبها، ولم يعد قادراً على مجاملة الأمير وبطانته من المنافقين وأصحاب المصالح، الذين كان مضطراً إلى مقابلتهم في المناسبات. أصبح هواء الشرقية ثقيلاً فوق ما هو ثقيل، ولم تعد نفسه تطيق نفسه. كان بوده لو كان قادراً على الاستقالة ومغادرة المكان بأي شكل من الأشكال، ولكنه مسؤول عن عائلة كبيرة لا بد من إعالتها، فهو لم يعد جابراً الذي كانه قبل عشرين عاماً ليرحل متى شاء ويستقر متى شاء. كان أخواه قد هجرا الخب منذ فترة، واستقرا في الرياض حيث الرزق أوفر، فحاول مع إدارة الشركة حتى نُقل إلى مكتب الشركة في الرياض، مسؤولاً عن العلاقات الحكومية.

لم تكن الرياض التي عاد إليها هي رياض جهجاه والإخوان، بل تكاد تكون مدينة أخرى. فقد امتد العمران واتسع، حتى تجاوز السور الذي بناه الملك عبد العزيز عندما استولى عليها في بداية القرن. وكانت بداية التوسع إنشاء قصر «المربع» شمال المدينة، الذي حل فيه الملك عبد العزيز وحرمه، بينما بقي القصر القديم داخل السور مقراً للزائرين والضيوف. وأقام مماليك الملك في حي خاص بهم شرق المدينة، أصبح يدعى «حلة العبيد»، وجاورهم من الشمال ومن الشرق سكان جدد معظمهم من أهل القصيم، فأصبح حياً جديداً باسم «حلة القصمان»، ثم أزيل السور بكامله، وانتشرت الأحياء الجديدة في الجهات الشرقية والغربية والشمالية، وأصبحت الرياض أكبر مدن نجد وأجملها، خاصة بعد أن بدأ الطوب والأسمنت يحلان محل الطين واللِبن في البناء.

سكن جابر في منزل طيني واسع اشتراه في «حلة القصمان»، بمبلغ كبير قدره خمسة عشر ألف ريال، هو جل ما وفره من سنوات العمل السابقة، غير بعيد عن منزلي أخويه. اتهمه أخواه بعد شرائه المنزل بالسفه وقلة الذكاء، إذ أن المنزل، رغم سعته، لا يستحق هذا المبلغ الكبير. ولكنه لم يكن مهتماً كثيراً، فهو يريد الاستقرار في مكان يعبق بذكريات جميلة، ورائحة طيبة، بعيداً عن الشركة وذكرياتها المؤلمة، ويلتم شمل العائلة من جديد. وفي الرياض اجتمعت أسرة جابر في البيت الجديد، حيث انصرف صالح إلى ممارسة التجارة من خلال حانوت للأواني المنزلية افتتحه في «الديرة»، غير بعيد عن قصر الحكم القديم في الصفاة، ومقر أمير الرياض. كم كان جابر يود لو أن صالحاً واصل تعليمه في مدرسة رامكو، ولكن الخيرة فيما اختاره الله، كما أصبح يردد كثيراً في الأيام الأخيرة. أما عثمان، فقد التحق بوظيفة بسيطة، ولكنها ثابتة، في محكمة الرياض الكبرى، تتفق مع شخصيته المنطوية. وبقيت المشكلة مع عبد العزيز، هذا الشيطان الصغير. فلم يكد يكمل الصف الثالث الابتدائي، حتى أصبح يهرب من المدرسة، ويقضي معظم وقته في الشوارع، أو في حانوت أخيه صالح. وأعاد الصف الثالث مرتين، ولم ينفع معه عقاب ولا عتاب، ولا تهديد أو ترغيب، في الوقت الذي كانت فيه مزنة تموت حرقة على التعليم، ولكن لا وجود لمدارس البنات، وحتى لو وجدت، فإن هيلة لن توافق على الإطلاق، فما خُلقت المرأة إلا للزواج والإنجاب. وفي النهاية خضع جابر للأمر الواقع، وأخرج عبد العزيز من المدرسة، وأخذ يعمل صبياً في حانوت أخيه صالح. ولم يبق في الخب إلا عثمان السايح، الذي كان رافضاً مغادرة الأرض التي تضم رفات أمه وأبيه، ولكن جابراً كان مصمماً على استقدامه بأي شكل كان، وفي رأسه تدور فترة تزويجه من مزنة، وهي فكرة لم يبح بها لهيلة لعلمه أنها لن توافق عليها إطلاقاً، فعائلة السايح مجهولة الجذور، ولا يمكن أن تزوج ابنتها، سليلة السدرة والجعفري، إلى شخص لا جذور له. نعم إنها تحب عثمان السايح كواحد من أولادها، وتحترم أباه كل الاحترام، ولكن الحب شيء والزواج شيء آخر، ولكن جابراً كان

مصمماً على الأمر، ولم يكن ينتظر إلا اللحظة المناسبة لوضع هيلة أمام الأمر الواقع، فهو لن يجد أفضل من عثمان زوجاً لابنته الوحيدة.

وحاول جابر، بعد أن استقر في الرياض، أن يأتي بهند وابنه سليمان من الشام، وجاءت هند بالفعل لعدة أشهر، وزارت عائلتها وأخاها صالحاً في الزلفي، وقضت بعض الوقت في الخب. ولكنها في النهاية لم تعد تحتمل غبار الرياض وخشونة الحياة في نجد، كما كنت تقول. فعادت إلى الشام، وحملت بطفلها الثاني، واستقرت في جزء من بيت والدها بعد وفاة والدتها، بينما أجّرت معظمه إلى عائلة شامية من أصل نجدي، وأصبحت تتردد على الرياض بين الفينة والأُخرى، ولكنها لم تستطع الاستقرار بشكل كامل. والحقيقة أن ما كان ينفر هنداً من الإقامة في الرياض ليس غبارها وقسوة الحياة فيها، وإن كان ذلك هو السبب المُعلن، فقد أحبت في داخلها ديار أبيها وأهلها، ولكنها كانت تخاف كثيراً مما كان يُقال لها أنه يجري في الرياض، من خطف للنساء والأطفال، وبيعهم في أسواق الرقيق، أو التمتع بهم في بعض القصور. وطوال إقامتها القصيرة في الرياض، لم يحدث لها، أو لأحد تعرفه، شيء مما قيل لها عنه، كما أن جابراً حاول أن يقنعها بأن المسألة مبالغ فيها، وأن أكثر ما يُقال هو مجرد شائعات لا أساس لها من الصحة، ولكنها لم تستطع التحكم في هلعها، وكانت تقول: «باب يجيك منه الريح، سده واستريح»، وهكذا غادرت. وكان جابر يزورها مرتين في السنة، ويرسل لها على فترات ما يكفيها من مصروف، رغم أنها لم تكن بحاجة إلى شيء في الواقع.

والحقيقة أن جابراً كان مسروراً من عودة هند إلى الشام، فلم يكن يريد أن يجمع بين هيلة وهند في بيت واحد، وقد طافت بخياله ذكرى زهرة المؤلمة، كما أنه لا يحبذ فتح بيت آخر. لقد ترك الشرقية طمعاً في الراحة والاستقرار والابتعاد عن جميع المنغصات، وليس أكثر تنغيصاً من اجتماع زوجتين في بيت واحد، مهما كان الوئام بينهما، خاصة أنه يعلم مدى اعتزاز هيلة بنفسها وأصلها وفصلها. كما أنه، وبعد هذه السنين كلها، لم

يرد أن يكدر على هيلة حياتها، بعد أن هدتها السنون، وشعور غامض بالذنب يعتريه كلما تذكر حياتهما السابقة في الظهران، التي وإن لم تدم إلا عدة أشهر، فقد أحس أنه أساء إليها كثيراً فيها، كما أن هيلة هي الآن كل ما تبقى من ريحة سميح الذاهل. لقد كبرت هيلة وشاخت في بضع سنين، ما لا يشيخه البعض في عشرات السنين، وهو ينظر إليها تذبل أمامه غير قادر على فعل شيء، وتأنيب ضمير مؤلم يأكله من الداخل كلما التقت عيناه بعينيها. والغريب أن هيلة حملت في الوقت الذي حملت فيه هند، عندما كانت في الرياض. غير أنها أخذت في أيامها الأخيرة تشكو لجابر من أن تلك المرأة البيضاء التي رأتها زهرة في القليب، وتلك الحية البيضاء التي تتحول إلى امرأة شقراء، التي لدغت زهرة في فخذها، تظهر لها في أحلامها كثيراً. وكاد الهلع ذات مرة أن يقتل جابراً، عندما أخبرته هيلة ذات صباح مشمس من أيام كانون، أنها رأت تلك المرأة البيضاء في الليلة السابقة. كانت هيلة عائدة من الحمام بعد منتصف الليل، وقبل أن تدخل غرفة النوم، نظرت إلى الحوش في الطابق السفلي للاطمئنان الروتيني، وفجأة رأتها هناك... كانت تلبس عباءة سوداء ضافية، كتلك التي يلبسها رهبان النصارى، وتغطي شعرها ورأسها بخمار أبيض، وتسير في الحوش باتجاه باب الخروج. وعندما وصلت إلى الباب، نظرت إلى هيلة بسرعة، وابتسمت، ثم غابت عن الأنظار. ووصفت هيلة وجه المرأة التي رأتها، وهي تؤكد أنها ذات امرأة القليب، بينما كان قلب جابر يخفق بشدة... فقد وصفت إيثل بشكل دقيق، يكاد يصل إلى دقة الصورة. وتكرر ظهور المرأة لهيلة عدة مرات، وبذات الوضع والحركة، في ليال أُخرى. حاول جابر أن يرى تلك المرأة، ولكنها لم تكن تظهر إلا لهيلة.

وعندما يكون جابر في زيارة لهند وسليمان في الشام، كان لا بد أن يعرج على لبنان، ويبحث عن غريس وسميح، رغم علمه بعدم وجودهما، ولكن لا جدوى بالطبع. أدرك أخيراً أنهما اختفيا إلى الأبد، هذا إن كانا قد وجدا من الأصل، فلم يعد يستطيع الجزم بوجود أي شيء، ولكنه رغم

ذلك لم يترك عادته في العروج على لبنان كلما كان في الشام، والدوران على الضيع في «البوسطة»، إذ لعله يلمحهما، أو يأتيه خبر بهما أو منهما. مجرد أمل هو أول من يعلم أنه ضئيل جداً إلى درجة العدم، ولكنه أمل على أية حال...

٦

وتوفيت هيلة وهي تضع فيصلاً، أصغر أبناء جابر، في اليوم الذي حمل فيه مذياع جابر الضخم الأخبار بمقتل الملك فيصل الثاني، ابن الملك غازي في قصر الرحاب في بغداد. لم يكن جابر معنياً بالعراق وما يجري في العراق، بل لم يكن معنياً بالسياسة على الإطلاق، رغم حماسته القومية ككل من يعرف آنذاك، والتي كان يعتبرها شعوراً طبيعياً لا علاقة له بالسياسة. فقد كان يتابع أخبار الاضطرابات في لبنان، والثورة القومية على الرئيس كميل شمعون هناك، وأصبح مدمناً على سماع أخبار لبنان منذ غياب غريس وسميح الصغير، إذ لعله يسمع خبراً يشتم فيه رائحة سميح أو غريس، ولكنه أحس بالاشمئزاز من الطريقة التي تمت بها عملية القتل في بغداد، وشعر بالألم لمصير فتى صغير، ليس له ذنب إلا أن الظروف جعلته ملكاً لا يملك، وحاكماً لا يحكم، فلماذا القتل طالما تحقق الهدف من الانقلاب؟ كان فرحاً بالانقلاب على الأمير الفاسد عبد الإله، ونوري السعيد، عميل الاستعمار كما كانت تصفه إذاعة القاهرة، ولكنه كان مشمئزاً من كل تلك الدماء التي سالت، وخاصة دم فيصل الصغير. كان قد عقد النية منذ زمن، منذ انتهاء العدوان الثلاثي على مصر، ومنذ أن تمت الوحدة المصرية السورية قبل عدة أشهر، وإعلان الجمهورية العربية المتحدة، أن يسمي ما في بطن هيلة «عبد الناصر» إن كان ذكراً، ولكن أحداث العراق جعلته يغير رأيه فجأة. وظهر له سميح تلك الليلة، وقد غاب عنه طويلاً حتى فقد الأمل في رؤيته، وهو يبكي ويردد بصوت غير مسموع: «ويل للعرب من شر قد اقترب... ويل للعرب من شر قد اقترب...»، وقرر في اليوم التالي أن يسمي ابنه الجديد فيصلاً، على اسم الفتى المغدور...

كان جابر يريد دفن هيلة في الخب، بجانب رفيع وعلياء وزهرة وأبي عثمان، ولكن شقيقيه نصحا له بعدم فعل ذلك، فإكرام الميت دفنه، وبأسرع ما يمكن، وهكذا دفنها في مقبرة «العود» بالرياض على مضض. والغريب أن جابراً لم ير وجه هيلة مشرقاً طوال الأيام الأخيرة، كإشراقته يوم وفاتها. لقد كان مبتهجاً، وافر الصحة والجمال، وكأن هيلة الجعفري القديمة قد بُعثت من جديد. ولم تكد أشهر ثلاثة تنتهي، وبعد عدة أيام من تنصيب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية اللبنانية، حتى جاءته رسالة من الشام تبلغه أن هنداً وضعت أنثى سموها «شكرية»، على اسم أم هند. استشاط جابر غضباً، وأرسل برقية يبلغهم فيها أن يسمّوها «هيلة»، على اسم زوجته الراحلة، أو «علياء»، على اسم جدتها وجدة سميح، وقرر أن يسافر إلى بيروت والشام في أقرب فرصة ممكنة.

٧

كانت الرياض تغلي، فقد وصلت الأمور بين الأخوين، سعود وفيصل، نقطة اللاعودة، وبدأت رياح الماضي تنتشر في الأفق، مذكرة بتلك الأيام التي أيقن الجميع أنها ماض لن يعود. فمنذ أن سُمح للملك سعود بالعودة من الخارج، على أن لا يكون له من الأمر شيء سوى اسم الملك، وهو يحاول العودة إلى السلطة التي يعتقد أن أخاه فيصلاً سلبه إياها. فبعد ستة أشهر من عودته، طالب الملك بعودة السلطة كاملة إليه، ولكن ولي العهد رفض رفضاً قاطعاً، واستنفر قوات الحرس الوطني. حاول مفتي البلاد، محمد بن إبراهيم آل الشيخ، أن يتوسط بين الأخوين، بأن يبقى سعود ملكاً، ويحتفظ فيصل بالسلطة التنفيذية، ولكن الملك رفض، واستنفر بدوره قوات الحرس الملكي. فطوقت قوات الحرس الوطني، المؤيدة لولي العهد، قصر الملك في الناصرية، وحُسم الأمر لفيصل. وأفتى العلماء بتسليم فيصل السلطة كاملة، على أن يبقى سعود ملكاً.

وبعد سبعة أشهر من هذه الحادثة، اجتمع مئة أمير وخمسة وستون عالماً

من علماء الدين، في فندق «صحارى»، وقرروا مبايعة فيصل ملكاً، وتنحية سعود. ولكن سعوداً لم يتنازل عن الملك إلا بعد ذلك بأسبوع، ثم غادر البلاد مع مطلع السنة الميلادية الجديدة، ولم يعد إلا جثة بعد ذلك بأربعة أعوام. وعين فيصل أخاه خالداً ولياً للعهد، وانتهت بذلك مرحلة أعادت إلى الأذهان أياماً نسيها الجميع منذ أن وحد عبد العزيز البلاد.

والحقيقة أنه قد تبين منذ عام ١٩٥٨ أن هناك متغيرات كثيرة تعصف بالمنطقة، وكان لابد أن تثير الاختلاف في التعامل معها. فالمد القومي الناصري كان على أشده، خاصة بعد اندحار العدوان الثلاثي، والتنظيمات القومية واليسارية المطالبة بالإصلاح كانت تزداد انتشاراً وقوة.

فجاء فيصل رئيساً للوزراء، بكامل الصلاحيات التنفيذية، ولكن الملك سعود ما لبث أن استعاد السلطة كاملة في أواخر عام ١٩٦٠، بعد أن تحالف مع مجموعة «الأمراء الأحرار»، المتأثرين بالمد القومي المتنامي في المنطقة. وخلال سنتين، حاول الملك سعود أن يكسب بعضاً من الشعبية المفقودة، فلأول مرة في تاريخ دولة عبد العزيز تتكون الحكومة من وزارة أغلبيتها من غير الأمراء. وأعلن من إذاعة مكة النية في تكوين مجلس وطني منتخب، ووضع دستور للبلاد، ولكنه ما لبث أن تراجع عن هذا الإعلان بعد فترة لم تتجاوز ثلاثة أيام. كما أنه أغلق القاعدة الأمريكية في الظهران، التي ما لبثت أن عادت خلال أزمة اليمن.

غير أن أهم حدث كان مؤثراً في الصراع بين الأخوين، ومؤيديهم من الأمراء وعلماء الدين والقبائل، كان الثورة في اليمن. فقد بدت هذه الثورة كأنها تحد للشمال بمصير مثل مصير الجنوب، فعاد فيصل إلى الواجهة من جديد، وقام فور عودته بتشكيل حكومة جديدة، ووضع برنامجاً للإصلاح من عشرة بنود، أهمها كان النية لإصدار نظام أساسي للحكم، استحداث أنظمة جديدة، وإلغاء الرق. كان البرنامج محاولة إصلاحية لقطع الطريق على الآثار المحتملة للثورة في اليمن، ومن ورائها الفكر القومي. وفي الوقت نفسه، قام الملك الجديد بحملة واسعة لقمع التنظيمات السياسية السرية التي

استشرت وانتشرت في جميع أرجاء البلاد.

لم يكن جابر معنياً ولا مهتماً بكل هذه الأحداث التي كانت تجري أمام ناظريه، إذ كل ما كان يعنيه من الأمر هو ألا تعود صراعات «الشيوخ» من جديد، وتنهار الدولة التي قاتل هو وأبو عثمان في سبيلها. لم يكن يحب فيصلاً كثيراً، ولكنه كان معجباً به وبقدراته السياسية. وكان يحب سعوداً، فهو الأقرب إلى عبد العزيز شكلاً وخلقاً، والأقرب إلى قلوب الناس، ولكنه لم يكن معجباً بقدراته التي لا ترقى إلى قدرات والده. ورغم إعجابه بفيصل، فإنه لم يغفر له إقصاء الشيخ عبد الله الطريقي من الوزارة. فخلال فترة وجيزة، أصبح عبد الله الطريقي أسطورة بين العرب في أرامكو، وشيطاناً عند كل أمريكي. ورغم الرعب الذي ساد بعد أن أصبح فيصل ملكاً، واعتقال الكثير من زملائه في الظهران ورأس تنورة، كان جابر غير حانق، بل وإزداد إعجابه بالملك الجديد، ففيصل حافظ في النهاية على دولة عبد العزيز، وهذا هو المهم في ظل الظروف المتقلبة التي تعيشها المنطقة.

٨

وانفجرت التظاهرات في الرياض، في أعقاب انتشار أنباء عن دور بريطاني وأمريكي في دعم العدوان الإسرائيلي على مصر وسوريا والأردن، وعادت الذكرى بجابر إلى تلك الأيام الخوالي، أيام أرامكو واللجنة العمالية وذكرى عبد الرسول وحسن، رحمهما الله. حاصرت الجماهير الغاضبة سيارة الملك، وكانت تهتف مطالبة بقطع إمدادات النفط عمن شارك في العدوان مع إسرائيل. واستجاب الملك لمطالب الجماهير رسمياً، ولكن بعد أن حققت إسرائيل أغراضها واحتلت الضفة والجولان وسيناء. وفي الظهران، التي كان جابر يتابع أخبارها بحرص شديد، أضرب عمال تصدير النفط، فلم يعد بالإمكان تصدير النفط حتى قبل قرار الملك بمقاطعة الدول المساندة للعدوان. وهاجمت الجماهير الغاضبة الحي الأمريكي في الظهران، وكل من له وجه أبيض في شوارع الدمام والخبر. ووصلت أنباء لجابر أن اعتقالات جرت في قاعدة الظهران العسكرية، بعد أن رفض بعض الضباط

الكبار أوامر إطلاق النار على الجماهير الغاضبة. لقد انقلبت البلد رأساً على عقب تلك الأيام، وبدا كأن أيام الخمسينيات عادت. فقد سادت موجة من الرعب والاعتقالات، أعادت إلى ذهن جابر أيام أرامكو وبداية عهد الملك بعد الانتصار على شقيقه سعود. أصبح الرعب مثل الهواء الذي يتنفسونه تلك الأيام، فما من يوم يمر، إلا ويسمعون عن اعتقال فلان أو علان، أو هذه المجموعة أو تلك المجموعة. وكثرت الأخبار والشائعات عن محاولات انقلابية يقودها ضباط كبار في الجيش، وأصبح الحديث في السياسة محرماً أكثر من ذي قبل، حتى أن الفرد أصبح لا يثق حتى في أخيه. وكان جابر يمني النفس بأنها مجرد غمة وتزول، أو سحابة صيف لا تلبث أن تنجلي، ولكن مرور الأيام كان يحمل المزيد من أخبار الرعب والاعتقالات. لم يكن لدى جابر ما يخشاه، خاصة أنه ترك عمله في مكتب أرامكو بعد الحرب مباشرة، ولكن ألماً دفيناً في النفس كان ينغص عليه حياته، ويعكر عليه سكون نفسه، كلما وصله نبأ من هذه الأنباء. فإلى وقت تلك الأيام العصيبة، كان الملك فيصل بالنسبة إلى جابر هو خليفة عبد العزيز، والقادر على المحافظة على مشروع عبد العزيز وتجديده، رغم كل الأخطاء البسيطة، والتي كان جابر يعتبرها ثمناً للمحافظة على المشروع. ولكن ما يجري اليوم جعله يمقت فيصلاً، وإن كان الإعجاب القديم لا زال قابعاً في ثنايا النفس. أما كان من الممكن معالجة الأمور بحكمة أكبر، وأساليب أقل رعباً ودموية وعنفاً مما يجري؟ كان جابر يحدث نفسه بذلك طوال تلك الأيام العصيبة. وتذكر كلمات سميح التي قالها له في أعقاب مقتل الملك فيصل بن غازي في العراق... ويل للعرب من شر قد اقترب... أكان يتحدث عما يجري اليوم، ضمن ما كان يجري؟ إنه لا يدري، ولكن ما يجري لا يبشر بخير، فالعنف دائرة تبدأ ولا تنتهي، والدم في النهاية لا يجلب إلا الدم...

وظهر له سميح ذات ليلة خلال تلك الأيام العصبية. فقد كان جالساً في فناء بيته قبيل الفجْر، يتابع الأخبار ويبحث عما يسلي في راديو

الترانزيستور الصغير الذي لا يفارقه، بعد أن جافاه النوم، وعانده الكرى، واستغرقت هند والأبناء في نوم عميق في الداخل. كل شيء كان ساكناً وهادئاً في الرياض، مذكراً بتلك الأيام الخوالي التي كان يموت فيها كل شيء بعد صلاة العشاء مباشرة. كانت السماء في غاية الصفاء، والظلمة تحيط بكل شيء، رغم محاولات بصيص من النور هنا وهناك أن يصارع الظلمة. وغفا جابر مع صوت أم كلثوم وهي تغني من صوت العرب:

أصبح عندي الآن بندقية ... إلى فلسطين خذوني معكم
إلى ربى حزينة كوجه المجدليه ... إلى القباب الخضر والحجارة النبيه
عشرين عاماً وأنا أبحث ... عن أرض وعن هويه

ولكنه لم يلبث أن أفاق على يد تهزه برفق وصوت يقول: «كيف ينام الحارس، ويغفو المنتظر؟!». نظر جابر ملياً خلال الظلام، وهو يدعك عينيه بقوة، بينما كان صوت فيروز ينساب على استحياء: «الطفل في المغارة، وأمه مريم، وجهان يبكيان»، وهناك رآه... كان يجلس القرفصاء بجانب باب البيت الخارجي، وكانت معه تلك العصا الزيتونية الخضراء التي رآها معه أول مرة ليلة حديث الجبل في الظهران. لم يتغير على الإطلاق، ذات سميح الذي يذكره. كان يلبس جلباباً غاية في البياض، حاسر الرأس، وذات تلك الخصلة الفضية تبرق في الظلام. وأتاه صوت سميح وهو يقول: «من آمن بالدهر، كان من المغفلين». وأراد جابر النهوض، ولكن شيئاً كان يربطه بالأرض، في حين جاء صوت سميح مرة أخرى وهو يقول: «ومن كفر بالدهر فهو من المغفلين». طلاسم وأحاج ورموز، ككل كلامه دائماً. وأخيراً تحررت قدما جابر، ونهض وأراد التوجه إلى حيث سميح، ولكنه كان قد اختفى، وكانت نجمة خضراء بعيدة قد توسطت كبد السماء تبرق بشكل غريب، بينما كانت فيروز تصرخ: «ومشيت في الشوارع، شوارع القدس العتيقة»، وكان ذلك آخر علم جابر بنفسه. أفاق على حرارة الشمس في اليوم التالي، ويد هند الرقيقة تهزه، بينما كان صوت فيروز الدافئ ينبعث خافتاً من الراديو وهي تهمس: «أعطني الناي وغنِّ،

فالغنا سر الخلود، وأنين الناي يبقى، بعد أن يفنى الوجود..».

٩

وبدأت الدنيا تصبح غير الدنيا. كأن زلزالاً أصاب الرياض، وخبالاً عاماً ضرب عقول الناس. عادت حمى الذهب في كاليفورنيا، ولكنها اليوم في الرياض والظهران وجدة. بعد الحرب الأخيرة بين العرب وإسرائيل، ومقتل الملك فيصل، ارتفعت أسعار النفط، وفتح الملك خالد خزائن الدولة للجميع، وأخذ الجميع يلهثون وراء هذه الثروة المفاجئة. خلال عام وأقل من عام، انقلب كل شيء رأساً على عقب. بيوت كثيرة هُدمت، وعمارات دمرت، وشوارع فُتحت، ولم تعد الرياض هي الرياض. حتى بيته الذي اشتراه في «حلة القصمان» بدراهم معدودة، وبقي بدراهم معدودة حتى قبل أقل من عام، أصبح اليوم يساوي ثروة طائلة. وقد باع أخواه بيتيهما في الحلة، واشتريا قطعتي أرض في مخطط عمراني جديد أطلقوا عليه اسم «العليا»، ونصحا له بأن يفعل مثلهما. ولكنه رفض، وهو يضحك في سره منهما، فالمنطقة الجديدة التي نصحا له بالشراء فيها منطقة صحراوية وبعيدة عن أي عمران، ولن يصلها العمران ولو بعد قرن. لقد تغيرت الرياض فعلاً وتوسعت، ولكنها لا يمكن أن تمتد إلى تلك المنطقة النائية.

حاول أن يثنيهما عن عزمهما، ويبين لهما أن المخطط الجديد ليس إلا ألعوبة من ألاعيب سماسرة الأراضي الذين ازداد عددهم هذه الأيام، مع زيادة المنح وحركة البيع والشراء، إلا أنهما نصحا له بدورهما باغتنام الفرصة قبل أن «تطير الطيور بأرزاقها». شيء في داخله يقول أنهما على حق، فكل شيء ينقلب ويتغير بسرعة رهيبة، ولكنه عازف عن كل شيء، وفي داخله خوف من هذا التغيير. فحتى الناس أخذوا يتغيرون بسرعة غريبة. إذ حتى جاره أبو محمد، الذي كان يسمر هو وإياه كل ليلة تقريباً بعد انقضاء صلاة العشاء، أصبح لا يراه حتى في المسجد، فهو يقضي معظم وقته، بل كل وقته، في مكتبيه العقاريين اللذين افتتحهما على طريق «صلبوخ» وطريق

«خريص»، ولا يكاد يفارقهما ليلاً أو نهاراً. وعندما عاتبه ذات مرة من المرات النادرة التي رآه فيها، قال له أبو محمد على عجل: «اليوم الوقت بقروش يا أبو عثمان... البخت ما يجي إلا مرة واحدة»، ثم وهو يضحك: «ما سمعت وش يقولون؟... يقولون أن من لم يغز مع عبد العزيز فلن يغزو، ومن لم يثرِ مع خالد، فلن يثري»، ثم يلف «بشته» تحت إبطه، وينطلق إلى حيث يعتقد أن المال هناك.

بدأ جابر يجد نفسه غريباً في الرياض التي لا تنتمي إلى الرياض. لم تكن رياض عبد العزيز، ولا سعود ولا فيصل... بل لم تكن رياض نجد التي عرفها. أنها رياض أقرب ما تكون إلى نيويورك إيشل، أو أوستن غريس، ولكنها ليست الرياض التي يعرف، والتي لجأ إليها هرباً من غربة الظهران ورأس تنورة. حتى منازل الجيران في الحلة أخذت في الزوال، فبعضها أصبح مهجوراً بعد أن غادرها أصحابها إلى أماكن أُخرى، وبعضها بدأت البلدية في هدمه من أجل أعمال التوسعة، ولم يعد في الحلة من أهل الحلة إلا القليل. بل أن الكثير من بيوت الحلة المهجورة أخذت تكتظ بالأجانب من كل جنس وكل لون، من ذوي البشرة الصفراء والسمراء وحتى الحمراء، وأصبح هو الغريب في حلة قصمان لم يعد فيها أحد من القصمان. عجيب أمره مع الأجانب، فهو يهرب منهم في كل اتجاه، وهم لا يريدون تركه. لم يعد يدري ما يفعل، فلا هو قادر على الدخول في المعمعة الجديدة، ولا هو قادر على البقاء على هامشها، فإن تركها فإنها لا تتركه.

وترك الحلة، والبيت الكبير، حتى أولاده، وكان عبد العزيز أول التاركين، وانخرطوا في المعمعة الجديدة. منذ صغره وابنه عبد العزيز يحب «القرش»، ولكن لم يخطر في بال جابر أن يفضله على والده. لم يبق معه في المنزل إلا ولده الكبير عثمان، والصغير فيصل، الذي كان يلح على والده مع كل إشراقة شمس وغروبها أن يبيع منزل الحلة، وينتقلوا إلى مكان آخر، فقد كان محرجاً أمام أصحابه في «ثانوية اليمامة» من هذا المنزل القديم، الذي لا

يستطيع دعوتهم إليه. وكاد جابر أن يرضخ عدة مرات أمام رغبات فيصل، ولكنه كان يمنع نفسه في آخر لحظة. الشيء الوحيد الذي أطاع فيه فيصلاً على مضض هو جلب خادمة وسائق من وراء البحار، وكان فيصل يريد أكثر من ذلك. حتى السيارة لم يشترها لفيصل، رغم «زنه» الدائم، ورغم قدرته على شرائها، فلم يكن يؤمن بضرورة السيارة لفتى صغير مثله، فقد تجعله ينحرف، ولكنه فوجئ ذات يوم بفيصل وهو يعود إلى البيت بسيارة جديدة من نوع «مازدا سبور»، اشتراها له أخوه عبد العزيز من دون علمه. وغضب جابر على عبد العزيز لفترة، وفي النهاية رضخ للأمر الواقع، وهو يردد بمرارة: «إذا ما طاعك الزمان طيعه... إذا ما طاعك الزمان طيعه...».

ورغم أن فيصلاً استمر في العيش مع والده في البيت الكبير بعد مغادرة الجميع تقريباً، إلا أن معظم أيامه كان يبيتها في منزل أخيه عبد العزيز في «السليمانية»، ولولا الخشية من غضب الوالد، والملامة من حديث الناس، لربما استقر هناك نهائياً. أما عثمان، فقد كان ضعيف الشخصية بشكل مثير حتى لوالده جابر، رغم أنه يحاول أن يغطي ضعف الشخصية بالورع والزهد. كان ينظر إلى كل ما يجري بلوعة وشوق، ولكنه غير قادر على الدخول في المعمعة، كما عبد العزيز وصالح. كل ما كان يجيده هو الذهاب إلى عمله في المحكمة الكبرى كاتباً للعدل، والعودة إلى المنزل. وكان محسوداً على وظيفته كاتباً للعدل أيام الانقلاب هذه، فقد أثرى الكثير من كتّاب العدول لمجرد قيامهم بتحرير صكوك بيع وشراء العقارات، حيث ينالهم من الصفقات المعقودة ما فيه النصيب، ولكن عثمان لم يكن قادراً على فعل ما يفعله بعض كتّاب العدل الآخرين، فأصبح مضطهداً بينهم. كانوا يعتقدون أنه لا يفعل ما يفعلون ورعاً وزهداً، فكانوا يخشونه على «أرزاقهم»، ولكن الخوف كان هو الذي يمنع عثمان من الانخراط في زمرتهم. لم يكن خائفاً من شيء بعينه، بقدر ما كان خائفاً من كل شيء أو أي شيء. حتى طريق ذهابه وعودته إلى العمل لم يتغير إلا لاحقاً. رغم تغير الطرق منذ سنين: كل شيء يجعله يشعر بالخوف، حتى عندما حول

طريقه إلى العمل لأول مرة، بدا كأنه يستكشف مجاهل القطب الشمالي لأول مرة.

كان جابر في غاية الضيق من ضعف شخصية ابنه الأكبر عثمان، ولكنه كان مسروراً لعفته، التي لا يدري مصدرها: أهي التقوى أم الخوف، أم هما معاً. ولكن أهم ما في الأمر، أن عثمان باق عنده في البيت هو وزوجته وولداه، وهذا وحده كاف لسرور جابر. ومع الأيام لم يعد عبد العزيز وصالح وأولادهما يرون جابراً إلا في المناسبات، حتى غداء الجمعة التقليدي الذي كان يجمعهم إلى وقت قريب، لم يعودا يحضراه، بعد أن كان الجميع يجتمعون على مائدة الوالد. بل أن الصغير فيصلاً نفسه، كان يتهرب من الغداء مع والده أيام الجمع، وأيام أُخرى تكاثرت فيما بعد، ليتناوله مع أصحابه في نزهاتهم، أو في منزل أخيه عبد العزيز. لقد كان فيصل أشبه الجميع بأخيه عبد العزيز في شخصيته وتصرفاته، وذاك ما كان يقلق جابر. صحيح أن جابراً كان معجباً بقوة شخصية عبد العزيز، وحيويته الدائمة، وحركته التي لا تهدأ، ولكنه كان ينظر بخوف وقلق إلى عطشه الذي لا يرتوي في البحث عن القرش، واستعداده لعمل أي شيء من أجله. «المال نعمة حقاً»، كان جابر يكرر أمام ابنه عبد العزيز، «ولكنه وسيلة وليس غاية، ونعمة المال في بركته وليس في كميته». كان جابر يردد ذلك كثيراً أمام عبد العزيز، وكان يعلم أنه لا يأبه لما يقول، وإن أبدى الموافقة احتراماً لوالده، ولكنه كان يفعل ذلك من باب أداء الواجب وبذل النصيحة لولده.

ولكن أكثر ما افتقده جابر هو ابنته «مزنة»، التي زوجها لعثمان السايح قبل عدة سنوات. فرغم أنها لم تتعلم كما كان يتمنى، رحم الله هيلة التي لم تكن تؤمن بجدوى تعليم الفتاة، فإنها كانت قوية الشخصية، وحافظت على بيت والدها بعد وفاة والدتها، فكانت الأم والأخت لإخوتها، وخير أنيس لوالدها. يا لها من امرأة قوية، فقد دفعت زوجها عثمان إلى مشاركة أخيها صالح في بعض أعماله التجارية، وتتابع تربية أبنائها: عبد العزيز، وجابر وصالح والصغيرة زهرة، بنفسها. ويبتسم جابر وهو يتذكر

كلام مزنة عندما كانت تتشاجر مع إخوتها عندما كانوا لا يفعلون شيئاً تنصحهم به، ويعيرونها وهم يضحكون بكونها امرأة لا تفقه من أمور الحياة شيئاً، إلا الطبخ والنفخ و«جيب البزران»، والتمتع بها على عوجها، فقد خلقت المرأة من ضلع أعوج. كانت تقول: «الشكوى لله... عز الله ما تدرون عن النعمة اللي أنتم فيها... ذكور في مجتمع لا يعترف بغير الرجال... عز الله أنكم أنتم العوجان...»، ثم تتأوه وهي تقول: «ليتني كنت رجلاً... لكن الشكوى لله...»، فيزجرها جابر بغضب ظاهر، وهو يكن لها كل الإعجاب في داخله. ورغم زواج مزنة منذ زمن، إلا أنها لم تنقطع عن زيارة والدها كل عصرية جمعة، وأحياناً أكثر من ذلك عندما تسمح لها الظروف. كم كان جابر يود تلك الأيام أن يخبر أبناءه عن أخيهم سميح الغائب وأمه غريس، وكيف اختفيا في بيروت في ظروف غامضة، ولكن شيئاً في داخله كان يمنعه، ثم يؤجل الموضوع إلى ما لا نهاية. كم كان يود جابر لو يظهر له سميح، أو أحد من طرف سميح، يدله على الطريق، ولكن سميحاً لم يعد يظهر له منذ تلك الأيام العصيبة، أيام الهزيمة والمرارة...

١٠

وذات يوم، ككل يوم، ولكنه لم يكن ككل يوم، بعد حوالى أسبوع من زيارة السادات للقدس، حصل ما لم يكن في الحسبان. فقد لحَّ عليه ابنه عبد العزيز أن يرافق الجميع إلى مزرعة «المزاحمية» التي اشتراها مؤخراً، حيث تجتمع أسرة السدرة، جابر وأخواه وأبناء عمومتهم والأبناء جميعاً، وبعض الأنسباء القريبين، احتفالاً بشراء المزرعة الكبيرة. لم يكن جابر راغباً في أي علاقة مع ابنه عبد العزيز، ولكنها كانت فرصة لا تعوض تلك الأيام ليرى أناساً لم يرهم منذ زمن، ولا سيما أخويه وأبنائهما، الذين لا يدري عنهم شيئاً. وكان يوم أحس فيه جابر بسعادة ضافية لم يعهدها منذ زمن طويل، ومنذ وفاة هيلة تحديداً. تحدث كثيراً، وضحك كثيراً، وأكل كثيراً ذلك اليوم مع إخوته وأبناء عمومته، وطاف بذهنه أبو عثمان كثيراً، وأحس أنه يتنفس

بجانبه، فلم يشعر بذاك الصفاء الغامر منذ أيام أبي عثمان. وقرر «آل سدرة» ذلك اليوم أن يرسموا شجرة للعائلة، تكون مرجعاً لأجيالهم الجديدة من أبناء «الطفرة»، الذين لا يعرفون من أين أتوا وإلى أين هم ذاهبون، كما كان الكبار يشكون. والغريب أن أكثر المتحمسين لهذا الأمر كان عبد العزيز، أو «عبد القرش»، كما أصبح جابر ينعته في الأيام الأخيرة. فبعد أن أصبح عبد العزيز مليونيراً، ورجلاً من رجال الأعمال المرموقين والمعروفين، كان يريد أن يتم وجاهته بالنسب بعد الحسب. واتفق الجميع على هذا الأمر، وتكفل عبد العزيز بكل التكاليف المالية، بينما تعهد عثمان وصالح السدرة بالأعمال الأُخرى.

وفي تلك الليلة، أحس جابر بالحاجة إلى الاختلاء بنفسه، فقد أرجعته كثبان الرمل النقية إلى أشياء أخذت تعتمل في نفسه، فترك الفيلا والخيام المنصوبة في وسط المزرعة، وتوغل في الرمال المحيطة، حتى اختفت أصوات المتحدثين والضاحكين، ولم يعد يلمح إلا بصيص أنوار تلوح من بعيد. اختار كثيب رمل أكثر ارتفاعاً مما حوله، وجلس في ظلام دامس وهو ينظر إلى بريق النجوم في تلك الليلة الصافية من ليالي «الوسم»، ويفكر من دون أن يفكر. كل شيء جميل وهادئ وساكن، والهواء في غاية الرقة والعذوبة. وأخذت عيناه تغفوان مع النسيم الذي يدغدغ النفس قبل الجسد، وذاك السكون الذي لا يجرحه إلا عواء بعيد. وفجأة أحس بحركة قريبة، فجلس قائماً، وهو يستعد لمقابلة أحدهم لا ريب أنه قادم من المزرعة. ولكن الوقت يمر، وهو يسمع صوت خطوات، ويحس بشيء غير بعيد عنه، ولا يظهر شيء. أحس بالرعب يجتاحه، فالقادم ليس إنساناً ولا حيواناً، أيكون من الجن؟ وأخذته رعدة، وأخذ يتلو المعوذتين وآية الكرسي بصوت مرتفع، ولكن الخطوات لا زالت مسموعة. أيكون متوهماً ما يسمع؟ كلا... إن الصوت واضح وضوح صوت الكلب القادم من بعيد، ووضوح بصيص النور والنجوم من بعيد. لم يعد يحتمل أكثر، فقرر العودة من حيث أتى. وقبل أن ينهض، جاء صوت يعرفه جيداً، صوت غاب عنه من زمن

وفقد الأمل في سماعة مرة أخرى... إنه صوت سميح الذاهل... رباه... أواهم أنا أم أنها الحقيقة... أخذ جابر يحدث نفسه، وقلبه العجوز يخفق كما أيام الشباب والحب... ولم يخامره الشك في حقيقة ما يجري عندما جاء الصوت مرة أخرى بكل صفاء ووضوح:

ـ تكاثرت الأيام وطال الأمد يا جابر...

والتفت جابر إلى الجهة الشرقية حيث مصدر الصوت، فلم يصدق ما يرى... كان سميح يقف هناك، وقد كان القمر بدراً من ورائه، وإلى جانبه يقف شخص آخر، يشبهه تماماً لدرجة أنه هو... كلا لم يكن شخصاً آخر، بل كان سميحاً وقد انقسم إلى شخصين. وأخذ العرق يتصبب غزيراً من مسام جابر، وقلبه يكاد يندفع إلى الأمام وهو يرى توأم سميح... لقد كان ابنه... ابن غريس... سميح الغائب... كانا هناك في الشرق يقفان، ومن ورائهما القمر لامع كأشد ما يكون اللمعان، وقد بدا كوجه غريس أو زهرة... سميح الذاهل وسميح الغائب معاً، شابان في ذات العمر... بقي مشدوهاً لفترة لا يعلم مداها من الزمن، ثم حاول النهوض، وكله شوق لضم سميح الغائب إلى صدره، وكم من الأسئلة يعتمل في داخله... غريس، بيروت، الضيعة، الجبل، عايش، البوسطة... ولكن صوت ابن السموات أتاه حازماً وهو يقول:

ـ ابق مكانك يا جابر...

ولم يكترث جابر وحاول النهوض، ولكنه أحس كأن قدميه غاصتا في رمال الكثيب، فلم يستطع حراكاً، وجاءه الصوت ثانية:

ـ طال الأمد وحانت اللحظة يا جابر... الكواكب تقارنت، والنجوم تقاربت، وأُعد الصور، وهيىء للنشور، ولم يبق إلا الإذن بالصدور...

ـ لقد انتظرتك كثيراً، ولكنك تركتني...

ـ بالرغم مني يا جابر، كنت أسيراً، وكنت أرسل لك من ينقل كلماتي...

ـ حتى أولئك لم يعودوا يظهرون. . .

ـ وكيف يظهرون وقد تغير الدهر؟. .

ـ وكيف لا يظهرون وقد تغير الدهر؟. .

ـ كان بإمكانك رؤيتي ومقابلتي حتى لو لم تفعل. . .

ـ ولكنك لم تعودني ذلك. . .

ـ تعود من جديد. . . فنحن من نصنع العادة، وليست العادة من يصنعنا. . .

ـ بودي لو أضم سميحاً ابني إلى صدري. . .

ـ هو في صدرك دائماً، ما دمت لم تنسه. . .

ـ أريد أن ألمسه وأتحسسه. . .

ـ كن مع الدائم واترك المؤقت. . .

ـ لا أستطيع. . .

ـ حاول. . .

ـ كيف تحررت من الأسر. . .

ـ حررت نفسي. . .

ـ ألم يحررك سميح ابني؟. .

ـ سميح ابنك هو أنا، وأنا هو سميح ابنك. . .

ـ أنت ابن السموات وهو ابن السدرة. . .

ـ كلها وسائط والجوهر واحد. . .

ـ ماذا حدث لغريس؟. . هل كانت في بيروت فعلاً؟. .

ـ نعم ولا . . .

ـ أعطني جواباً . . .

ـ قد أعطيتك . . .

ـ أين هي الآن؟ . .

ـ لا تقلق . . .

ـ أريد أن أعرف . . .

ـ ستأتي اللحظة وتعرف . . .

ـ متى؟ . .

ـ خُلق الإنسان عجولاً . . .

ـ تغيرت الدنيا . . .

ـ اتركها . . .

ـ لا أستطيع . . .

ـ حاول . . .

ـ كيف؟ . .

ـ عد إلى الحب . . .

ـ لم يعد حباً . . .

ـ هو حب ما دمت تريده كذلك . . .

ـ متى أراك؟ . .

ـ حين تريدني حقاً . . .

ـ هل أنتظرك في الحب؟ . .

ـ سنأتي جميعاً...

ـ متى؟..

ـ متى أَذن صاحب الإذن... واللحظة قريبة... اللحظة قريبة... اللحظة قريبة...

وأخذ السميحان يختفيان باتجاه القمر، بينما تحررت قدما جابر، وأخذ يركض ويمد يديه إلى القمر لعله يدركهما، ولكنه لم يستطع، فألقى بنفسه على الرمال الناعمة وأخذ يبكي بحرقة وحرارة وهو ينظر إلى القمر الذي أخذ يكبر ويكبر، ويحمر وجهه وهو يختفي رويداً رويداً في بحر الأبدية، بينما كانت حبات الرمل النقية تلتحم بقطرات الدمع التي كانت تملأ وجنتي جابر، ويتحول الجميع إلى طينة خشنة تلتصق بالجلد التصاقاً...

أخذ جابر ينظر باستغراب إلى وجوه أبنائه التي كانت تحيط بفراشه، وميز من خلالها وجه مزنة الصبوح، وقد تبللت عيناها، واحمر أنفها. لا يدري ما الذي جرى، فكل ما يذكره هو حديثه مع سميح على النفود، والقمر ساعة الاحتضار. نظر حوله، فعلم أنه ما زال في مزرعة المزاحمية، فهب قاعداً وهو يقول باضطراب واضح:

ـ ما الذي جرى؟.. ماذا حدث؟..

وجاء صوت ابنه عبد العزيز ثابتاً كعادته:

ـ لقد افتقدناك ليلة البارحة حين تأخرت في المرواح، فخشينا أن يكون قد جرى لك مكروه، فخرجنا للبحث عنك، حتى وجدناك مغشياً عليك على نفود رمل بعيد، وقد غطت الرمال وجهك كله، حتى أنك بالكاد كنت تتنفس... حمداً لله على سلامتك يا والدي...

وقبَّل عبد العزيز جبين والده، وغمغم الجميع بجملة عبد العزيز الأخيرة، بينما ألقت مزنة بنفسها على صدر والدها وهي تعانقه، وقد تركت لدموعها العنان. وشعر جابر بالرغبة في البكاء فعلاً وهو يسمع نشيج مزنة،

ولكنه تحامل على نفسه حتى لا يفقد رباطة جأشه وهيبته أمام أولاده. وأخذت الأسئلة تنهار عليه من كل صوب: «ماذا كان يفعل هناك على النفود؟ ولماذا غشي عليه»، وكان جابر في حيرة مثلهم... هل يحدثهم عن السميحين، والقمر الذي تحول إلى وجه غريس وزهرة؟ لا بد أنهم سيعتبرونه مجنوناً، أو شيخاً خرفاً في أحسن الأحوال. ولكنه هو نفسه كان في حيرة واضطراب: هل فعلاً رأى ما رأى، أم أنها كانت مجرد أوهام وأحلام ليلة رق نسيمها؟ ولكن شيئاً في داخله يؤكد له أنه رأى ما رأى، وكان السميحان هناك، وكانت غريس وزهرة في وجه القمر. لا... ليس مجنوناً ولا معتوهاً ولا حالماً، لقد رأى ما رأى، وسيعود إلى الخب، وينتظر اللحظة. وأحس فجأة بنشاط عجيب، فهب واقفاً كأيام الشباب، وهو يبتسم، وينظر إلى أولاده بحب وهو يقول بهدوء، وقد لاح في عينيه بريق عجيب:

ـ إني عائد إلى الخب... آن للابن الضال أن يعود إلى أهله...

وساد صمت لم يجرؤ أحد على قطعه، حتى قال عبد العزيز:

ـ وماذا تفعل في الخب يا أبي؟.. فهو حتى لم يعد موجوداً...

وابتسم جابر بسمة غامضة وهو يقول:

ـ وماذا أفعل هنا؟..

ثم وهو يسرح بعيداً:

ـ والخب موجود ما دمنا نريده موجوداً... هكذا قال ابن السموات...

وكانت تلك أول مرة منذ زمن بعيد يتحدث فيها جابر عن سميح أمام أولاده، الذين كانوا واقفين وقد علا الوجوم وجوههم، ما عدا مزنة التي كانت تقول:

ـ افعل ما يريحُك يا أبي... نحن لا نريد إلا راحتك...

فنظر إليها جابر مبتسماً، وهو يتأملها لأول مرة منذ زمن لا يدري كم طال... يا الله، لكم تشبه أمها هيلة، بل أنها تكاد تكون هيلة ذاتها. وانطلق جابر خارج الفيلا، يتبعه أولاده على عجل، وهو يردد بصوت مسموع:

ـ آن للابن الضال أن يعود... آن للابن الضال أن يعود...

خواتيم

وعن عكرمة أنه قال لو جعل الله نور جميع أبصار الإنسان والجن والدواب والطير في عيني عبد ثم كشف حجاباً واحداً من سبعين حجاباً دون الشمس لما استطاع أن ينظر إليها، ونور الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، ونور الكرسي، جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءاً من نور الستر، فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه عياناً؟..

❁ ❁ ❁

وعلى الصفحة الأخيرة، كتب جدي بخط أندلسي جميل:

لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور. أبو المعالي الجويني.

وبجانبه كتب جدي تعليقاً صغيراً يقول: «الويل لابن سدرة إن لم يتداركه ربه برحمته. اللهم إيمان كإيمان العجائز، وعقيدة كعقيدة شيبان نجد».

وأطبقت مخطوط جدي، وقد أحسست أن الأرض تميد من تحتي، وأفكاراً كثيرة تدور في رأسي... هل كان جدي يوصينا بالبحث عن سميح الذاهل وانتظاره، أم أنه كان يعني ابنه سميح الغائب؟.. لقد أوصى

أعمامي بالبحث عن «أخيهم» سميحاً، فهل كان يعني عمي سميحاً الغائب بالذات؟.. لولا هذا المخطوط، لما علمت أن لي عماً اسمه سميح، وجدة أمريكية لبنانية اسمها غريس... لا أظن أن عمومتي يعلمون بقصة غريس وابنها سميح، ولا أعتقد أن جدي كان يريدهم أن يدروا، وإلا لأعطاهم هم المخطوط، وليس العم عثمان السايح... ولكن لماذا أوصى جدي أن يسلم المخطوط لي أنا بالذات؟ هل يريدني أن أواصل البحث عن سميح؟ ولكن لماذا أنا من بين كل أبنائه وأحفاده؟ لست الأذكى ولا الأنشط من بين كل هؤلاء، ولكنه اختارني أنا بالذات لسبب لا أعلمه. ربما لأني كنت أقرب إليه من الآخرين في سنواته الأخيرة، وأكثر إيماناً بما كان يقول؟ ربما، لا أدري... ولكنه اختارني وجعلني في وضع لا أحسد عليه، فحياتي بعد النزول إلى هذا البدروم، لن تكون قطعاً كحياتي قبل النزول. يا للعجب... مجرد خطوات قليلة، سبع خطوات تحديداً، على سلم قديم حولت حياتي رأساً على عقب، وستحول حيوات أُخرى ربما. إذن... فلا يعلم عن عمي سميح وأمه غريس إلا أنا والعم عثمان السايح، وزهرة التي سأخبرها بكل الحكاية.

أرجعت المخطوط إلى الصندوق، وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله، وصوت العم عثمان يأتي خافتاً وهو يهلل في طريقه إلى المسجد، بينما صوت العمة مزنة الحاد يلاحقه بتوجيهاتها التي لا تنتهي، في الوقت الذي كانت زهرة تطل عليّ من أعلى الدرج، بوجهها الباسم وهي تقول:

ـ ألم تمل بعد من جلستك في هذا المكان المهجور؟.. لقد صار لك الآن أكثر من عشر ساعات، وكلما أردت النزول إليك، كان أبي يمنعني...

نظرت إليها بحب جارف، وبسمة باهتة تحاول أن تحتل ثغري، وعينين شبه نائمتين، وقلت وأنا شبه غائب عن الوعي:

ـ كلا... لم تكن عشر ساعات فقط، بل هي قرون...

ضحكت زهرة وهي تقترب مني وتقول:

ـ يبدو أن غبار الرياض قد سد تلافيف دماغك...

ضحكت باقتضاب وأنا أقول:

ـ لا شيء يقف في طريق غبار الرياض، وسموم نجد إلا غيثها وصباها... وأنت الغيث والصبا معاً...

واحمرت وجنتا زهرة، ولاحت ابتسامة رضى على ثغرها، ونظرت إلى الأرض بخفر وقلبها يرقص من الفرح، فكل أنثى يطيب لها الغزل... ثم وأنا أنهض متثاقلاً:

ـ زهرة...

ـ يا بعد عيون زهرة... يا بعد كبد زهرة...

شعرت برعشة ولذة غامرة وأنا أسمع زهرة تدللني، فكل ذكر يطيب له الدلال، وليست الغواني فقط هن من يغرهن الثناء، فابتسمت بحبور وأنا أقول:

ـ لقد قررت قراراً...

ـ خير... خير إن شاء الله!...

ـ لقد قررت أن أترك العمل، والبحث عن سميح الذاهل، وسميح الغائب وأمه غريس رزق الله...

لم تفقه زهرة كلمة واحدة مما أعني، فوعدتها بالشرح لاحقاً.

كان أول شيء فعلته بعد ذلك هو ترك العمل في مؤسسة والدي، وسط سخطه وامتعاضه، مبرراً ذلك بالبحث عن مستقبلي اعتماداً على نفسي. ولكني كنت حائراً، فأنا لا أدري من أين أبدأ في البحث عن سميح. وأخيراً، وبفكرة لا أدري من أين جاءت، ولا كيف جاءت، قررت ترك نفسي على سجيتها، تقودني ولا أقودها، لعلني في النهاية أستطيع

الإمساك بطرف الخيط المؤدي إلى سميح... سميح الذاهل أو سميح الغائب، لا فرق...

على فكرة... لقد أنجبت زهرة خلال فترة كتابة حكايتي صبياً سميته سميحاً... لم يكن يشبه سميح الذاهل أو سميح الغائب، ولكنه كان يحمل خصلة الشعر الفضية ذاتها، أو هكذا هُيىء لي. أيكون هو ذاته سميحاً، وقد ظهر لي في النهاية، ولو بشكل مختلف؟ أيكون إشارة أو علامة من سميح على أنه ما زال موجوداً؟ لا أدري، فالحيرة تلف كل شيء، ويكفي أن ميلاده أعاد الفرحة إلى قلب زهرة، والبسمة الصافية إلى ثغرها، بعد أن يئست من الإنجاب والتمتع بالأمومة. وعلى أية حال، فالمسألة سيان، فقد قررت أنه وإن لم أكن قد عثرت على سميح، فسوف أربي سميحاً وأراه ينمو أمامي... فهل عثرت على سميح في النهاية؟.. لا أدري... فليس لي إلا الانتظار، فمن يدري، فقد يأتيني في لحظة انتظار ما لم أجده طوال أيام الانتظار... فكل حياتي انقلبت من دون تخطيط، مني، منذ هبطت درجات ذلك السلم اللولبي، إلى ذلك القبو المظلم المهجور، ثم عدت إلى عالم الأحياء في لحظة من الزمن، منذ آماد نسيت كم هي... آه... أرجو المعذرة... لقد نسيت أن أعرفكم بنفسي... فأنا جابر السدرة... جابر عبد العزيز السدرة...

❀ ❀ ❀

من قرية نجدية ضائعة في أعماق النفود، وفي وقت كانت فيه نجد مقبلة على أحداث عصيبة، سوف تغير كل المقبل من أيامها، انطلق جابر السدرة في البحث عن سميح الذاهل، صديق الطفولة الذي يحمل كل غريب في مولده وحياته وكلامه المُبهم، ثم اختفاؤه المفاجئ وهو في ميعة الصبا ومقتبل الشباب. لم يمت سميح الذاهل، فقد كان يظهر بين الفينة والفينة، ويلقي بكلامه المبهم، ثم يختفي من جديد. وطوال كل تلك السنوات، كان كل شيء يتغير، إلا سميح الذاهل الذي بقي مثل يوم أن خرج من الخب لأول مرة، وكأن لا سلطان للزمان أو المكان عليه.

وقادت رحلة البحث عن سميح جابراً إلى واحات نجد وقراها، ومدن الحجاز وضفاف الخليج، وأرض الأنبياء في فلسطين، وجبال عمان وغوطة دمشق، وناطحات السحاب في العالم الجديد. سنوات طويلة مرت تزوج فيها جابر العديد من النساء، وأنجب العديد من الصبيان والبنات، وتحول كل شيء من حوله، ولكنه لم يجد سميح الذاهل، رغم أنه قابله ورآه وحدثه عدة مرات. رآه على التل في «روضة السبلة»، وعند سفح الجبل في الظهران، وعلى كثبان الرمل في الرياض، وكان هو ذاته لم يتغير، وإن بقي يقول ذات الكلام المبهم غير المفهوم.

وجاءت لحظة الحق، وجابر لا يزال ينتظر ويأمل في أن يعود سميح إلى الخب، ولكنه يموت دون أن يعود. وقبل أن يموت، يكتب جابر مخطوطاً يصف فيه ما رآه وما عاناه وما يبحث عنه. ووقع المخطوط بيد أحد أحفاد جابر، فقاده في رحلة أخرى للبحث عن سميح دامت أربعين عاماً في التيه والضياع كان فيها هو أيضاً من المنتظرين. وهذه الرواية ليست إلا بعضاً مما جاء في مخطوط جابر السدرة من أحداث غريبة، وأمور عجيبة لا يصدقها العقل، خلال سنوات طوال من تاريخ أرض العرب. ولكن، هل بالعقل وحده يحيا الإنسان؟ وهل ما لا يمكن عقله لا يمكن تصديقه؟ وهل بالعقل وحده تتحدد الحقيقة؟ هذا هو السؤال.. هذا هو السؤال.. ونحن لإجابته من زمرة المنتظرين...

ISBN 1 85516 381 0

DAR
AL SAQI
دار الساقي